

محمود بكرى
رواية
برَّه الدُّنْيَا
من أبعد مكان جواك

رواية

بره الدنيا

من أبعد مكان جوالك

محمود بكرى



المزيد من الكتب الحصريۀ ابحث عن

ربيع الكتب

إهداء خاص جدًا

لـ أحن ركن في الدنيا
لـ الصدفة اللي جمعتني بيها
لـ أول فرحة مخلوقالي بالمقاس
لـ ذات النقاب وجنة ربنا ليا عالأرض
لـ البنت اللي قلبها سكني وبيتي
لـ البنت اللي حاسس بجد انها أول خلفتي
لـ البنت اللي هاعيش عمري كله اكتب لها وعنها وبس
البنت اللي مالهاش وصف.. عشان الوصف ظلم ليها
للإيمان الذي أسكنه الله في قلبي لينير لي بقية حياتي..

لها وحدها ♥

إهداء

إلى كُل من يحتاج وقتاً إضافياً ..
أمامك حياة كبيرة ، ووصال أكبر .

" ١٤ فبراير "

كُن سبب سعادتك، ولا تنتظرها من أحد..

لعل جنونك يجلب لك ما تنتظر!

- ١ -

عند الباب توقف، ليتابع المشهد، ويسمع صوتها الأنثوي يرتفع مستنكرًا ما حدث معها من إدارة المكان، وهي تؤكد بغضب أنها اختارت شيئًا محددًا، فكيف لهم أن يرسلوا لها شيئًا آخر. حاول المسئول تهدئتها، وهي لا تبالي بما يقول، غاضبة من عواقب ما حدث، فهناك شخص آخر يعبث في خصوصيتها الآن.

ابتسم من بعيد لطريقة كلامها وردود فعلها التي تشبهه كثيرا، ثم دخل مسرعا، يحمل طفلته على كتفه، موجها الكلام إليها:

- هي دي اللي حضرتك مختاراها، صح؟

نظرت لما في يده بضيق وقد رأتها مفتوحة. من الواضح أنه قرأ محتوى الورقة التي كانت داخلها. هزت رأسها بإيجاب، فنظر لها بهدوء وتابع..

- اتفضلي.. هو بس أكيد حصل سوء تفاهم.

***

لا يعلم كم من الوقت قضى سيرا علي قدميه، في طرقات متفرقة لا يريد منها شيئا. الأكيد، أنه ليس بالقليل، فهو من بعد صلاة الفجر يتجول في شوارع القاهرة. تلفت حوله جيدا -على غير العادة- ثم عبر إشارة المرور، تحت قطرات المياه التي تتساقط من السماء على المارة القلائل المحاولين تفاديها. عبر الطريق، ووقف على الجهة الأخرى يستقبل حبات المطر بحفاوة، وابتسامته لم تفارق وجهه. انتظر خروج الشمس من بيتها، ثم غادر بعد أن اطمئن عليها من خلف السحب. نظر في ساعته، فوجد عقاربها تقترب من السابعة، فأخذ نفسا عميقا ثم بدأ رحلة العودة ركضا على ضفة النيل قريبا من منزله. وصل إلى ناصية الشارع المقيم فيه، وألقى التحية على "عم أحمد" صاحب عربة الفول الواقف في هذا المكان منذ انتقل بإقامته وحياته لهذه المنطقة، البعيدة عن مكان ولادته ومعيشته. أخذ منه طبق الفول مبتسماً، ودخل إلى شقته في الطابق الأول.

شقته صغيرة، تتكون من غرفة معيشة، وصالة، وغرفة نوم، وحمام، ومطبخ. في غرفة المعيشة صندوق خشبي عتيق، يحمل بداخله كتباً كثيرة، قرأ معظمها ومازال يقرأ بقيتها، وبعض أغراضه القديمة وذكرياته المهملة. وفي الصالة الصغيرة، يوجد تلفاز، أمامه جهاز "Play Station" ووسائد عربية موزعة بدون ترتيب على الأرض.

أما غرفة النوم، فأكثر ما يميزها هو أنها غير مرتبة بالمرة، تليق بحياته.

وضع الطبق على الطاولة الصغيرة في المطبخ، ثم دخل غرفته ليوقظها. أزاح عنها الغطاء، ليجد شعرها الأسود الداكن المموج يداري ملامحها الخمرية وعينيها الواسعتين المغمضتين، وابتسامتها الرقيقة تشي بأحلامها السعيدة التي تليق بها. وجدها تحتضن وسادتها بيدين صغيرتين، فلثمهما ثم بدأ يوقظها بهدوء، حتى خرج منها صوت ملائكي:

- مش عايزة اروح المدرسة النهارده.

حملها على ذراعيه، وقبلها على جبينها، ثم ذهب بها إلى المطبخ، حيث قام بغسل وجهها بالمياه، ثم أجلسها على الطاولة بجانب طبق الفول وقال:

- مش قُلت لك امبارح تنامي بدري عشان المدرسة.. عقابا ليكي مافيش أجازة.

نظرت له بمكر طفلة تجيد التمثيل، فكأن الحزن يكسو ملامحها.. فحملها مرة أخرى، وقبلها مرات كثيرة متتالية، وضمها لصدره بحنان أب، لم يعهده من قبل. أخذها من يدها للحمام، ثم بدل لها ملابسها، حتى انتهى من إعدادها للمدرسة، بعد معاناة في إقناعها بالزي المدرسي الذي لم تحبه قط. دخل المطبخ مرة أخرى وهي وراءه، ثم ركع على ركبته أمامها سائلا:

- عايزة سندوتشات ايه النهارده؟

تركته مكانه واتجهت للثلاجة، فتحتها وألقت نظرة عليها، ثم قالت في هدوء وثبات لا يليقان بعمرها الذي لم يتجاوز الست سنوات:

- اعمل لي مربى فراولة عشان ما بحبش الفول.

أطالت النظر في الثلاجة، ثم سألته:

- انت خلصت الجنبة بطماطم بتاعت بالليل.. صح؟

ضحك وهز رأسه بالإيجاب.. انتهى من إعداد شطائرها ووضعها في حقيبتها، ثم تناول لقيمات صغيرة من طبق الفول، قبل أن يلتقط حقيبتها الصغيرة ويسرعان معا إلى الخارج في مرح.

بملابسه الرياضية التي لم يبدلها. أوصلها إلى المدرسة القريبة، وسلمها يدا بيد إلى معلمتها، وأوصاها بها، وغادر في هدوء إلى المنزل. مسرعا أبدل ملابسه، ونظر لنفسه في المرآة، هندم ملابسه مرة أخيرة، ثم ابتسم برضا وغادر متجها لمحطة المياه، التي يعمل بها بمؤهل الثانوية العامة سائقا، فقد قدم في إحدى المسابقات الحكومية، متجاهلا مؤهله الجامعي، باحثا عن وظيفة ومرتب شهري يؤمن له حدًا أدنى من الاستقرار، فكانت هذه.

حمزة عبد الحميد الراوي، صاحب الـ ٢٦ عاما.. يملك بشرة فاتحة، وعين بنية، وشعر أسود داكن. لم يسمح للحيته أبدا بالنمو، ويضطر لحلاقتها باستمرار بسبب عمله سائقا لمدير المحطة.

وصل في تمام التاسعة، فمنزله يقع بالقرب من مكان عمله.. وقع في دفتر الحضور، وأخرج السيارة من الجراج، وظل بها ينتظر المدير، حتى تلقى اتصالا من مديره يخبره أنه لن يأتي اليوم وبإمكانه المغادرة.

اطمأن على مديره بود حقيقي. هو يعتبر أنهما صديقان، فبينهما عشرة عمل لفترة ليست بالقليلة. طمأنه الرجل أنه بخير، وأنه فقط يريد أن يأخذ اليوم إجازة مع راحة الجمعة، ليعوض ابنته وزوجته عن انشغاله الفترة الماضية.

على أي حال، فقد فرح بالأمر، ووقع في دفتر الانصراف، وذهب ليجلس في مواجهة النيل قليلا، حيث تهفو نفسه للنهر دوما. لم يشعر بمرور الوقت، ولا بكم الشباب والفتيات المنتشرين في كل مكان، حتى نظر في ساعته ليجدها الثانية عشرة ظهرا، فهم بالرحيل للمدرسة لأخذ صغيرته.

وصل في الميعاد، فهرولت إليه بمرح، حملها على كتفه وغادر.

وفي طريقه للمنزل، قام بشراء بعض الطعام والخضروات والفاكهة، واشترى لها الأيس كريم، ثم دخل أحد محلات الهدايا، واختار واحدة، بعد أن مر بعينيه على الهدايا الموجودة في المكان، ثم طلب من طفلته أن تختار هديتها بنفسها. زاغت عينها على عروسة تشبهها، وأخذتها بعفوية.. فوقف أمامها قائلا بنبرة يملؤها الحنان:

- انا كده هيكون عندي عروستين.. صح؟

- لأ أنا بس.. دي عروستي أنا

ابتسم لطفولتها الناضجة، ثم ذهب للكاشير ليحاسب على الهدية والعروسة.. وأعطاهم توقيتا وعنوانًا لإيصال الهدية، ثم خرجا من المحل وسارا بمحاذاة النيل، هي تحمل عروستها، بينما هو يحمل حقيبتها وأكياس مشترواته.

شعر بفرحتها باحتضان العروسة، فسألها: هتسميها ايه؟ أجابت ببراءة: هسميها فتفوته.

- فتفوته يا علُا!

فقالت بثقة: آه فتفوته.

من أين لها هذا الاسم الغريب؟! مسلسلات الكرتون تفعل أكثر من ذلك.. ابتسم، ثم تابعا السير حتى وصلا للمنزل، فوضع حقائبه في المطبخ، وأبدل لها ملابسها، واختار للبسها لون البنفسج، نفس لون فستان الدمية. ثم التقط لهم صورة معًا بهاتفه المحمول. نظرا في الصورة وضحكا كثيرًا، ثم دخلا للمطبخ وهو يسألها عمَّا تريد أن تأكل، فأجابت:
- بانيه ومكرونة.. انت بتعرف تعمل غيرهم أصلا!

رفعها بيده لأعلى، وأجلسها على الطاولة، ثم رد بنبرة ضاحكة:
- باعرف أعمل سمك وفراخ وكفتة وبرجر وبطاطس وبيض وبيتزا.
ضحكت بصوت عالٍ، ثم قالت متقمصة دور امرأة ناضجة:
- بيتزا مفعصة زي آخر مرة!.. يلا نعمل مكرونة وبانيه وبطاطس محمرة.

نكس رأسه مستسلماً في مرح، ثم بدأ في تحضير الطعام، بابتسامة لم تفارق وجهه، بينما نزلت علا من على الطاولة، وجرت إلى غرفة نومهما، فأحضرت حقيبتها وأخرجت كتبها، وبدأت في إتمام واجباتها المدرسية.. هذه إحدى العادات التي تعلمتها من حمزة، الذي راقبها من بعيد مبتسما. انتهى من إعداد الطعام، وانتهت هي الأخرى من واجبها؛ الكثير من وجهة نظرها. جلست صغيرته وأجلست دميتها بجوارها، بينما هو يتناول طعامه بنهم. لم يتكلما على الطعام نهائيا، فقط تبادلا النظرات الحانية فقط، حتى انتهى هو من تناول وجبته، وجلس ينتظرها حتى تنتهي. لم تأكل الكثير، لكنه لم يسألها، فهو لم يجد في حقيبتها الشطائر التي أعدها لها في الصباح، فعلم أنها ليست جائعة، وإنما تناولت معه القليل من الطعام لأنها تعرف أنه لا يحب أن يأكل بمفرده.

وفي غرفة المعيشة، جلس ومعه طفلته ودميتها. فتح صندوق الكتب، وتناول رواية "العمى" لجوزيه ساراماغو.. كانت صغيرته لاهية عن الحياة، وقد توقفت أحلامها عند دميتها الجديدة، بينما توقف هو عند الجملة التي شغلته دوما منذ بدأ في قراءة هذه الرواية: "إن كنت تستطيع أن ترى، فانظر.. أن كنت تستطيع أن تنظر، فراقب". لقد تعلَّم جيدا أن طريقه للوصول هو مراقبته لكل شيء، خاصة مراقبته لنفسه. قرأ فيها قليلا بعقل وجسد مرهق.. دائما هو مرهق بين العمل وتلبية طلبات طفلته، فكان لا بد أن يستغل فرصة انشغالها ليغط في نوم عميق.

***

في غرفة واحدة اجتمعوا كلهم يتسامرون، بينما جلس حمزة في جانب الغرفة يراقبهم دون كلام. أخذ يتأمل ملامح والده وكأنه يشبع منه، بينما أخذت عماته وأعمامه يتجاذبون أطراف الحديث في أمور شتى، حتى دخلت والدته عليهم بالشاي، فتناول الجميع كؤوسهم، ماعدا هو وأبيه، وحل الهدوء قليلا حتى انتهوا من تناول الشاي، ثم وجه عمه السؤال له قائلا:

- وانت شايف أن اللي امك عايزة تعمله ده صح يا حمزة؟

انتبه من شروده قائلا:

- مافيش هنا كلام بعد كلام ابويا.

صمت الجميع متفاجئين تماما.. ثم نظروا إليه قائلين في نفس واحد:

- وفين أبوك.. أبوك الله يرحمه!

حينها، التفت لأبيه فلم يجده مكانه، فتأكد أنه يحلم كعادته. دائما يراه ومع أول كلام معه يختفي؛ لكنه في هذه المرة حاول أن يكون أذكى، فلم يوجه أي كلمة لأبيه، أو يلفت انتباه الجمع لحضوره، كي يقتنص وقتاً يشبع منه ومن ملامحه التي افتقدها منذ وفاته.

يشعر بنفسه وهو يحلم.. لم يعد يطيق الحلم بعد رحيل والده منه. استفاق من غرفة النوم على صوت جرس المنزل ودقات الباب، ليجد طفلته في الصالة وكامل انتباهها معلق بما تشاهد على قناتها المفضلة، حيث تتابع أحد مسلسلات الأطفال الشهيرة. قام من مكانه واتجه للباب وفتح، ليجد عامل التوصيل، فاستلم منه هديته، ووقع على الاستلام، وأغلق الباب وراءه.

جلس على الأرض وبدأ في فتح الهدية، محاولا إقناع نفسه بهديته إلى نفسه، ورسم ابتسامة على وجهه.. لكنه صُعق عندما رآها تختلف تماما عن التي اختارها!

هم بإغلاقها في غضب، ليعيدها إلى المحل ويسترد هديته، حين لمح ظرفا يطوي جوابا بداخله، فأثاره الفضول ليرى ما تحويه طيات هذا الجواب، خاصة أنه لم يسبق له هذا الشعور أبدا. فتح الجواب، ليرى به تلك الكلمات الغريبة والفريدة من نوعها:

"زي كل سنة.. هاحتفل مع نفسي بعيد الحب .. **كل سنة وأنا طيبة** .. أنا باحبني"

فتح فمه من الدهشة. لم يكن ليصدق أن هناك مجنونة مثله، تفعل مثلما يفعل كل عام. هناك من يعاني من فقدان الحب والاهتمام ويشبهه لهذه الدرجة!.. الفرق بينه وبين الجميع أنه اختار العزلة بكامل إرادته، ويتحمل نتيجتها.

أغلق الهدية مرة أخرى، وقام ليعيدها ويسترد هديته.

***

في الأوتوبيس، تجلس منكسة الرأس، بعد أن خاب رجاؤها في أكثر من مكان طلبت منه المدد والعون. تفهم جيدا أنها ليست بمفردها من تعاني من هذه المشكلة، لكن هذا لا يعني ألا تشعر بالإحباط. عيون المارة

حولها مليئة بالحسرة والرضا - أو الاستسلام - في نفس الوقت. تزفر في ضيق، لقد كان يومًا طويلًا، مرت فيه بأكثر من " صيدلية " تمنى قبولها، وظل هناك رد واحد، كأنهم اتفقوا جميعا عليه: لا توجد وظائف شاغرة، حتى وإن كانت تريد أن تتدرب بدون مقابل.

هي مازالت في آخر سنوات كلية الصيدلة، ولكنها فقط تريد عملا يقضي على أي دقيقة فراغ تدمرها بالتفكير في تلك الأمور التي لا تجد لها حلولا. عادتها ألا تيأس، بل إنها تعودت أن تفشل أكثر كلما تحاول، ولكنها مستمرة. واليوم لم يكن أكثر من لقاء جديد بالفشل والأمل.

دخلت المنزل تحمل معها وجبة الغداء. منزلها عبارة عن شقة من حجرتين كبيرتين وواحدة صغيرة للضيوف، وصالة متوسطة المساحة، تتوسطها سفرة في مواجهة باب الشقة العتيق، يلتف حولها ستة كراسٍ. ترمي ثيابها على ظهر كرسي مسرعة، ثم تتجه للمطبخ لتنجز مهمتها في تحضير الطعام، فتسمع صوت الباب يفتح ويغلق، وتدرك حضوره. من مكانها يعلو صوتها لتخبره بوصولها وأن الطعام سيكون جاهزاً في دقائق:

– غير هدومك يا بيبو والأكل هيكون جاهز في خمس دقايق أن شاء الله.

فيضع حقيبته على السفرة، ثم يتجه للمطبخ وينظر لها بابتسامة عريضة:

– بطلي كدب بقى.. الخمس دقايق دول مابيتغيروش في أي حاجة كده!

لا يفهم الرجال قدسية الخمس دقائق وأهميتها عند النساء.. والأهم من ذلك، أن هذا التعبير لا يدل إطلاقا على خمس دقائق بالزمن المعروف.

هناك أشياء لا يفقهها الرجال أبدًا، مثل دقائق النساء تلك. ضحكت بهيسترية من كلامه، ثم أجابته بنبرة مرحة:

- والله يا حبيبي لقيت النهارده كتير واتهلكت ولسة جاية من شوية.. معلش هاخلص بسرعة.

لم تخبره أنها ذهبت لمحل الهدايا واشترت له هدية بمناسبة عيد الحب. ربما تريد أن تفاجئه. رغم أنها تعلم أنه سيحصل على واحدة أخرى اليوم، فإن تلك المشاعر هي التي تحركها تجاهه، فلم يتبق لها سواه. ابتسم ابتسامة ماكرة وقال:

- خدي وقتك.. انا في اوضتي، لما تخلصي اندهي عليا.

أعطاها ظهره وأسرع إلى غرفته. لاحقته بعينيها سعيدة به وهو يكبر أمامها ويبدو شابًا وسيما أنيقا.. فكرت أن معاش والدها يكفيهما ويفيض، وهي لم تقصر مع أخيها في شيء، بل جعلت مصاريف دروسه أولا، ثم يأتي أي شيء بعدها في الأهمية. إنها تريد أن تحقق حلم أبيها فيه، كي تقف أمام صورته تشهده أن عليه أن يفخر بهما. لذا، فقد كانت تنظم إنفاقها للمعاش بطريقة مرضية ومواكبة لمتطلبات المنزل، ومتطلبات أخيها، ومصاريف دراستها.

دخل خالد غرفته، التي لا يمكن وصفها بغرفة إطلاقا، إنما هي، كما قالت والدته -رحمها الله- دومًا، ليست إلا خيمة من الإهمال الملحوظ.

مهما حاولت أخته ترتيب الغرفة، يستطيع أن يقلب كيانها بمجرد دخوله إليها، فتجد الملابس نصفها معلق على الباب من الخلف، والنصف الآخر على السرير، بينما دولابه خاويا من الملابس. سريره الصغير في ركن الغرفة لا يخلو من أشياء لا علاقة لها بوظيفة السرير للنوم. ومكتبه الصغير عليه كتبه الدراسية والحاسوب الخاص به، الذي حصل عليه بعد نقاش دام طويلا مع أخته.

أفسح لنفسه مكانًا على سريره، واستلقى فاغرا فيه، ومحملقا في السقف. ثم تذكر شيئا، فقام مسرعا إلى مكتبه، وشغَّل الحاسوب، وبدأ رحلته اليومية.

بعد نصف ساعة من حديثه مع حبيبة على الفيسبوك، قاطعه صوت أخته من المطبخ تدعوه لتناول الطعام، فقام ملبيا النداء. جلس بجوارها وبدأ يأكل ويحاول مشاكستها، إلا أنه وجدها شاردة. لم يهتم، وبدأ يأكل في نهم، فعادة "ود" لا تنعم براحة البال إطلاقًا، وشرودها ليس غريبا، فإن لم يأكل كلما شردت عنه، فلن يأكل يومًا.

" ود " صاحبة الـ ٢١ عامًا، مواليد محافظة القاهرة، صاحبة القامة القصيرة، التي تعطيها مشهدًا طفوليًا، ونظارتها الطبية تقيم في حقيبتها، فلا تستخدمها إلا في قراءة الخط الصغير فقط، أو أيام المذاكرة فقط. هي صاحبة قوام رشيق، بسبب قلة طعامها أو فقدانها الشهية دوما.. ربما لا تأكل بنهم

إلا في رفقة صديقاتها، فتخرج منهم هذه العبارة "بتاكلي كتير ولا يبان عليكي" فتضحك ولا تلتفت لكلامهم وتكمل تناول وجبتها. يميز وجهها عينان واسعتان تأسر الجميع بفتنتهما، وشفاه مكتنزة، وبشرة خمرية تعطيها عراقة غريبة. يميزها دوما هدوؤها وتصالحها الداخلي مع الجميع، واستطاعتها حل مشاكلهم، ولكن -للأسف- تقف عاجزة أمام حل مشاكلها، فحياتها عبارة عن قلق واضطراب وفقدان للأمان دوما، رغم وجود أخيها بجانبها.

تختلف عن صديقاتها أنها لا تستطيع أن تحكي لأي منهن مشاكلها، وإن كانت تبحث - آملة في الحياة - عمن يستطيع أن يشاركها في حملها الثقيل، ويحل معها جميع مشاكلها.

ود تثق في الناس بسهولة، ولكن لها نظرة ثاقبة في كل شيء. إنها تلك الفتاة التي تستطيع أن تجزم أنها تساوي ألف رجل وتزيد، ودوما تعترض على هذه الجملة عندما تسمعها، فتحمل المسئولية ليس حكرًا على الرجال فقط.

أفاقت من شرودها على صوت أخيها:

- انا هانزل بقى عشان عندي درس.

غمزت له بعين واحدة، هذه الحركة التي اعتاد خالد دوما عليها من أخته عندما تعلم خباياه، فضحك مجلجلا، ثم قال: إيه؟

اقتربت منه، ثم استندت على الكرسي القريب منه بركبتها، وبيدها على كتفه:

- انت ماعندكش دروس النهارده.. رايح فين؟

أمسك وجنتيها بيده كطفلة صغيرة، رغم أنها تكبره، محاولًا إضحاكها ليسهِّل على نفسه مواجهتها:

- عايزة ايه؟.. خارج عادي يعني.. هو كطالب ثانوي مش من حقي اخرج يعني؟

ابتسمت لأخيها بود وحنان أم، ثم ربتت على كتفه:

- ماشي يا حبيبي.. معاك فلوس؟

هز رأسه بالإيجاب وهو متجه إلى غرفته ليبدل ملابسه، بينما جمعت ود الأطباق وذهبت بها إلى المطبخ. كانت تحاول دوما أن تكون صديقته، لتتجنب أن يداري عنها شيئا، ويكفيها أنه اعترف أن لا دروس وراءه. رن هاتفها وهي بالكاد تنتهي من المطبخ، فمسحت يدها في المنشفة، ثم تناولت الهاتف لتجد "سارة"، فردت مسرعة قبل أن ينتهي الاتصال. كانت تفتقدها منذ سفرها الأخير مع عائلتها:

- الندلة اللي مابتسألش.

تعالت ضحكات سارة في الهاتف، ثم عقبت على كلام صديقتها:

- خدوهم بالصوت بقى.. عاملة ايه يا ندلة؟

جلست على الأريكة المقابلة للسفرة، ورجعت برأسها للخلف، ثم قالت بعد نفس عميق:

- مش كويسة.. تعبت، انتي راجعة امتى؟

تركت سارة ما في يدها، وانتبهت لصديقتها، وقالت باهتمام:

- يومين بالكتير، بس مالك يا ود، فيكي ايه؟

حاولت أن ترتب الكلام قبل أن تلقيه في وجه صديقتها، ثم فضلت السكوت. كررت سارة السؤال ثانية، فخرجت شكواها بصوت يائس:

- محتاجة دفا.. محتاجة حد يشيل معايا الحمل التقيل ده.. محتاجة ايد تطبطب عليا لما اتعب.

لم يكن عسيرًا على سارة أن تفهم ما تريد صديقتها أن توضحه في كلماتها القليلة. حاولت أن تخفف عنها عنف احتياجها لهذا الإحساس، لكنها كانت على يقين من خيبة الكلمات التي حاولت أن تراضيها بها. فشلت في ذلك، لاحتياجها هي الأخرى بهذه المشاعر. غيرت الموضوع، وأنهت المكالمة بالحديث في مواضيع مختلفة، متيقنة أنها لابد أن تنتظر نصيبها، الذي لابد وأن يصيبها.

فتحت اللاب توب، لتلقي نظرة على جروب الدفعة على الفيس بوك، وانهمكت في أحاديثهم، حتى قطع تركيزها جرس الباب، فوضعت الجهاز بجانبها ووضعت الحجاب على شعرها، وفتحت، لتجد عامل التوصيل. استلمت منه الهدايا ووقعت على الاستلام، وشكرته وأغلقت الباب، ثم دخلت غرفة أخيها ووضعت هديته على مكتبه بجانب الكمبيوتر. ذهبت إلى الأريكة فجلست، وأمسكت هديتها تنظر إليها وتبتسم في حيرة من

نفسها.. تنهدت، وقررت أن تفرح بالهدية، وبدأت في فتحها. لكن نصيبها لم يكن الفرح ولا الحيرة وإنما الدهشة والغضب، عندما وجدتها تختلف تماما عن تلك التي اختارتها... أحست بالإحباط والغضب، وهتف يأسها ضاحكًا من حظها، فحتى حين أتت هي بالهدية لنفسها ليس لها فيها نصيب!

قامت ترتدي ملابسها مسرعة، واتجهت للمحل في الحال وهي تحاول تمالك عصبيتها، حتى وصلت للمكان تكاد تجري، فدخلت وهي تأخذ أنفاسها بصعوبة، واتجهت إلى أحد المسئولين تصيح به وقد فقدت زمام غضبها:

- يعني ايه اكون مختارة حاجة ويوصلني حاجة تانية خالص؟

حاول المسئولون تهدئتها، ولم يستطيعوا نفي خطئهم، فهي على حق. زادت حدتها عندما تأكدت أن هديتها أرسلت بالخطأ لشخص آخر، وهذا ما لم تتوقعه إطلاقا.. ليس لأحد أن يعلم سرها، وتصرفها المجنون ورسالتها لنفسها.. وجهت كلامها مرة أخيرة للمسئول أمامها، وهي تجاهد ألا تظهر دموعها، فأكثر ما تكرهه أن يرى الآخرون ضعفها:

- ممكن أعرف الهدية اللي انا مختاراها هاخدها ازاي دلوقتي؟

قبل أن يرد أحدهم، قاطعهم دخول شاب في مقتبل العمر مسرعا، يحمل طفلة على كتفه، وليوجه الكلام لها:

- هي دي اللي حضرتك مختاراها، صح؟

نظرت لما في يده بضيق، زاد عندما رأتها مفتوحة، فمعنى ذلك أنه قرأ محتوى الورقة التي كانت داخلها. هزت رأسها بإيجاب، فنظر لها بثبات وتابع كلامه بنفس الهدوء:

– اتفضلي.. هو بس أكيد حصل سوء تفاهم.

شكرته، وأعطته علبته التي في يدها، وأخذت ما في يده، ورحلت بخطوات ثقيلة محبطة، وقد فسدت فرحة أرادت أن تصنعها لنفسها ولو تكون مزيفة.

ظل حمزة يتابعها غير مستمع إلى اعتذار المسئولين عما حدث، يهز رأسه متفهما ولو لا يعي ما يقولون، حتى اختفت تماما عن عينيه، فرحل بهدوء.

كان شاردًا مع تلك المجنونة التي تشبهه في التفكير، وطريقة الكلام، وكل شيء. من تلك التي تريد من الحياة الاهتمام، حتى لتحاول أن تمنحه لنفسها؟ رأى ذلك الاشتياق في عينها وملامحها المتوترة. ابتسم وهي يتخيل رد فعلها حين تكتشف عندما تفتح علبتها أنه قرر التواصل معها من قبل أن يراها، بكتابة عنوان بريده الإلكتروني أسفل الجواب. لا يعلم لماذا فعل ذلك، أو ماذا يريد منها، ولا يعلم ما تخبئه له الأيام؛ لكن كل الذي يعرفه الآن أنه يريد أن يستكشفها جيدا، وأن يعلم ماذا تخبئ بداخلها، وما الذي يدفعها لشراء هدية في عيد الحب لنفسها.. مثله تماما.

"ده ايميلي عشان انتي لازم تشكريني اني رجّعت لك هديتك تاني.. حمزة ".

وفي الطريق، كان صدرها يختلج، لا تدري ضيقا أم رهبة أم فرحا.. ظلت تنظر للهدية في حيرة، لا تدري ماذا تفعل بعد أن قرأت رسالته؛ هل ستخضع لكلماتها وتنفذها، أم ستمزق الورقة وكأن شيئا لم يكن.. على أي حال - ولا تدري لما- فقد احتفظت بالورقة!

***

على الرصيف الواسع، يتحرك الباعة الجائلون، ونسمات الهواء الباردة تتخلل قسمات وجوه المارة والواقفون على كوبري قصر النيل، ولم تتجاوز الساعة السابعة. الطريق يزدحم بالسيارات، والرصيف برواد المكان.. أصدقاء يجلسون، وعابرون على الكوبري للوصول لوجهاتهم، وعائلات تتخذه متنفسًا لا يكلف جيب أب يريد النزهة لأهله. هذا الجسر فوق نهر النيل ملجأ لتغيير المزاج من حين لآخر لسكان هذه المنطقة والمناطق المجاورة، وأحيانا غير المجاورة.

تقف على الرصيف، مستندة إلى السور الحديدي، مستقبلة نسمات الهواء، ناظرة إلى مياه النيل تتلألأ بضوء القمر. فتاة لم تتجاوز الـ ١٧ عاما.. حبيبة، صاحبة الوجه الدائري الممتلئ، والأنف الحاد الصغير، والعين البنية الواسعة. ويقف بجانبها خالد، الطويل النحيف، ذو الشعر البني والبشرة البيضاء والعينين العسليتين ، شاخصًا بصره للسماء، يحملق بعينيه في القمر.

نظرت له بتعجب، ثم قالت بهدوء مصطنع وهي تكاد تنفجر فيه من غيظها من هذا العبث..

- وانت جايبني النهارده هنا عشان نتفرج على القمر؟

خالد بطبعه، وربما بحكم ظروفه الأسرية، شخص هادئ قليل الكلام، ورغم صغر سنه إلا أنه فهم الحياة جيدا. يعلم تماما أنه انطوائي لأبعد الحدود، وأن حبيبة هي الاستثناء الذي أخرجه من دائرة الفيس بوك وشاشة الكمبيوتر. شعر بما يدور داخلها من غيرة؛ وإن كانت من القمر، فاقترب منها دون أن يلتفت، حتى تلامس ذراعاهما، فلكزته في كتفه غيظا، فنظر لها قائلا برقة:

- عارفة أحلى حاجة فيكي ايه؟

قالت بضيق: إيه؟

تابع بحنان:

- بتحلي أي شيء عنيكي تيجي فيه.. قمر ده ايه اللي نتساوي بيه.

ابتسمت بوجه تورد من الخجل، ليتوه هو في ابتسامتها. حاول أن يتبين شكل عينها وهي مختفية بسبب ابتسامتها فلم يستطع. فجذب أنفها بيده قائلا:

- عينيكي فين مش لاقيها وانتي بتضحكي كده.

تراجعت برأسها مفلتة أنفها من إصبعيه، ثم ردت عليه بنبرة حانية خرجت من أعماقها، ولو حاولت أن تخرجها بإرادتها ما استطاعت..

- مابعرفش اضحك الا معاك.. بجد شكرا انك في حياتي.

لم يشعرا بالزحام أو الضجيج.. وضع يده على يدها القابضة على سور الكورنيش، فسارت قشعريرة في جسدها، وأمسى كل الذي تعرفه أنها حقا تملكه. لاحظ احمرار وجهها وخجلها، فأبعد يده عنها كي لا يشعرها بالضيق أو الحرج، ثم أخرج من جيبه سلسلة فضية تحمل قلادة صغيرة على شكل مفتاح الحياة تركها في يدها قائلا:

- دي ماتقلعيهاش غير لما اموت.

صعقت من هول الكلمة، فتجمدت لبرهة، ثم لكزته في كتفه وأجابت بصرامة:

- بعد الشر عنك.. ايه ده، حد يقول كده في وقت زي ده.

لا يعلم لماذا نطق هذه الجملة. استشعرها فقط وألقاها في وجهها، دون حساب لرد فعلها. أخرجت من حقيبة يدها علبة سوداء، تحمل بداخلها ساعة مطاطية سوداء، وألبستها له قائلة بنبرة أم تحنو على صغيرها:

- وانت ماتقلعش دي نهائي.. مفهوم؟

هز رأسه موافقا، وجذب يدها مرة أخيرة وهو يقول:

- يلا بقى عشان تروحي.. انتي كده اتاخرتي.

مشيا سويا بمحازاة النيل، يتكلمان في أشياء كثيرة، ويتمنيان من الطريق أن يطول ومن الزمن أن يتوقف. وفجأة، التوت قدم حبيبة، فسقطت أرضا. ركع إلى جوارها فزعًا.. كانت تبكي من الألم، فانتظرا حتى يهدأ ألمها، كي تستطيع الاستناد إليه والسير حتى المترو. وفي هذه اللحظة، ظهر لهما من العدم أمين شرطة، يسأل خالد عن إثبات شخصيته، فأخرج له البطاقة، فذهب بها إلى الضابط الجالس بجانب سيارة الشرطة على كرسي بلاستيكي وأمامه منضدة صغيرة عليها وجبة طعام جاهزة يسلي نفسه بأكلها. طمأنها خالد لمَّا رأى الهلع في عينها، وتركها وذهب وراء الأمين بخطى ثابتة، حتى وقف أمام الضابط، الذي سأل الأمين:

- ماله ده؟

اشار الأمين بيده إلى حبيبة الجالسة على الرصيف قائلا:

- قاعدين في الضلمة والله اعلم بيعملوا ايه يا باشا.

قاطعه خالد بنبرة حادة وانفعال واضح:

- يا حضرة الضابط ماكانش بنعمل ولا غيره.. احنا كنا رايحين نركب مترو بس رجليها اتلوت تحتها فقعدت أطمن عليها وكنت هاوقف تاكسي.

- اهدا يا روح امك

قالها الضابط دون أن ينظر لخالد، فبتر أمله فيه بهذه الإهانة.

تأمل خالد للحظات هذا الضابط المتغطرس وتجاهله له مفضلا قطعة دجاج مقلية عن رفع عينيه إليه، فتوقع ما هو مقبل عليه، مما ليس خافيا على أحد، فلطالما قرأ على الإنترنت أمثال هذا الموقف. بدأ بالكلام مرة أخرى بصيغة استئذان قائلا:

- طيب لو سمحت يا حضرة الضابط ممكن أركبها تاكسي تروح، لأنها اتأخرت وارجع لحضرتك.

زفر الضابط ضيقا، ثم قال دون أن يكلف نفسه النظر إليه أو إليها:

- لأ مش هتتحرك من هنا.. هي هتمشي لوحدها.. واركنلي بقى على جنب دلوقتي.

أخذه الأمين بعيدا عن الضابط، فقد نغص عليه وجبته بما يكفي، وهذا ليس في الصالح العام أو الخاص أو أي من الصوالح في أم الدنيا المحروسة. حمد خالد الله، فعلى الأقل ستذهب حبيبة ولن ينلها الأذى، لكن يجب أن يعجل بذهابها من هنا قبل أن يتسع أفق الشر فيصيبها معه. أخرج هاتفه شاكرًا ربه على نعمة اختراع الهواتف، وأرسل لحبيبة رسالة نصية على هاتفها لتغادر: "روحي انتي يا حبيبة عشان مايقلقوش عليكي في البيت، روحي بسرعة" اختلج صدرها ضيقا، وهربت من جفونها دمعة لما يحل بخالد.. لكن لم يكن أمامها إلا أن وقفت متحاملة على ألم قدميها، وأوقفت أول تاكسي

مارٍ، فارة إلى منزلها، فهي تعلم أن وجودها حملٌ أثقل عليه يؤلمه ولا ينفعه في موقف كهذا.

اطمئن قلبه قليلا عندما رآها تغادر المكان، وانتبه أكثر لما يدور حوله. كان الأمين يتحدث مع زميله دون أن يعير اهتمامه لخالد، والضابط يتابع تناول وجبته في استرخاء، فتمنى خالد أن يعطيه الضابط بطاقته ويطلق سراحه، مع توبيخه وتحذيره من السير أو الجلوس في مثل هذه الأماكن ليلا. لكن خاب توقعه، عندما نادى الضابط أمينَي الشرطة قائلا:

- حطوهولنا في البوكس.. ويلا على القسم.

صاح خالد طالباً أن يفهم ما يحدث، ولكن كان الرد على أسئلته باليد وليس اللسان. كل ما استطاعه، بعد أن رموه في البوكس، أن يسرع بإرسال رسالة نصية لشقيقته، قبل أن يجردوه من هاتفه.

"أنا ممسوك تحري وواخديني على القسم ".

***

دخلت غرفتها وفتحت اللاب توب وهي جالسة على السرير. فتحت موقع الفيسبوك، وأدخلت الإيميل المكتوب في الورقة في خانة البحث، وضغطت.. وفي ثوانٍ، وجدت صورته على حسابه الخاص، هو نفسه الذي التقته دون موعد منذ قليل. دخلت إلى عالمه على موقع التواصل الاجتماعي، وفتشت في البيانات المكتوبة والصور الموضوعة بعناية..

هناك شيء بداخلها يجعلها تهتم بمعرفة كل شيء عنه.. ولكن من بعيد! قررت أنها - بالتأكيد - لا تريد أن تقترب أكثر، فهي لا ينقصها أن تقع في شراك أحد، خاصة أنها تعلم تماما أن شعور الاحتياج ينتابها بشكل غير منطقي الفترة الأخيرة، وقادر على دفعها إلى المنطقة الخطأ من القبول والثقة الزائفة. كان رقم هاتفه في البيانات، فوجدت نفسها تسجله على هاتفها، وإن وعدت نفسها أنها لن تستخدمه أبدًا. أغلقت اللابتوب، بعد أن قررت بأنها لن تراسله.. هي فقط تعجبت من طريقته، هذا كل ما في الأمر! قاطعت حالتها الحالمة رسالة من أخيها على الهاتف.. "أنا ممسوك تحري وواخديني على القسم" !

صدمتها الرسالة.. بدون تفكير أسرعت ترتدي ملابسها، وهي لا تدري حتى أي قسم هذا. ستبحث عنه، ولكن.. الليل.. وحدها.. الموقف صعب حقًا. اتصلت بأقاربهم واحدًا تلو الآخر، فلم تجد إلا ردود من نوع: "ما افتكرتيناش إلا أما عملتم مصيبة"، "مش انتي اللي رفضتي بعد موت ابوكي وامك انك تتجوزي (...)".. "استحملي بقى". لم يسعفها الأهل.. أكل هذه المعاملة القاسية من أقاربها لأنها رفضت أن تتزوج ابن عمها؟! أكل هذا التخلي عن رباط الدم بسبب رفضها أن يطمع فيها أحد؟! أكل هذا العنف بسبب تصميمها على استمرارها في التعليم، وحرصها على مراعاة أخيها وتحقيق حلم أبيها فيه؟!.. جربت الاتصال على صديقتها سارة لتسعفها، فلم تجب. هل تستنجد بجيرانها؟ لكنها لغت هذه الفكرة، فتصرفاتهم معها غير مشجعة.

أغلقت جميع الأبواب في وجهها.. لا أحد معها، وهي تسير على غير هدى، لا تدري حتى من أين تبدأ بحثها.. بين الأرقام على الهاتف، وجدت رقمه.. حمزة، ذلك المجهول الذي اقتحم حياتها مؤخراً. لم يكن أمامها وقت للتردد، فاتصلت عليه، فلم يرد. لكن لم يعد أمامها سواه، فكررت الاتصال.

...

سمعت علا رنين الهاتف، فجرت إليه، وأخذته له في غرفة المعيشة، حيث يقرأ كعادته في حالة انعزال تام عمَّا حوله. أخذه من يدها، وأجلسها على فخذه، ونظر في الشاشة، ليجد رقماً غريباً. ضغط زر الإجابة وسأل في هدوء مترقب: مين؟ أجابت بتوتر:

– أنا ود.. البنت اللي حضرتك قابلتها النهارده في محل الهدايا..

سكتت.. لا تعرف كيف تقول له ما تريد، ولا كيف راهنت على اتصالها به.. عادت تحسم الأمر..

– أخويا في قسم الشرطة ومافيش غيرك ألجأ له.. أنا رايحة له دلوقتي ومش معايا حد ومش عارفة أعمل ايه.

بالطبع تذكرها جيداً. مشاعر متناقضة اجتاحته، لكن صوتها تنادي في خذلان "آلو، حضرتك معايا؟" حسم قراره..

– هو في قسم ايه؟

– مش عارفة!

- نبدأ بالقسم هنا.. هو جنبي بشارعين هتيجي تلاقيني هناك.. اسم اخوكي ايه ثلاثي؟

مسحت دموعها، وإحساس يعرفه جيدا من يعثر على ضالته يتخلل روحها.. قالت:

- خالد عبد الرحمن سليم.. هو طالب في ثانوية عامة.

دوَّن اسم أخيها في ورقة، ثم اتصل بمديره في العمل يطلب منه المساعدة. يعلم أن له معارف كثيرة في وزارة الداخلية، ويستطيع أن يحل الموضوع قبل أن يتصعد بطريقة أو بأخرى، ثم اصطحب طفلته وخرج بها متجها لقسم الشرطة.

وصل للقسم في أقل من ١٠ دقائق، ودخل إلى أمين الشرطة، الذي لا يعرفه، مصافحا، وطاويا في يده عشرين جنيها، ثم سأله عن خالد. طمأنه الأمين أن الموضوع بسيط ولا يستدعي القلق.. فقط الضابط يريد شخصا يحمل رقمًا قوميا ليضمنه ويأخذه من القسم.

- طيب هو اتحجز ليه؟ في تهمة ضده يعني؟

لم يجبه الأمين، ووصلت ود لحظتها، فوجدته يقف مع أخيها.

هرولت لأخيها، وأخذته في حضنها ولم تملك الدموع في عينها.. سألته عمَّا حدث، فلم يعرف كيف يشرح الأمر، فلم يكن هو نفسه يفهم شيئا. عفاه حمزة من الحيرة ورد هو عليها بهدوء:

- حاجة بسيطة وهيمشي معانا علطول.

خرج الأمين من المكتب ونادى على اسم حمزة، فاستأذنهما تاركا معهما طفلته، ودخل للضابط الذي بادره بابتسامة مصطنعة:

- الموضوع ما كانش محتاج انك تكلم حد في التليفون قبل ما تيجي.. الموضوع بسيط وكان هيخرج بضمان محل إقامته.

رد له الابتسامة، وشكره، وأدى الأمين التحية، ثم خرج برفقة حمزة، الذي ربت على كتف خالد في حنو حقيقي، ثم خرجوا جميعا من قسم الشرطة. شكره خالد كثيرا، وهو ينقل نظراته بينه وبين أخته، لا يفهم من هذا، وإن كان يحمد الله أنه هنا. بينما عجزت ود عن الشكر، فنظرت في امتنان، فابتسم بدوره لهما، وقال ممازحا..

- الحمد لله طلع في القسم هنا.. مش لما تقول رحت القسم تقول لنا انهي فيهم

ودعهما، قبل أن يركبا السيارة الأجرة، وأخذ يد صغيرته يتمشى في الشارع منتشيا بكل ما حدث على غير توقع. كل هذه الصدف ليست إلا قدرًا.. قدر يتمنى أن يكون جميلا. لم ينس أن يتصل بمديره ويشكره، ثم عاد فتذكر أنه لم يدفع إيجار الشقة، فمال على صغيرته وجذب كفها قليلا ينبهها..

- تحبي واحنا مروحين نشوف عمو عمر؟

لم ينتظر إجابتها، يعرف أنها تحب صديقه عُمر، وهو يهديها الحلوى دومًا. أخرج هاتفه مرة أخرى ليتصل بعمر، الذي تجاوز عامه الثلاثين، هذا

الطويل القامة قمحي البشرة ذو الملامح الساخرة، دونما اجتهاد أو عمد منه. هما صديقان منذ أن عملا سويا في محطة المياه، وهو أيضا ابن صاحب المنزل الذي يسكن فيه، والذي ساعده في الحصول على الشقة، عندما أراد أن يعيش في عالم يملكه بمفرده. هو أيضا الذي قوّى العلاقة بينه وبين أخته وزوجها، جيرانه بالأعلى، كي يستطيع ترك عُلا معهما في أي حالة طارئة.

ضغط زر الاتصال، ليجيبه على الفور:

– ايوة يابني،، أنا قدامي ربعاية وأكون تحت البيت. انزل خد الإيجار عشان ابوك مايفضحنيش عليه..

أجابه صديقه بنبرة مازحة:

– يابني انت هتطير، ما تخليها لبكرة.

رد عليه بحزم:

– لأ ياعم ابوك صعب وانا مابحبش طريقته في الكلام.

أنهى المكالمة، وقال لعُلا:

– تيجي نتسابق؟

انطلقا في طريقهما وهي تضحك، وهو يجري بقدر خطوتها، إلى أن وصلا إلى منزل عمر، فأخرج ما في جيبه من نقود. نزل صديقه، فتبادلا بعض المزاح، وكعادته أعطى عمر لعُلا قطعة شوكولاته في مقابل قُبلتها له، فأخذتها وانشغلت في ورقتها المفضضة، بينما تاول حمزة مبلغ الإيجار

لصاحبه، فلم يتبق له سوى خمسة جنيهات فقط لا غير. نظر لصديقه مبتسما، فبادله ابتسامته في ود وتعاطف، فقال حمزة لطفلته في مرح:

- حلوين خمسة جنيه يا علا.. نجيب بيهم عشا واحنا مروحين.

حمل عُلا على كتفه، وأشار لعمر مودعا، ودس الورقة ذات الخمسة جنيهات في جيبه محدثها قائلا:

- ٣ ساندوتشات طعمية وواحدة كولا وكده رضا.

تململت طفلته في مرح على كتفه تشاكسه قائلة:

- طب وانا؟

ضحك على ردة فعلها ثم أجابها:

- الاكل بتاعك في البيت وفي إيدك شوكولاته كمان.. وبعدين احنا هنقبض بكرة يا لمضة.

وبالفعل، دخل بها أول مطعم فول قابلهما، واشترى شطيرتين فقط، وأبقى جنيهين معه، ثم أخذا طريقهما إلى البيت. مضت علا تشاكسه..

- الطعمية ريحتها حلوة أنا آخدها وأنت خد الأكل اللي في البيت

كان يتجاوب معها، ويخفي قلقه.. هو يعلم أنه سيحصل على راتبه غدا، لكن ربما احتاجت طفلته شيئا قبل الصباح. لا يعلم لماذا استعجل على دفع الإيجار، لكنه لا يحب أن يكون مدينًا لأحد. لم يلم نفسه.. شكرها لأنها فعلت الصواب، وترك أمره لخالقه.

في الطريق، صاحت علا..

- بص يا بابا بيعمل ايه !

نظر حيث أشارت، فوجد شابا، ربما أصغر منه في السن بقليل، يفتش في صندوق قمامة عن شيء يأكله. رمقه في إشفاق وأكمل طريقه لبضع خطوات، ثم لام نفسه بعنف. نظر للطعام في يده، ومد يده الأخرى في جيبه إلى النقود المتبقية. ابتسم مرة اخرى، وبطنه تقرقر جوعا، ثم عاد للشاب، وربت على كتفه قائلا:

- انت بتعمل ايه؟

اضطرب الشاب، ربما خوفًا أو إحراجًا، لم يميز شعوره، لكنه كان واثقا أنه ليس محببًا. ربت على كتفه مرة أخرى، ثم أمسكه من رسغه، وصحبه للرصيف، وجذبه ليجلسا سويا، وأجلس علا على فخذه، ثم قال:

- انا والله مش معايا غير السندوتشين دول.. هنا كلهم سوا ايه رايك؟

نظر له الشاب في حياء، فناوله إحدى الشطيرتين بابتسامة أخوية مشجعة، فمد يده وشبح ابتسامة يقترب من الارتسام على وجهه. تناولا الطعام القليل سويا، ولم يكمل حمزة شطيرته وشعر بالشبع، فابتسم حامدًا ربه على تلك البركة، وترك الشاب الجائع وهو يأكل بنهم ملحوظ. ابتسم مرة أخرى ابتسامة حمد، ثم تركه يكمل وجبته وترك بجانبه ما كان في جيبه من جنيهات، ومضى هو وطفلته إلى البيت.

كانت علا تسأل كثيرًا عن كلٍ ماحدث. لا تدع شيئا إلا وتريد أن تفهمه. كان رغم إرهاقها له مسرورًا بوعيها، فأخذ يجيبها ويفكر جيدًا كي تصل الفكرة لعقلها الصغير. حتى وصلا للمنزل، فترك كل ما حدث في هذا اليوم المشحون وراء وظهره، شاعرًا بإرهاق شديد، وخلد إلى نوم عميق، محتضنا عُلا بين ذراعيه.

الأمان موطنه الثقة.. مهما كانت الظروف،
من سيثق بك سيشعر بالأمان بجانبك.

- ٢ -

انطلق السائق متجها للعنوان المحدد، بينما جلسا صامتين مرهقين نفسيا، وود تمسك طرف قميص أخيها بأناملها، كأنما تتأكد أنه معها ولم تفقده. كان المشوار قصيرا، والسائق يراقبهما في المرآة، لذا لحين نظرت لأخيها، تريد أن تسأله عن سبب احتجازه في القسم، عادت فآثرت الانتظار. كانت ترى في عينه سؤالا هو الآخر، وبالتأكيد بمجرد نزولهما من السيارة سيسأله، وسيطلب إجابة منطقية له. هربت بعينها منه؛ لكن ما أقصر الطريق..!

- مين ده؟

سأل هذا السؤال، بعد أن نزلا من التاكسي قبل المنزل بمسافة قصيرة. إنه يعرف شقيقته جيدا، ويعلم بعدم وجود زملاء أو أصدقاء شباب لها من زملائها. ثم أن الرجل أكبر من أن يكون زميلها، ولديه طفلة. لم يكن كذلك أخا لأحد من زملائها أو صديقاتها، فهو يعرفهم

جيدا. "ود" لم يكن من المحتمل أبدا أن تفكر في الكذب واختلاق قصة بلهاء تبرر بها معرفتها بحمزة. ثم أن حضوره هو ما أنقذ أخاها بعد تخلي الأقارب. لم تر ما يشين في الأمر بأي حال، فحكت له بهدوء كل ما حدث في الساعات الماضية. استغرب خالد من تصرفها الجنوني باللجوء لغريب في حل مشكلته، لكن وجعه من تخلي أهلهما وسّع صدره لقبول حمزة. لم يعنفها كمراهق مندفع، فهو ليس ذلك المراهق.. فقط رد عليها:

- انتي مش صغيرة عشان تعرفي مصلحتك فين.. ومش صغيرة عشان تعرفي أن الناس معادن.

لم تفهم ما يقصده، ولم تسأل. هو، خالد الصغير الذي لا يداري عنها شيئا إطلاقا في حياته، وليس له سواها، يكلمها الآن كأخٍ كبير!.. ابتسمت، وأراحها هذا الإحساس، فأخذت نفسا عميقا من هواء الليل البارد.

فجأة، تذكر خالد حبيبة، فرفع هاتفه وحرك إصبعه على الأزرار في سرعة، يكتب رسالة لها: "أنا خرجت من القسم ومروح مع ود".

في الحال وصله اتصالها، لكنه نظر للهاتف ثم لأخته، ولم يرد.. كتب لها رسالة أخرى: "مش قادر اتكلم دلوقتي.. نامي وبكرة أكلمك".

صعدا إلى شقتهما، فدخل كل منهما إلى غرفته، بدون أن يوجه للآخر كلمة. كانا من التعب بدرجة جعلت خالد لا يرى هديته الموضوعة

بعناية على مكتبه، بل إنه لم يفتح حتى مصباح الغرفة أو يبدل ملابسه.. فقط نام على ظهره محملقا في السقف، ثم غط في نوم عميق.

أما حبيبة، على عكسهما، فلم يغمض لها جفن. أخذت تتخيل جميع احتمالات ما حدث لخالد في قسم الشرطة، فما تسمعه عن ذلك أكثر من مرعب. لامت نفسها كثيرا، مؤكدة لنفسها أنه ما كان ليحدث شيء من هذا القبيل أن لم تلح على رؤيته هذه الليلة. ظلت جالسة إلى حاسوبها تقرأ المحادثات بينهما مرار وتكرارًا، يطمئن قلبها بقراءة كلامه، ولا يزورها النوم، حتى أتى الصباح أخيرا، فاتصلت به، تمنى أن يطمئنها.. لكنه لم يجِبها.

استيقظت ود على رنين هاتفها، لتجد رقما غريبا، فردت مسرعة في قلق، فتفاجأت بصوت فتاة تخبرها أنها حبيبة، زميلة خالد، وأنها تتصل به ولا يجيب. قامت من مكانها والهاتف في يدها، وذهبت إلى غرفة أخيها، فلم تجده، ووجدت هاتفه ملقى على السرير. قالت لحبيبة إنه غير موجود وقد ترك هاتفه، وطمأنتها أنه بمجرد عودته ستخبره باتصالها وتجعله يتصل بها فورا. أنهت المكالمة، وانشغل بالها على أخيها كثيرا. تفهم ما بداخله.. في سنه هذا، ومهما بلغ من التعقل، لكن الموقف أكبر منه، ولذا فهي تقدِّر تماما مشاعره وخوفه من أن تهتز شخصيته أمام حبيبة، بعد ما حدث بالأمس .

كانت تعرف ملجأه عندما تضيق نفسه عليه، فارتدت حجابها وصعدت السلم إلى سطح المنزل. وجدته كما توقعت، نائمًا على ظهره على الأرض، ينظر لشمس الشتاء المستحية بنصف عين، فناولته هاتفه دون أن تتكلم. نظر لها بعين جامدة:

- أقول لها ايه؟.. ما كانش نفسي تشوفني في المنظر ده، رغم أنه مش بايديا.

جلست بجانبه، وأسندت رأسها على كتفه، ثم قالت:

- هي أكيد فاهمة ده.. ماحدش مش فاهم.. رد عليها عشان شكلها قلقانة عليك قوي.

أخذ الهاتف من يدها وظل في صمته وتردده، فجذبته ليقوم، ونزلا سويا لشقتهما. دخل غرفته ولم يغلق الباب، فابتسمت ود وأغلقت هي الباب وانصرفت للمطبخ تعد إفطارًا خفيفا، فمنذ غداء الأمس لم يدخل شيء إلى بطنيهما.

اتصل خالد على حبيبة، وهو لا يدري ما يمكن أن يقول، لكنها لم تتركه يفكر كثيرًا، فقد كانت البادئة بالكلام وباللهفة..

- قلقتني عليك قوي.. ينفع كده يا بيبو.

- آسف.

نبأتها نبرة صوت خالد بحزن شديد زاد قلقها، فردت عليه بحنان بالغ:

- مانتأسفش يا حبيبي.. وماتزعلش من اللي حصل، لأنه بيحصل كل يوم لناس كتير.. أما لو متضايق اني كنت معاك ساعتها.. يبقى أنا وانت مش واحد زي ما دايما بتقول لي. على فكرة أنا اللي زعلانة من نفسي اني سيبتك لوحدك.

سرى حديثها البسيط في قلبه كشفاء يغسل ظلام الليلة الماضية.

طمأنها بدوره، وظل يتحدث معها طويلا وهو ينظر للساعة التي أهدته إياها يرى فيها عمره..و كانت في نفس الوقت - لو يعلم - هي الأخرى ممسكة بالسلسلة في يدها، ترى ملامحه ومشاعره فيها. احتضنها بكلامه، واحتوته بحنانها.. ليس أكثر ضلالاً ممن يتهمون المراهقة بالرعونة ويصمونها بعدم النضج، فهذا الغرام المراهق هنا له صفاء لم يكن أي نضج مما يتكلمون عنه ليداوي ما داواه من جرح، ولا أي عقل يمتدحونه كان ليحتضن ألم خالد كحضن كلمات حبيبة المراهقة.

وأخيرًا اضطرا لإنهاء المكالمة، ليجيب خالد نداء ود للإفطار والشاي الذي برد، ثم لينجز ما وراءه من مذاكرة، على وعد بأن يتقابلا فيما بعد في حصة اللغة العربية.

***

اتصل حمزة بهناء، شقيقة عمر المقيمة في الطابق الخامس، ليستأذنها أن تأخذ عُلا مع ابنتها من المدرسة في ميعاد الانصراف، لأنه سيتأخر في العمل حتى المساء. هناء شخصية طيبة، يعتبرها شقيقته، لها من العمر ٢٥ عاما، طويلة وأنيقة، وملامحها حادة لكن طباعها هادئة. أنهى المكالمة، ثم أخذ يثرثر مع عمر ممتدحا أخته وزوجها، إلى أن اتصل عليه مديره، ليصعد له في مكتبه،

- شكرا يا صاحبي انت واختك والله، ربنا ما يحرمني منكم

رد عمر بابتسامة ودودة، بينما تحرك حمزة لمكتب مديره متسائلا، ترى لماذا لم ينزل مباشرة وأراد منه الصعود، وما أمر التأخير الذي سيكون اليوم. دق الباب، ثم دخل إلى المدير، حيث يجلس وليد الذي تجاوز الخمسين بقليل، واحتل رأسه الشعر الأبيض على الكرسي وراء مكتبه. دعاه للجلوس فاستجاب بهدوء وابتسامة، وكعادته سأله عن أحواله، فهز رأسه حامدًا الله على كل شيء. ثم بدأ وليد يشرح له ظروفة الصحيّة، التي سوف تضطره لطلب معاش مبكر.. لم يكن حمزة يعرف عن مرض الرجل شيئًا، فمظهره مدعاة لحسد الرائين، فظهر القلق والمفاجأة على ملامحه، بينما تابع وليد في ود:

- انا هاحتاج حد يسوقلي العربية ويكون معايا باستمرار.. مش هالاقي حد استأمنة على البيت أو بنتي غيرك.

هذا ضد كل ما خطط له من استقرار ضحى لأجله حتى بمؤهله الجامعي.. ظهرت ملامح الاضطراب عليه، فقام وليد من مكانه، وجلس على الكرسي المقابل لحمزة وقال:

- أنا عارف انك مش هترفض..

أضاف مطمئنا له:

- انا هاجهزلك كل حاجة عشان تاخد ٣ سنين أجازة بدون مرتب ممكن تقطعهم في أي وقت.. وكان المقابل هيكون مجزي أكتر من المرتب اللي بتاخده هنا، كأنك مسافر بره وأحسن كمان.

كان منفعلا وحساباته في رأسه مضطربة، فلم يستطع الرد، ولكنه نظر في عين وليد متمنيا له الشفاء. بعد دقيقة من التفكير السريع، حسم أمره وقال بهدوء:

- أنا تحت أمرك في أي وقت.. وان شاء الله أكون قد الثقة دي.

ربت وليد بيده على كتف حمزة، ثم مد يده له بهاتف جديد قائلا:

- خلي ده معاك، ماحدش هيكلمك عليه غير انا أو المدام.. روّح انت دلوقتي ويومين تخلص إجراءات الأجازة وهاتصل عليك عشان تبدأ الشغل الجديد.

اتجه إلى الباب، فأوقفته كلمة وليد، التي خرجت ببطء ونبرة عاجزة: "شكرا".

عاد مرة أخرى لصديقه، وحكى له ما دار بينه وبين وليد. نظر عمر في الفراغ للحظات ثم قال:

– فرصة كويسة، ماتضيعهاش.. انت كده كده بتعمله مشاويره بعربية المحطة من غير مقابل.. دلوقتي هتعمل نفس المشاوير بس بمقابل وكويس كمان ومحافظ على الوظيفة مش هتطير.. يا بختك.

قالها، ثم أطلق ضحكة عالية مستطردا في حديثه:

– ولازم نحتفل النهارده بقى.. هاخلص واعدي عليك نخرج.

ألقى حمزة في وجهه بسبة متداولة بينه وبين صديقه، بطريقة سينمائية ضاحكة، مغادرا المكان منتشيا غير ملتفت لكلماته. يشعر أنه مقبل على شيء جديد، وربما جيد. لم يفكر أنه سينال رتبة سائق، فهو يعلم مكانته عند وليد. همَّ بالذهاب ليأخذ عُلا من المدرسة، ثم تذكر اتصاله بهناء، فتغاضى عن هذا وتحرك في اتجاه منزله. يحب النيل كثيرا.. يحب مرافقته دوما في طريقة للمنزل، ولكن!.. يحب البحر أكثر.

...

دخل المنزل، ثم إلى غرفته مباشرة.. ضغط زر تشغيل اللابتوب، ثم اتجه إلى المطبخ ليعد الطعام. أخذ كتابا يقرأه في المطبخ وهو يتابع الطعام الذي يعده بعناية لطفلته، حتى انتهى من إعداد الغداء واتصل بهناء ليطمئن على قدوم علا، دخل غرفته وجلس أمام حاسوبه، وفتح صفحته على الفيسبوك. كعادته، تكون خانة الدردشة مغلقة، فنظر سريعا

على طلبات الصداقة التي لم يقبل منها أحد، ثم على الإشعارات التي لم يجد بها جديد، ومنها إلى الرسائل التي لم يجد فيها سوى رسالة واحدة من حساب يحمل اسم "ود سليم". فتح الرسالة مسرعا، ليرى محتواها:

-"أنا ببعتلك بعد ما شفت قد ايه انت حد كويس ومحترم.. انت ماحاولتش تتصل عليا ولا مرة بعد ما كلمتك بنفسي في محنتي ومشكلة أخويا.. ببعتلك هنا عشان أقول لك شكرا.. شكرا على وقفتك جنبي أحسن من الأهل رغم انك ما تعرفنيش.. شكرا ليك يا حمزة" ابتسم لكلمات الرسالة، ثم رد عليها بهدوء اصطنعه أمام نفسه، رغم بعثرة مشاعره بداخله

""العفو يا ود.. أي حد مكاني كان عمل كده.. بس أنا كنت عايز أعرفك أكتر.. ازاي انتي شبهي كده؟!".. ضغط زر الإرسال، وانتظر رؤيتها للرسالة أو الرد، حتى أمسى انتظاره دون جدوى، فهي لم تكن موجودة في هذا الوقت. تمنى أن رسالته لا توحي بأنه يريد الكلام أو يشتاق لحديث معها. تأمل كلماته وقلب شفته في سخرية من جملته البائسة التي لا تدل على أي شيء سوى كآبته وصمته. قطع تركيزه في شاشة الكمبيوتر رنين هاتفه، ليجد اسم هناء، فرد عليها. علم منها أنهما بالجوار، فأخبرها أنه في الشقة، ثم طلب منها أن تعطي الهاتف لطفلته، التي قالت بمرح:

- انت فين.. هتتأخر ليه النهارده.. أنا عايزة أخرج.

طلب منها النزول ليتناولا الطعام سويا، ثم يتشاوران في هذا الأمر، فسمع صياحها من السماعة بعد أن علمت بوجوده، وتناولت حقيبتها ونزلت السلالم مسرعة، لتستقر في أحضان حمزة، الذي وقف على السلم في انتظارها.

دخلا للمنزل ثم قال: ناكل وبعدين نخرج

فأجابت: نخرج وبعدين ناكل.

ركع أمامها على ركبتيه، ورفع حاجبه، فأنزلته له بيدها الصغيرة، فترك قبلة عليها، ثم طلب منها أن تبدل ملابسها ليأخذها في المكان الذي تريده، فقالت بمرح:

- عايزة ادخل بيت الرعب.

ظهرت ملامح الرهبة على وجهه وقال:

- انا اللي كبير بخاف ادخله.. انتي مابتخافيش؟

هزت رأسها نفيا، فابتسم لها متعجباً ومعجباً، ثم هز رأسه موافقا على طلبها.

***

وصلت ود لمنزل سارة صديقتها، صعدت السُلَّم بسرعة، ثم طرقت على الباب بنغمات متقطعة تشبه إيقاع الطبلة. من الجهة الأخرى تتقدم صديقتها وهي ترقص وتتمايل على نغمات طرقات الباب، ووالدتها تنظر

لها ضاحكة، وتضرب كفا على الآخر. ما أن فتحت سارة، حتى نظرت لها ود بعين مفتوحة وأخرى مغلقة، ثم قالت بنبرة ضاحكة:

- أنا جعانة.

دخلت وأغلقت الباب خلفها، ثم سلمت على والدة سارة، وجلست معهما. سألت عن أبيها، فأخبرتها صديقتها أنه مازال في العمل، وقبل أن تكمل الخمس دقائق برفقتهما، رن هاتف سارة، فردت على صديقتهما هبة، وقبل أن تتكلم، سمعت صوت صديقتها:

- الحقيني يا سارة.. عملت حادثة تعالي لي.

أخذت سارة نفسا عميقا لتتمالك نفسها، ثم أخذت منها العنوان، وأخبرتها أنها قادمة في الطريق برفقة ود. أبدلت ملابسها مسرعة، بعد أن استاذنت من والدتها، التي حاولت النزول معهما، فأقنعتها ود أنها ستكون بخير، وأنها يجب عليها انتظار زوجها.

وضعت سارة قبلة على جبين والدتها قبل رحيلها وقالت بتوتر:

- مش هتأخر يا ماما.. هاتطمن عليها ونرجع على طول.

نزلتا سويا على السلالم مسرعتين، وأخذتا أول سيارة اجرة للعنوان المطلوب. حاولت سارة أن تحث السائق أن يسرع، وود تهدئ من روعها موضحة:

- يا حبيبتي طالما هي اللي كلمتنا تبقى كويسة.. هي أكيد مخضوضة بس.

وصلت السيارة في المكان المحدد، فترجلتا سويا تنظران حولهما، فلم تجدا أحدًا! سارعت بالاتصال بها، فردت هبة لتخبرهما أن بعض العاملين في مدينة الملاهي القريبة من مكان الحادث أجلسوها بالداخل لتنتظر القادمين لها، فتلفتتا حولهما، وأشارت سارة إلى الملاهي، وجرتا نحوها مسرعتين.

بمجرد أن رأت صديقتها، انفجر الدمع من عينيها، فلم تكن تتوقع هذا المشهد إطلاقا. فتحت فمها من الدهشة، ثم هرولت إلى صديقتها تحتضنها، وأتت من خلفهما ود في خطوات أهدأ، لتضمهما سويا، ثم بدأ الجميع في الترديد سويا "سنة حلوة يا جميل".

جلسوا جميعا، بعد أن احتضنها جميع أصدقائها بمفاجأتهم متمنين لها عاما جديدا سعيدا. عادت فسألتهم لما فعلوا كل هذا، فنظر جميعهم لود قائلين:

- السوسة دي صاحبة الفكرة وهي اللي رتبت كل حاجة.

سارة وهبة هما صديقتا ود من السنة الجامعية الأولى. سارة في آخر سنة في كلية العلوم، لها قوام رشيق وعيون خضراء وبشرة فاتحة.

هبة زميلة ود بكلية الصيدلة وصديقتها المقربة، جسدها ممتلئ قليلا، وشعرها بني وعيونها سوداء واسعة. ضمت سارة صديقتها مرة أخرى لقلبها

وروحها شاكرة إياها على كل هذا، والتفوا جميعا حول الطاولة، وبدأوا في الاحتفال. تركتهم ود إلى ركن يبعد عنهم بقليل، لتتصل بأخيها تؤكد عليه حضوره إلى مدينة الملاهي بعد انتهائه من دروسه، ليحتفل معهم بعيد ميلاد سارة هناك، مع الزملاء. استسلم أخيرا، وأخبرها أنه في الطريق إليها، بعد أن فشل في إقناعها بعدم حضوره، ثم اخبرها أنه سيحضر حبيبة معه، فوافقت ورحبت بالفكرة، وودعته بعد أن وصته عليها كثيرا.

***

- رايحين فين من غيري يا أندال.

سمعها حمزة وطفلته عند خروجهما من باب البناية، فالتفتا وراءهما، ليجدا عمر قادمًا نحوهما. تصافح الصديقان، ثم أخبره حمزة بما تريد طفلته، فتابع عمر بمرح:

- خدوني معاكم.. عايز اتفسح انا كمان.

- بس العشا عليك؟

قالها حمزة بحماس، فرد عليه عمر بنفس الحماس "موافق"، وانطلقوا ثلاثتهم إلى الملاهي. تجاوزوا البوابة، فبدأت عُلا تنظر للموجودات بفرح شديد يكاد أن يقفز من مقلتيها. سألها حمزة:

- هتلعبي حاجة غير بيت الرعب.

هزت رأسها ومدت ذراعها تحتضن كل ما ترى وتقول: كلها، هالعب الألعاب كلها.

ضحك عمر بينما مال حمزة على طفلته يخبرها في رقة أنه لن يستطع أن يلعب معها جميع الألعاب، فقاطعه عمر موضحا أنه سيدخل معها بعض الألعاب بدلا منه. ابتسم حمزة لصديقه ممتنا، ثم ذهب لشراء تذاكر الألعاب، وبدأ المرح يغزو قلب الصغيرة، بينما هو يقف بجانبها وهي تملأ الكون فرحا بضحكاتها الموزعة على الجميع، وعلى قلبه بالأخص. تناولوا الأيس كريم وأكلوا الفيشار، ومضى الوقت لا مكان للملل فيه، ولكن حل التعب أخيراً، واكتفت علا من اللعب، فاتجهوا للبوابة للخروج.

وقرب البوابة، لفت انتباههم صوت بنات يحتفلن، فأخذت علا تجري نحوهن لتشاهدهن، ووقف الصديقان يراقباها من بعيد. ظل حمزة يتابع علا ويتابع الفتيات وحركاتهن وفرحتهن وأصواتهن التي تعالت لتملأ المكان سعادة وبهجة، حتى عادت علا وجلست بجواره قائلة:

– انا عايزاك تبقى تعمل لي عيد ميلاد زي ده.

حملها عمر متجها لعيد الميلاد، فحاول حمزة منعه، ولكن دون جدوى. لم يعره عمر اهتماما. وقف عمر وعُلا وسط الجمع، شباب وبنات ملتفين حول ود وسارة وهبة، الجميع أصدقاء وزملاء ما عداهما، ولكن لم يسألهما أحد عن هويتهما، فالموقف بسيط، ولا يوجد داعي

لإزاحتهما بعيدا عن الحفل، وقد بدأت عُلا تردد معهم "سنة حلوة يا جميل"، فالتفتوا لها وأعطوها واحدة من الألعاب النارية لتغني معهم.

ركزت ود في ملامح الطفلة، متيقنة أنها رأتها قبل ذلك، لكن لم تتذكر. وانتهت الأغنية بإطفاء الشمع، وهم عمر بجذب علا والذهاب، فإذا بود تتجه إليهما لتعطيهما قطعة من التورتة، فشكرها عمر، وتبادلا ابتسامة صافية مرحة.

وأخيرا، انصرف عمر بعلا عن الحفل عائدًا إلى صديقه الخجول الذي لم يحاول الاقتراب، وود تتابعه وهي تحاول تذكر الطفلة، حتى تاها عن نظرها في الزحام، ولم يكن من الممكن أن تترك عيد ميلاد صديقتها لتبحث عنهما، خاصة وقد وصل خالد وحبيبة، فانشغلت معهما ونسيت الأمر.

عاد عمر وعلا إلى حمزة، الذي استقبلهما قائلا:

- يلا بقى كفاية كده.. متهيألي كلنا تعبنا.

عقب عمر على كلامه:

- ايوة يلا نروح.. انا تعبت.

نظر له بعين جامدة وقال بصوت جاد:

- مش هتزوغ من العشا يا حلو.

ضحك عمر وحك رأسه ثم قال:

- ماشي ياعم.. يلا بينا.. تحبوا تاكلو ايه؟

قاطعت كلامهم عُلا قائلة بمرح:

- كنتاكي وبيبسي وبطاطس وكاتشب.

نكس عمر رأسه متوقعا إفلاسه بعد هذا العشاء، ثم ضحك وتحركوا سويا مغادرين المكان لأقرب فرع كنتاكي لتناول العشاء، ووصلوا إليه في غضون دقائق، حيث طلبوا وجباتهم وشرعوا في الأكل بشهية مفتوحة، حتى أن علا انتهت من البطاطس التي أمامها ونظرت لحمزة، الذي بدوره أعطاها ما أمامه ضاحكا.

وأخيرًا، ها هم وقد وصلوا كل إلى منزله، وعلا نائمة على كتفه من التعب والارهاق. أدخلها إلى الفراش كما هي، وهو ينظر إلى ملابسها التي اتسخت ويبتسم، لكن لم يشأ أن يقلقها، فغطاها لتستقر في سريرها حتى الصباح.

دخل غرفته، وألقى نظرة على الهاتف الذي أعطاه إياه وليد، منتظرا ما هو قادم. طرد هواجسه، ودعا الله بالخير، ثم فتح اللاب توب ووضعه أمامه على الأرض، وسجل دخول للفيس بوك وضغط أيقونة الرسائل.. ووجدها! ود.. كان منتظراً ردها بفارغ الصبر، يريد معرفة ماهيتها، يريد أن يدخل في عالمها ومعرفة كم تشبهه ويشبهها.. كانت رسالتها هدفه الأول..

- لأ يا حمزة، مش أي حد مكانك كان هيعمل كده.

وبالنسبة لأني شبهك. فدي واضحة قوي من اللي حصل يوم ١٤.

كتب لها والابتسامة تملأ وجهه:

- بس أنا عايز اعرفك اكتر.. اعرف تفاصيلك يا ود.

انتظر ردها.. تجاوز انتظاره مجرد الانتظار، لقد تحول إلى شغف للحديث مع مجهولة يريد معرفة خباياها. لم ترد، واستسلم إرهاقه ورغبته في النوم.

***

استيقظ وقد أظلمت الحجرة، فنظر في ساعته فوجدها الخامسة، والفجر يوشك أن يؤذن، فاستغرب حاله، فهذه المرة الأولى له التي ينام فيها كل هذا الوقت. قام من فراشه منزعجًا يريد أن يبدأ فورا في إنجاز ما تأخر كثيرا في إنجازه من دروسه، فجلس على مكتبه، وأمسك كتابًا، ثم هدأ قليلا، وقبل أن يبدأ في استذكار دروسه رن على هاتف حبيبة رنة واحدة كي لا يزعجها، وفقط لتصلها منه أجمل "صباح الخير". ثم قام، فأعد لنفسه كوبا من الشاي الساخن، وعاد يستدفئ به في يده ويجمع شتات عقله ليركز في كتبه.

استمر خالد في المذاكرة حتى السابعة والنصف، حتى وجد شقيقته تدخل عليه غرفته مندهشة مما تراه:

- حبيبي بيعمل ايه الصبح بدري كده؟

لم يرد بالكلمات، كي لا يقطع تركيزه، بل رفع الكتاب أمامها ليوضح لها ماذا يفعل، فابتسمت واقتربت منه وطبعت قبلة على جبينه ودعت له

بالتوفيق، ثم ذهبت للمطبخ لتحضر له كوباً من اللبن. ابتسم حين رآها قادمة نحوه باللبن. أخذه منها دون مشاغبة، فبعض الترضية لمجهودها معه واجبة، حتى وإن أصرت على سقايته اللبن كطفلها المدلل الذي تحرص على تغذيته. رحلت لغرفتها وهي تضحك وتقول له:

- الرسول كان يحب اللبن ماهوش بتاع العيال بس يعني.. وبعدين يهدي أعصابك وتعرف تركز.

تذكر أن مدرس الرياضة قال إنه سيغير الموعد، فبحث عن رقم صديقه وائل، واتصل به ليجد هاتفه مشغولا. كرر الاتصال حتى أجابه وائل بضيق:

– عايز ايه يا بني الساعة ٧ الصبح.

ضحك خالد ثم قال:

– انت بترغي مع مين الساعة دي.

عقد وائل حاجبيه ثم قال لصديقه بضيق:

– مافيش ياعم، مصلحة كده بظبطها.. عايز ايه؟

سأله خالد عن موعد الدرس، فأجابه وائل مسرعا، ثم أغلق معه ليعود لمكالمته الساخنة. وائل هو صديق خالد، الذي تربى معه من الصغر وتجاوزا مراحلهما التعليمية سويا. يعترض خالد دوما على اسلوب وطريقة حياة وائل، ولكن يظل هو صديقه الأوفى الذي لم يستطع أن يبدله، فرحل من رحل، وبقيا معا من بين أصدقاء المدرسة. فكر أنه ربما بعد أن ينتهي من

انشغاله بهذه السنة الدراسية الثقيلة، سيتفرغ لصاحبه أكثر، ويجذبه بعيدا عن تلك الدائرة من الضياع.

...

اتصلت سارة بود تستعجل قدومها للكلية، فردت ضاحكة:

- يا بنتي انا في صيدلة انتي في علوم، يعني محاضراتنا مش مع بعض.

فقالت سارة متثائبة:

- يلا يابت مانتأخريش أصلا ماعنديش محاضرات النهارده وعايزة اقعد معا كي انتي وهبة.

أبدلت ود ملابسها، وفي طريقها للباب مرت بحجرة خالد، فدقت الباب برفق ثم فتحته لمسافة صغيرة أدخلت منها رأسها وسألته..

- انا نازلة الكلية، عايز حاجة؟

أشار إليها بيده، فأغلقت الباب عليه مجددًا، وغادرت إلى الجامعة لتقابل صديقاتها، حتى تحين محاضراتها.

في مكانهن المعتاد، لم تجد غير هبة، فصافحتها وسألتها عن سارة، فهزت كتفها توضح عدم علمها بمكانها. تعجبت ود..

- غريبة! دي هي اللي متصلة تستعجلني!

اتصلت بها، فلم ترد. فتحت متصفح الفيس بوك من على الهاتف، وأرسلت لها رسالة، فردت عليها بأنها على باب الجامعة. تنهدت.. فكرت

أن أعصابها أصبحت مشدودة دومًا، والأفكار السيئة أقرب إلى ظنها من الطبيعي. عضت على شفتها في قلق، هي لا تمنى لنفسها أن تصاب بالوسوسة بهذا الشكل، وإلا فلن تستطيع المثابرة مع خالد، وهو في أمس الحاجة لصبرها الأشهر التالية لتكافئ نفسها بعدها بفخر لا حدود له، وحضن من روح أبيها تعوضها كل ما فات.

انتبهت لإشعار آخر على "المسنجر" برسالة من حمزة. فتحتها مسرعة، وقرأتها مرات ومرات، واستغرقتها كلماته القليلة، حتى أنها لم تعد معهم بروحها، ولم تعد تنتظر وصول سارة، التي وصلت بالفعل، فما استطاعت أن تتأكد أن كانت سلمت عليها أم لا. كانت تحاول استيعاب الرسالة، وتفكر في الرد المناسب الذي تستطيع من خلاله أن تخفي لهفتها للكلام معه. تشعر باطمئنان له يشجعها ألا تتردد في التواصل والحديث عن نفسها، ولكن... ولكن قاطعتها سارة بلكزة لكتفها وهي تقول بمرح:

- انا عازماكو على الفطار النهارده منك لها عشان مفاجأة امبارح.

صرخت هبة من الفرحة، بينما ود بالكاد ابتسمت، وهي تتمنى أن تزوغ منهما وتختلي بنفسها لتجد براحًا للتفكير في الرسالة. سألتها هبة عما بها، فقالت أن لا شيء، وأنها بخير، ولكن فقط أرق أصابها طوال الليل، فلم تنم جيدا. قامتا سويا لإحضار الشطائر من مطعم الكلية، وود في مزيد من الشرود وقد فاجأتها نفسها وكيف كذبت على صاحبتيها بهذه التلقائية حريصة على إخفاء سرها، الذي ليس فيه ما يخجلها. إنهما تعرفان عنها وعن

علاقاتها بالزملاء دائما، وليس لديها ما تخفيه؛ لكنها هذه المرة، تجد إحساسا محبباً في إخفاء أمر حمزة بينها وبين نفسها فقط!

تجاوزتا الشباب الجالس في الطرقة خصيصا لمعاكسة البنات، فنظرت ود إلى سارة وقالت شبه شاردة..

– صعب تلاقي راجل في الزمن ده.. هو كل الشباب بقوا من الأشكال دي؟!

***

استيقظ حمزة على رنين هاتفه قبل السابعة صباحا، فرد على الهاتف بعين مغلقة، فوجده وليد..

– لسة نايم؟

تثائب واضعا يده امام فمه ثم قال:

– لا صحيت اهو، نص ساعة وأكون عند حضرتك

انتهى من ارتداء ملابسه، وحمل طفلته ليوصلها مسرعا إلى المدرسة قبل ذهابه لوليد. وصل أمام المنزل قبل الميعاد بدقائق، واتصل بوليد الذي نزل على الفور وركب بجانبه. وتحركت السيارة لمستشفى خاص، ووصف له وليد عنوانها.

حين وصلا إلى المستشفى، هم حمزة بالنزول مع وليد، فطلب وليد منه أن ينتظره في السيارة. استغرب حمزة، ولكنه لم يبدِ انزعاجه. نزل

وليد ودخل المستشفى، وحمزة يراقبه بعينيه حتى اختفى وراء الباب الرئيسي، فهمس يدعو له بالشفاء.

لو كان يعرف أنه سيضطر للانتظار، لأحضر معه كتابا يقرأه في هذ الوقت الضائع بلا فائدة. فتح متصفح الفيس بوك يبحث عن أي كتيب لتحميله، ليقرأه بدلا من الانتظار، فوجد تنبيه رسالة، فتذكر رسالته لود، ففتح الرسائل بلهفة، ليجد مضمونها:

- لو عايز تعرف أي تفاصيل، بص كويس جواك.. جوّة حمزة وتفاصيله هتلاقي تفاصيلي.. لأن واضح تقريبا كده اننا شبه بعض جدا ..

"إحنا اللي عايزين نعيش دايمًا.. بره الدنيا !" .

تهللت أساريره فرحا، وابتسمت قسمات وجهه لما قرأ. في لحظة قرر الاتصال بها ليسمع صوتها.. وفي اللحظة التالية تجاهل هذا القرار تماما. لا يعلم لماذا يريد الاتصال بها، ولماذا خاف.. إنه فقط أراد أن يتبادلا الحديث، ولكن فليظل حديثهما في الرسائل النصية، حتى تنتهي هذه الرهبة داخله.

كتب لها كلمات كثيرة، ثم مسحها.. أخذ يكتب ويمسح.. متردد وخائف وقلق هو من أي كلمة لم يحسبها بعناية فتتسبب في غضبها أو خوفها منه. في النهاية، أخبره عقله قبل قلبه أن يطلق لنفسه العنان، فتشجعت أنامله لتكتب:

- مش هقولك اني ماعنديش صحاب.. أنا ليا اصحاب بس اللي هو بنسأل على بعض كل فترة، وهنا كمان على الشات.. كل فين وفين لما يجمعنا مكالمة تليفون ونادر لما نتقابل.. ماعرفش ليه حابب اعيش لوحدي.. وماعرفش ليه عايز اعرفك.. واتكلم معاكي.

سمعت صوت الرسالة، ففتحها، ولم تنتبه لترقب صديقاتها. قرأتها وابتسمت، فبادرتها سارة بسؤال:

- مالك؟

انتبهت ود من تركيزها في الرسالة، فردت بسرعة: مافيش.

تخرج هذه الكلمة منها في العادة لقطع أي نقاش أو محادثة لا تريدها، وتعلم صديقاتها ذلك، فلا تسترسلن في مناقشتها. أغلقت المتصفح، لحين أن تجد الهدوء، وتفكر جيدا فيما قرأت، وتحضر ردا مناسبا، لا يشوِّشه التوتر الذي أصابها منذ رؤية حمزة. التهمن طعامهن، وأكلت ود بشهية مفتوحة كعادتها برفقة صديقاتها، أو ربما هذه المرة لو كانت بدونهن مع كلمات حمزة لازدادت شهيتها أكثر.

وبينما هذا حالها، كان هو يسأل نفسه عن سبب عدم ردها رغم رؤيتها للرسالة. رغم أنه التمس لها العذر كما يفعل مع الجميع، إلا أنه كان في انتظار الرد كما ليس حاله مع الجميع. كلماتها القليلة البسيطة تأخذه إلى دنياها، وتفتح له شبابيك الحياة و.... قطع تركيزه في قراءة رسائلها

مرارا صوت باب السيارة الذي فتحه وليد، وقد بان عليه الإجهاد، فسأله حمزة:

- انت كويس؟

فأجاب وليد بثبات بعد نفس عميق:

- أنا تمام، وديني البيت وبعدين روّح.

فانطلق لمنزل وليد، وهو يلتفت ليطمئن عليه كل حين، دون أن يتكلم أحدهما طول الطريق، حتى وصلا للمنزل، فنزل وليد، وهم حمزة بالنزول لمساعدته، فأشار له بكفه أن توقف، وقال له في وهن:

- خلي العربية معاك، وخلينا على تليفون.

شعر حمزة بقلق من نبرة وليد، وقبل أن يعاود سؤاله عن حالته مرة أخرى، ولاه ظهره واتجه إلى باب العمارة، فانتظر يتابعه حتى اختفى على السلم، ثم ذهب.

***

خرجت من خالد ضحكة ساخرة من الواقع الذي يعيشه الآن، وهو جالس على مقعد على الرصيف بجانب صديقه وائل، وهما في انتظار موعد الدرس. تبادلا بعض النكات عن الحال والمستقبل والناس مع وائل والزملاء، ثم هرب من ذاك الإحباط إلى ذكرياته السعيدة مع حبيبة، التي تملأ قلبه بالعزم والأمل، حتى انتبه من شروده على صوتها

تناديه من الجهة الأخرى من الطريق، تشير لمركز الدروس الخصوصية.. قام من كرسيه، وعبر الطريق إليها، ثم مد يده مصافحًا وأمسك كفها في كفه، مستمدا منه إحساس الأمان الذي كان شاردًا معه منذ قليل. اتجها سويا لحضور درسهما، ولحق بهما وائل ثم انضمت إليهم صديقة جديدة لوائل، لا يعرفانها. مال خالد عليه قائلا بصوت هامس:

- مش هتلم نفسك بقى وتستقر على واحدة! مين دي؟

ضحك وائل ثم قال بصوت عالٍ لتسمع حبيبه كلامه:

- أعرفكم يا جماعة دي نورهان صاحبتي.

ضغطت حبيبة على يد خالد، لتخبره بالإشارة، دون أن تحرج صديقه وائل، أنها تفهم ما يريد. رحبا بها، ثم تحركوا جميعا إلى مكان الدرس، حتى إذا ما انتهوا منه، خرج خالد وحبيبة من المركز متجهين إلى منزل حبيبة. اعترض طريقهما وائل وصديقته، ووجه وائل كلامه لخالد:

- مش هتتفرج عالماتش يا معلم وللا ايه؟

رجع خالد برأسه للوراء ضاحكا:

- يابني انا اهلاوي، اتفرج على ماتش الزمالك ليه وهو كده كده هيخسر.

قاطعته حبيبة بنبرة لائمة:

- لأ طبعا.. إن شاء الله هنكسب. ثم وجهت سؤالها لوائل تسأله:

- الماتش امتى؟

- الاسبوع الجاي، وهنروح نجيب تذاكر دلوقتي.

نظرت حبيبه لخالد ببراءة وطفولة ثم قالت:

- مانيجي نروح الماتش ده.

رفع خالد حاجبه ثم قال بسخرية:

- والله انا اهلاوي يا بنتي.

ترجته حبيبة حتى وافق، وطلب من وائل أن يحضر لهما تذكرتين ليذهبا برفقته لمشاهدة المباراة في الاستاد.. كانت حبيبة منتشية بتصرف خالد واستجابته لرغبتها شاعرة بقدرها في قلبه.

غادرا الزحام معا ليوصلها لأقرب مكان لمنزلها، ثم اتصل بود ليسألها إن كانت تحتاج شيئا من الشارع فيحضره معه، فأجابت:

- لا يا حبيبي محتاجة بس تيجي علشان أنا جعت.

فور وصول أخيها، أعدت الطعام، وتناولت معه لقيمات صغيرة كعادتها، ثم قالت إنها مرهقة من اليوم الشاق في الكلية، ودخلت غرفتها لتنام، بعد أن أوصت خالد بتنظيف المكان بعد الانتهاء من الطعام.

وفي حجرتها، أطفأت النور، وأغمضت عينيها، لكن ظلت رسالة حمزة تشغلها، وألف رد تستقر عليه للحظات، ثم تعود لإلغائه والتفكير في رد جديد يقول ما تريد.. المشكلة أنها لا تستطيع تحديد هذا الذي

تريده كي تفكر في كيفية التعبير عنه. مضت حوالي ساعة وهي في هذا الأرق، فكرت كثيرًا فيها أن تفتح الفيس بوك لترد وتنهي حيرتها، ولكن في النهاية أقنعت نفسها أنها متعبة حقا، ويجب أن تستريح أولا، وبعدها ستستطيع كتابة الرد الأوفق. أغلقت هاتفها، ثم ذهبت في نوم عميق.

***

الخوف هو السبب الأساسي لضياع كل ما هو أساسي في حياتك.

- ٣ -

صحراء واسعة، لا يوجد بها شيء.. فقط سراب، وأناس يسيرون من بعيد متجهين ناحية شيء ما. الرمال تحيط المكان بأكمله، وهو قد بدأ يجر قدميه متجها ناحية السراب، تسقط حبات العرق بغزارة على جبينه.

بدأ يركض محاولا اللحاق بهم، يجتاحه الخوف والعطش معا، و تسير معه الشمس كلما أراد الهروب منها..

فجأة! وجد وليد يقف في منتصف رمال متحركة. اتسعت مقلتاه فزعا، وتحرك تجاهه بدون تفكير، حتى غاصت قدماه في الرمال. حاول التشبث بأي شيء حوله، وجال بنظره مرة أخرى، فلم يجد وليد أو القافلة التي تسير بعيدا.. حاول أن ينادي على من ينجده من الموت والغرق، فلم يجد.. لم يخرج صوته من الأساس. ظل يراقب جسده وهو يختفي تدريجيا في الرمال.

بعد لحظات، عرف فيها أن المراقبة لن تجدي نفعا، بدأ يعافر من جديد، ويشد جسده وينبش في الأرض بيده، وإذا بيد تمسكه أخيرا، وتجره بعيدا عن الرمال المتحركة.. تشبث بها بقوة، فهذه طوق نجاته الوحيد من الغرق في دوامة الرمال المتحركة. حاول النظر لوجه منجده، فلم يستطع أن يتبين ملامحه، فالشمس كانت وراء المنقذ وأمام عينيه تغشيهما. وأخيرا، خرج منهكا من الدوامة، واستلقى على ظهره ليلتقط أنفاسه، وانتبه إلى عطشه الذي زاده المجهود الرهيب لأقصى حد، فوجد نفس اليد تمتد إليه مرة أخرى بقربة ماء، أخذها في لهفة. أعطى ظهره للشمس، ورفع الماء لأعلى ليشرب منها ما يكفيه.. ففتح فمه من الدهشة وهو يرى منقذه.. "ود"!

استيقظ حمزة عند هذا الحد، فظل في مكانه غير مستوعب أين هو، فقد كانت الرؤيا حقيقية إلى حد جعله يرى سقف حجرته الذي فتح عينيه ليجده هو أغرب ما يمكن أن يراه. رن هاتفه بوصول رسالة، ففتحها، فكانت نصها: "انت كويس؟".. كانت من وليد، فابتسم متسائلا، هل كان معه وليد في الحلم وعرف بما حدث له؟ تثاءب ثم اتصل بوليد، الذي رد على الفور:

- اتصلت عليك كتير، قلقت.. فبعتلك الرسالة.

تناول المنشفة ووضعها على كتفه متجها إلى الحمّام، وهو يرد بهدوء:

- انا تمام الحمد لله.. بس كنت محتاج انام شوية فماسمعتش الموبايل، نص ساعة وهاكون عندك.

أغلق الخط مع وليد، وأنهى اغتساله، وقبل أن يذهب لعمله حمل صغيرته النائمة لم تزل، وصعد بها لهناء، التي حملتها عنه قائلة:

- حتى يوم الجمعة شغل!

اعتذر لها عن إثقاله عليها، فابتسمت في ود أخوي..

- علا دي حبيبتي أنا قصدي أنت لازم ترتاح وتقعد معاها بس

شكرها ونزل على درجات السلم مسرعا، وركب السيارة وتحرك متجها لمنزل وليد.

كان نفس برنامجه المعتاد مع وليد، ينتظره أمام المستشفى، ولا يبرح مكانه حتى ينتهي من جلسته العلاجية، ثم يذهب به للمنزل، ثم ينتهي العمل، ما لم يرسله لقضاء بعض احتياجاته التي لم يعد يستطيع قضائها بحالته الصحية المتدهورة في سرعة. كان وليد يحاول التماسك، ويخفي أمر هذا العلاج عن الجميع، وقد سأله حمزة عما به، ولكن دون جدوى، لم يرد وليد بشيء سوى أنه بخير.

اتصل بود، ينوي أن يقص لها حلمه، فتفاجأ بها تخبره بمجرد أن ردت على اتصاله أنها تريد رؤيته لشيء هام. لم يحب أن يذهب لها بالسيارة، وإنما اتفقا على الموعد والمكان، فصلى الجمعة ثم اتجه لأقرب محطة مترو. كان ملهوفا للقائها، يمشي بخطوات سريعة، حتى إنه جرى ليلحق الباب الذي بدأ يغلق، قبل أن ينطلق المترو بلحظات. لم يكن المترو مزدحما كثيرا، كسائر أيام الأسبوع، فكانت فرصة له ليمر بعينيه

على الوجوه الواقفة في المكان، يراقب إرهاقهم ونظراتهم الباهتة إلى ما وراء النافذة المظلمة في النفق. رغم ذلك، فقد كان عدد الواقفين في الممر أكثر من ضعف الجالسين.. منهم من يمسك بيد حبيبته ليطمئنها في الزحام، ومنهم من يتكئ على زميله لينام قليلا قبل نزوله، ومنهم من هو غير مدرك لكل ما حوله وشارد في هموم لا يعرفها سوى ربه.

نظر لنفسه في زجاج النافذة الذي يعكس صورته بسبب السواد المحيط بالقطار من الخارج، فشعر أنه لا يختلف الكثير عن تلك الوجوه الشاحبة. سرح بخياله في أشياء قديمة، حين كانت هوايته في مراقبته للأشياء لها من وقته أكثر. بدأ يفكر في والده ووالدته، وما أدى بحياته إلى ما هو فيه الآن.. حتى انتهى به التفكير إلى صغيرته، التي لا يعلم ماذا سيفعل لها في حياتها، هل سيتركها كما تركوه، أم سيظل لها كما لم يفعل من قبل. تجاوز القطار جميع المحطات إلى أن وصل لآخرها، فنزل الجميع ماعداه، ظل ثابتًا مكانه لا يتحرك.

نادى عليه رجل مسن، وهو يشير بيده لاسم المحطة التي يقف بها القطار:

- مش هتنزل يابني؟ دي آخر محطة خلاص!

نظر حمزة حيث أشار الرجل العجوز، وقد أفاق من شروده. نزل من المترو يضحك مما فعله بنفسه، وليأخذ الاتجاه المقابل للعودة إلى حيث ميعاده الذي فوتته عليه أفكاره. نظر في ساعته بعد أن ركب ثانية، وتنهد في ارتياح، فما زال هناك بعض الوقت. هرول على سلالم المترو ورفع الهاتف على أذنه ليتصل بود، ليتأكد من وصولها ويسألها

عن مكانها، فأخبرته أنها تنتظره في الكافيه الذي اتفقا عليه، فاعتذر لها مستأذنا في تأخير خمس دقائق أخرى، وأغلق الهاتف واتجه إليها.

اختارت ود أكثر الطاولات ابتعاداً عن الزحام، وجلست تنتظره. كان بالها مشغولا، لا تعلم ماذا ستخبره، هل لها أن تقول الحقيقة مباشرة، أم تكون أقل اهتماما من هذا، وتحاول أن تداري قلقها عليه لهذا الحد؟ لمحته من بعيد يتجه إليها، فرسمت ابتسامه لطيفة تستقبله بها، ورآها حمزة، فابتسم وأسرع ناحيتها، وجلس على الكرسي المقابل لها وهو يكرر اعتذاره، ويقول إنه كان من المفترض أن ينتظرها هو، لا أن يدعها تنتظر.. قاطعته قائلة:

- ما حصلش حاجة للاعتذار ده كله.. المهم، انت كويس؟

قالتها ود بقلق ملحوظ، فاعتدل منتبها إليها أكثر ثم قال:

- انا زي الفل.. الحمد لله يعني.

زاد ارتباكها، فبادرها بالسؤال:

- خير يا ود؟.. في ايه، أنا جنبك.

جاء النادل من وراءهما ليأخذ طلبهما، فسألها حمزة عما تريد فوجهت كلامها للنادل:

- عايزة ليمون فريش.

رفع حاجب واحد بطريقة مضحكة، ثم عدل كرسيه وقال للنادل بنفس الروح المرحة:

- ٢ فراولة لو سمحت.

دوَّن النادل طلبه، وغادر في هدوء، بينما نظرت له ود باستغراب، لكنه طلب منها أن تدخل في الموضوع مباشرة، فزاد ارتباكها أكثر، لكنها أخذت نفسا عميقا، ثم بدأت تقص عليه ما تريد إخباره.

***

صوت المياه وحده السائد في المكان، وهو يقف مستندا إلى الحائط، ليسمح للمياه الساخنة بالمرور من رأسه لقدميه متخللة سائر جسده العاري. فكر كثيرا في الإفصاح عما به، ولكنه يفضل دائما زوجته على نفسه، ويخاف على طفلته الصغيرة من أجواء الكآبة التي ستملأ البيت بالتأكيد لو علمت زوجته. وفجأة، سعل بشدة، ثم تقيأ دمًا من فمه.. راقب الدم المتحرك برفقة الماء إلى بلاعة البانيو في جزع، أغلق الصنبور وجلس على حافة البانيو يفكر مليا في الأمر.

خرج من الحمام، فمر على حجرة صغيرته وترك قبلته على جبينها، ثم ذهب لغرفة نومه، حيث جلس بجوار زوجته التي بادرته..
- شكلك مرهق قوي يا وليد.. هو ما ينفعش تاخد أجازة شوية، بدل ما كل يوم تروح وترجع من نص اليوم؟.. مالك يا وليد.. انت مخبي عني حاجة.

تنفس الصعداء ثم قال بهدوء اجتهد ليحوزه:

- لا يا حبيبتي.. انا أصلا بفكر اقعد من الشغل..

أقدم على معاش مبكر وافتح شركة تأمن لنا مستقبل رقية.

اقتربت منه واحتضنته من الخلف، ووضعت قبلة على كتفه وهي تمرر يدها على صدره:

- بقى كل الإرهاق والقلق اللي بقالك فيه فترة عشان خاطر كده؟ طب ليه مش بتقول لي بدل كل اما اسالك تقول لي مافيش.. جذبها برفق لتصبح أمامه مباشرة، ثم قبلها على جبينها، واختلق عبارات جوفاء عن أنه لا يريد إرهاقها بمشاكل العمل أو التفكير فيه. اقتربت منه أكثر، ولثمت عنقه في رقة، فضمها إليه أكثر، حتى أصبحا كالجسد الواحد.. مد يده إلى مفتاح المصباح فأطفأه، وغزاه قلق وهو يتذكر مشهد الدم في البانيو، فغالبه ليدفنه في قرارة نفسه وهو يهمس في أذنها...

- انتِ أحسن حاجة حصلت لي وبتحصل لي وهتحصل لي.

وفي الصباح التالي، استيقظ وليد من نومه على صوت زوجته، فنظر في ساعته ليجدها السادسة. ما الذي أيقظها في هذا الوقت المبكر؟! حاول التركيز فيما تقول زوجته بصياحها، ففسر كلماتها..

- يلا يا رقية عشان بابا يوديكي المدرسة

اندهش ورفع حاجبه متسائلا:

- هو انا اللي هودي البنت المدرسة النهارده!

ليجدها تدخل عليه الغرفة قائلة:

- كويس انك صحيت

مال برأسه على ظهر السرير، ثم قال محاولا أن يبدو لا مباليا:

- أنا ليه؟.. احنا مااتفقناش على كده.

وبعدين ماهي كده كده مدرستها في طريقك!

جلست بجواره، ووضعت قبلة على جبينه، تريد بها أن تخدره لينصت للكلام في عناية، ثم ينفذ الأمر بدون كثير جدال:

- مش لازم نتفق يا حبيبي.. وبعدين انا عندي حاجات عايزة اخلصها.. توديها المدرسة وتديها المصروف وبعدين تمشي.. دا لازم يحصل مافيش مفر يا حبيبي.

عقد حاجبيه وقال:

- بنتك في أولى ثانوي مش أولى ابتدائي يا ماما.

رد بنفس النبرة الحانية:

- وليكن.. صحصح بقى يا وليد ويلا عشان تودينا بالفعل لم يستطع أن يقاوم نبرتها المستعطفة، خاصة بعد القبلة التي سرقت كل الكلام من على لسانه، فلم يملك غير أن يقول كعادته: حاضر يا حبيبتي

خرجت من الغرفة، وخرج وراءها، ليسبقها للحمام، ليغتسل قبل أي شيء.

هاجمه السعال ثانية، لكن لم ينته إلى قيء الدم كالأمس، نخرج هادئا يحمد الله، وارتدى ملابسه، فوجد رقية قد جهزت نفسها، نخرجا معا.

نزلا على السلم، وهو يحيط بذراعه كتف ابنته، ثم طلب منها أن تغني له شيئا. تعرف هي أنه يحب غناءها كثيرًا، فابتسمت وفكرت في أغنية تناسبه، بعيدا عن تفضيلها من أغنيات جيلها. ثم ما إن بدأت تغني، حتى فوجئت به يدغدغها، لتنطلق منها ضحكات ترج أركان قلبه، وتحاول هي كبحها كي لا يعلو صوتها على السلم. نظر إلى حيائها، وفكر أنها كبرت كثيرًا دون أن يشعر بهذا العمر الذي جرى.. كم انتظرها وتمناها.. وكم تعب لتأمين مستقبلها.. وكم يتمنى أن يكون معها إلى أن يسلمها لمن يأمنه ويحافظ عليها ويسعد عمرها!

***

منظر البحر مهيب.. ليل قاتم، وقمر مختفي، وتسير على الشاطئ حافية القدمين، تداعب المياه بأطراف أصابعها. تخلل الهواء ملابسها، يدغدغ مشاعرها ببرودته، فأدخلت كفيها في أكمامها، وهي تلف ذراعيها حولها تدفئ نفسها بنفسها. حاولت اختراق الظلام حولها، فلم تجد غير السواد والسكون.

على قدر الرهبة كانت السعادة. همت بالرحيل عن الشاطئ والعودة للشاليه، فجاء حمزة من ورائها، واحتضنها من ظهرها، لتقف على قدميه وترجع خطوة للوراء. ترك قبلة على كتفها، وتسلل بشفتيه إلى عنقها، ثم حملها كصغيرة بين يديه، وهرول بها إلى النار التي أشعلها أمام الشاليه.

وبعد أن وضعها أرضا وجلس بجوارها، اقتربت منه أكثر، لتطمئن به من هذا السكون، فضمها لقلبه أكثر، والتقط البطانية الصغيرة من على الكرسي المجاور، ووضعها عليهما. لم يتكلم معها إطلاقا.. فقط، ترك لحرارة جسده حرية التعبير عما بداخله تجاهها. أحيانا نستطيع أن نعبر عما بداخلنا بواسطة أعيننا أو أجسادنا.. شيء لا يفقه الكثير.

أغمضت عينيها بين أحضانه وفي حضرته، فأفاقت على صوت شقيقها آتيا من اتجاه البحر يستغيث، فأزاحت الغطاء، وهرولت إليه مسرعة، وألقت بنفسها في الماء لتخرج أخاها الذي لا ترى منه سوى رأسه ويديه اللتان تلوحان يمينا ويسارا. حاولت الوصول له، فلم تستطع.

تعمقت أكثر فأكثر، ثم لم تجد لأخيها أثر، ولم تعد تسمع أي صوت سوى صوت الماء وصياح حمزة ونداءاته باسمها. بدأت تكرر ما كان يفعله أخوها منذ لحظات، دون أن تفكر.. أين هو؟ أكانت مجرد تخيلات؟ وما الذي أتى بخالد هنا؟.. تصرخ وتنادي على حمزة، الذي وصل لها في ثوان وأنقذها، بعد أن كانت في عداد الموتى، بسبب اللاشيء.

قصّت ود عليه حلمها، مختصرة ما استحت منه، ثم نزلت دمعة من عينها وشت بمخاوفها، فاقترب أكثر وقال لها في حنان:

- ده حلم يا ود، ما تخافيش كده

فأجابت بنبرة مضطربة ويد مرتعشة:

– خايفة...

– أنا جنبك

قالها دون تفكير، فقط أراد أن يطمئنها، فاحمر وجهها، ولكنها مسحت دموعها بسرعة، إثر رؤيتها للنادل الذي وضع العصير وغادر، قالت بحزن:

– اخويا مالقيتوش وانت انقذتني انا بس في الحلم.. أنا خايفة على خالد.

– خالد هيبقى كويس طول مانتي كويسة.. وانا جنبك عشان تبقى كويسة.

رشف من العصير رشفة، ونظر لود في مرح ممزوج بالحنان:

– هيَفوتك نص عمرك لو مادوقتيش الفراولة دي.

ابتسمت، ثم بدأت في تناول العصير معه. شعر بهاتفه يهتز، فأخرجه ورد علي وليد الذي طلب منه القدوم، فقام مشيرًا لها يستأذنها ليتكلم

بحرية مع وليد. أراد ألا تشعر ود بالحرج، كونه متعطلًا عن عمله بسببها. قال لوليد:

- عندي مشوار، ساعتين بالظبط وها كون عندك.

كان وليد يقدِّر أن اليوم الجمعة، ولم يرد كذلك أن يشعره بأنه بالفعل يعمل لديه، فوافق دون أن يظهر أي استياء. وعاد حمزة لمجلسه وأكمل حديثه مع ود، التي صارت أهدأ كثيرًا عما أتت به من حال. في هذا اللقاء، شعر بارتباط كبير ومسؤولية أكبر تجاهها. عرف أنها من الآن أصبحت مسؤولة منه. وحين همت بالرحيل، طلب منها أن يقوم بتوصيلها، لكنها شكرته وأصرت أن تغادر منفردة بنفسها. تركها تفعل ما تحب، ولكنه تابعها من بعيد للتأكد من سلامتها، حتى دخلت إلى منزلها.

عاد إلى شارعه، فأخذ السيارة وذهب لوليد، ليعرف منه الأمر الهام الذي يريد مناقشته معه. وبهدوء طلب وليد منه الجلوس، فجلس مترقبا القلق والتوتر الواضحين على وجه وليد، الذي يحاول إخفائهما وراء هدوء صوته المصطنع. أشعل وليد سيجارة، وقد ظهر ارتعاش يده أكثر، وأخذ نفسا من سيجارته ثم استجمع الحروف وقال:

- انا عندي سرطان.

فغر حمزة فاه من الصدمة.. احمرت عيناه، وتجمعت بداخلهما دموع لا يعلم من أين أتت. لم يصدقه، أو لم يكن يريد التصديق، فوقف منفعلا، كأنه سينصرف ويتركه، غير قابل لمزاحه. تابع وليد كلامه:

- سرطان في الرئة.. والحالة متأخرة والتحاليل والأشعة اللي بعملها بقالي مدة أكدت ده.

مد حمزة يده فخطف السيجارة من يد وليد وهرسها في المطفأة.

نظر له وليد متفاجئا بجرأته، ثم جذبه بهدوء ليجلس، وقال:

- خلاص يابني مفيش أمل، الحالة صعبة فوق مما تتخيل.

لكنه لم يستطع أن يتخيل أنه سيفقد وليد هو الآخر. سيفقد من يعتبره الأخ الكبير، وإن لم يكن كذلك، فهو الصديق والإحساس بالسند وأنه ليس وحده في مجابهة الحياة. حاول أن يتكلم، بعد أن مسح عينيه كي لا تسقط منهما دموعه، فلم يجد كلامًا. وبدأ وليد يشرح له ما ينوي فعله.. قال إنه يريد أن يؤسس معه شركة استيراد وتصدير، لا يعلم في أي مجال أو مواد سوف يستورد أو يصدر، فقط سيستغل دائرة معارفه لتسهيل عمل الشركة. لم يستطع حمزة أن يقنعه بغير ذلك؛ كان يرى اليأس في ملامحه وكلامه وعينيه اللتين حاوطهما السواد.

تناول وليد سيجارة أخرى، فأشعلها، بعد أن أشار محذرًا حمزة بابتسامة منعته من المعارضة أكثر من أي كلام أو أمر.. قال، بعد أن سحب منها نفسًا أخيرا:

- استعد بقى عشان انت هتمسك كل حاجة أول ما الورق يجهز واشوف مكان.

لم تخرج منه أي كلمة .. حل الصمت لفترة، ثم قام من مجلسه، واتجه ناحية الباب يتمنى أن يخرج من المكان، ليكتشف أنه لم يكن هنا حقًا. أوقفه وليد قائلا:

- رقية ومامتها ميعرفوش الموضوع ده يا حمزة.

اقشعر جلده، فها هو وليد يضع سره عنده، دونا عن أقرب الناس إليه. هز رأسه متفهما الموقف الذي وضع فيه، وكم المسؤولية الملقاة على عاتقه، وخرج باحثًا عن النيل، رفيق أوجاعه ودوامات أفكاره.

فجأة، حضرت ود في خاطره بقوة، كانت هي من يحتاج إليها وإلى الارتماء في حضنها الآن، لتحمل معه هذا الحمل. كلاهما كأنهما خلقا لحمل الألم معًا في مواجهة مفاجآت الحياة التي لا تنتهي!

***

بعد يوم طويل، مليء بالمحاضرات وبثرثرة صديقاتها، اتصلت بخالد لتعرف مكانه، فوجدته ينتظرها في المنزل، لا يريد النزول قبل وصولها.

جمعت أشياءها واستأذنت منهن، وتركتهن يكملن أحاديثهن التي لا تنتهي، وأخذت طريقها للمنزل. وفي الطريق، اتصلت بحمزة، سألته عن أخباره.. فقط أرادت أن تطمئن عليه. قبل أن تصعد للبيت، اشترت

بعض الاحتياجات لعشائها هي وشقيقها، الذي قابلها على باب المنزل مغادرا، فاستوقفته، سائلة إياه أن يتناول معها الغداء قبل الذهاب، فأخبرها أنه أكل منذ قليل، وطلب منها نقودًا، فلم يكن معها ما يكفي، لحمل عنها ما اشترت، وصعدا معًا، وأتت له من درجها بما يكفيه. أخذ النقود منها، وهم بالخروج مسرعا، ليلحق موعد درسه، فنادته:

- خالد

التفت إليها ناظرا إليها في استعجال، فسألته مباشرة:

- هتشوف حبيبة؟

-أكيد يعني، ما هي معايا في الدرس

- طيب.. خد بالك منها

لم يفهم ما الذي جد، لتقول له ود هذا الكلام. لكن لم يكن الوقت يسمح بتطويل الحوار، فأومأ برأسه، ثم أسرع ليلتقي بحبيبة أمام مركز الدروس، ويدخلان معا، كعادتهما.

دخل خالد وحبيبة المكان، ليجداه ممتلئا عن آخره. جلسا جنبا إلى جنب، ودخل المدرس وجلس على الطاولة الكبيرة أمام التلاميذ، وأغلق كتاب علم النفس الذي يشرح لهم منه. أخذ نفسا عميقا ومسح العرق من على جبهته قبل أن يتكلم.

هاني، هو ذلك المدرس الذي يعشق الفلسفة وعلم النفس، ويتعامل بهما دوما. كان له جسد رياضي، ووجه وسيم بملامح هادئة ونظارة طبية، وشعر أسود ناعم. لكن كان منبع حب طلبته له ليس كل هذا المظهر. نظر للطلبة وقال بمرح:

– النهارده أجازة.. مافيش حصة.

هلل التلاميذ وساد الهرج والمرج، نخبط هاني بيده على الطاولة، ليعم الصمت مرة أخرى، ويعقب هو على ما حدث بهدوء:

– النهارده مافيش حصة آه، انما انا قاعد معاكم. عايز اسمعكم، واللي عنده اسئلة بره المنهج في حياته عايزلها إجابة يسأل، يمكن نلاقي لها حل سوا.

رجع خالد برأسه قليلا، تأملت حبيبة وجهة لبرهة، ثم سألته عما به، فقام من مجلسه وخرج هو وحبيبة، بعد أن استأذن من المدرس، فسمح لهما بالذهاب. أشار خالد لأول سيارة قادمة متجهة إلى المكان الذي تعود أن يأكل فيه مع حبيبه، وساعدها لتركب أولا، ثم ركب إلى جوارها ووضع رأسه على كتفها ولم يتكلم. شعرت حبيبة بما به من تيه يجتاحه، وزاد قلقها مع استمرار صمته، لكنها أمسكت لسانها عن سؤاله لحين نزولهما من السيارة. أمسكت يده، وحاولت طمأنته بضغطها في كفها، فنظر لها بطرف عين ومازال يلقي رأسه على كتفها، وابتسم لها بعين لامعة، فضغطت على يده أكثر.

وصلا إلى مكانهما، ودخلا المول متجهين إلى المكان المخصص للطعام، فأجلسها خالد في طاولة لشخصين، وذهب ليحضر لهما وجبتهما المفضلة، دون حاجة لسؤالها عما تشتهي، فقد أصبح يحفظها. لم يمر أكثر من خمس دقائق، وعاد لها حاملا على يده الطعام، وجلس دون أن ينطق بكلمة، وبدأ يتناول طعامه. ظلت تتابعه في صمت، وهو لا ينظر لها أو لعينها التي تتابعه.. يعلم أنه لو تلاقت عيناهما سيبكي و لن يستطيع المقاومة.

لكنها مدت يدها وأبعدت عنه الطعام، فنظر لها بعين تملؤها الدموع.

- مالك يا خالد.

قالتها حبيبة والخوف قد غزا قلبها وملامحها، فرجع بظهره للوراء، وهم بطمأنتها كاذبًا، فلم يستطع. شبك كفيه بقوة على الطاولة، فأمسكتها حبيبة لتطيب خاطرة، وتقول له بدفئها إنها هنا معه، فقال:

- خايف يا حبيبة.

حاول خالد أن يشرح لها خوفه من كل شيء.. خوفه من أن يخيب آمال والده فيه. أخبرها أن والده قبل أن يتوفى أخذ وعدًا منه ألا يقل مكانة في التعليم عن شقيقته. لقد ألقى على عاتقه حمل ود، وأمَّنهُ عليها ووصاه بها. إنه الآن يشعر أنه لم يستطع أن يتحمل مسئوليتها، وخائف عليها.. لم يقصر، ولكنه يشعر بذلك منذ أن وضعها في موقف صعب أثناء احتجازه في القسم، مما اضطرها للجوء لحمزة، ذلك المجهول الذي لا يعلم

عنه شيئا، ولم يستطع التحدث مع ود عنه إطلاقا. قال لها إنه خائف من مستقبله المجهول، الذي يسعى لمسك طرف خيطه الواصل لكل شيء، دون فائدة.. دائما يجد نفسه قد وصل للاشيء.

كانت تحس بمخاوفه وتفهم مشاعره جيدا، وتحاول إلقاء الحزن والخوف بعيدا عنهما. سمع كلماتها البسيطة، فابتسم في حنان، أو ربما إشفاق من نقائها، ونظر لها باهتمام وقال في جدية:

-احنا بس اللي فاهمين بعض يا حبيبة.. تقدري تقولي لي مين تاني فاهمنا؟

أخذت نفسا عميقا لتبدأ كلامها، فلم يسمح لها، وقاطعها قبل أن تبدأ..

- مافيش حد فاهمنا. كلهم شايفين اننا تافهين.. رغم اننا الجيل اللي تقريبا بيعمل كل حاجة، مش بس كده، لا!! وبيعرف يعمل كل حاجة.

عند هذا الحد، لم تعد تفهم ما يقول.. فقط تستمع، وتحاول مسايرته وتهدئته بإنصاتها، ليتكلم ويفضفض بأحمال نفسه. ربت على يدها، ثم تناول طعامه مرة أخرى أمامه ليكمل وجبته، فحاولت أن تخرجه من هذه الحالة بطريقة أخرى أكثر مرحا:

- نسيتني أقول لك يا بيبو.. مش انا جيبتلك تي شيرت الزمالك عشان الماتش اللي هنروحه سوا!

رفع حاجبه، واستنكر الأمر بتعليق ساخر:

- نعم ياختي!

ضحكا سويا من قلبيهما.. وضع يده على يدها، وأغمض عينه ممتنا لها، فسحبت يدها من تحت يده ووضعتها فوقها، فابتسم..

- أنتِ أم جميلة كمان يا حبيبة

اتسعت ابتسامتها منتشية بكلامه وبابتسامته التي ظهرت أخيرًا، وتابعا تناول طعامها بشهية أفضل كثيرًا.

***

وراء الستائر التي تحجب عن الغرفة ضوء النهار، يقف حمزة يتابع المارة القليلين في الشارع الذي يقطن فيه. مازالت عُلا تغط في نوم عميق. سمع صوت السماعة الصغيرة التي يضعها "عم أحمد" على عربة الفول تنطق بكلمات لمست روحه من الداخل.. ركز أكثر متابعا، بنفس صافية وروح هادئة.

"هي الأماني من الدنيا.. هي أملي
هي السعادة، ما أحلاها وأشهاها..
هي التي علمتني كيف أعشقها..
هي التي قد سقتني شهد ريّاها..
الشعر من وحيها در مرصع..
والفن من لحنِها، واللحن مغناها.."

لمسته الكلمات.. أعطته شحنة غريبة من الاحتياج. وكأن المغني يتكلم عنها، يصفها باختصار في أسمى معاني الجمال والحب.

أخرج هاتفه، ليجد الساعة لم تتعد السابعة؛ ففتح الماسنجر ليرسل لها "صباح الخير". ردت على الفور.. "صباح النور، ايه اللي مصحيك بدري". لم يكتب رداً.. جاء باسمها من قائمة الاتصال، واتصل.

خرج من المنزل ليحضر طبق الفول. كانت الأغنية لا تزال تترنم عبر سماعة "عم احمد"

"نور من الله سواها لنا بشراً..

كساها حُسناً وجملها وحلاها.."

قال لها:

- سامعة الاغنية دي.

- آه.. عارفاها طبعا

وقف على باب العمارة ينظر لعربة الفول ويقشعر مع الأبيات..
"فإن عبدتها لا إشراك بالله..

لأنني فى هواها أعبد الله"

- عارفاها منين، أنا أول مرة أسمعها!

ضحكت من عدم معرفته بها. قالت:

- دي أغنية قديمة قوي غناها لطفي بوشناق، بس انا ماعرفتهاش غير لما غناها من فترة بسيطة عبد الرحمن محمد.

مازال صوت ضحكتها في أذنه لم يغب، رغم أنها تابعت كلامها دون توقف. سألها:

- مين دول؟!

ضحكت مرة أخرى. فرجع برأسه للوراء من فرط اللذة عند سماعه ضحكتها.. استطرد:

- مش مهم بقى.. المهم.

فقاطعته:

- من ساعة ما عرفتك وانت بتقول المهم، ومابتقولش حاجة مهمة بعدها.

ابتسم لملاحظاتها وهم بالرد مازحًا؛ ولكن قبل أن يتكلم لمح "عم أحمد" يسقط أرضا، والناس تلتف حوله في ثوان.. أغلق الهاتف دون كلمة منطلقا ناحيته..

أهكذا بكل هذا الهدوء، ودون شكوى أو توقف عن نشاطه، أو سكون مقلق حتى.. لم يحمل أحد هم مرضه أو مشاكله، بل لم يسمع أحد أن لديه من ذلك شيئا.. فقط في صباح عادي جدا، وبجوار عربته، التي هي علامة حياة في هذا الشارع، يسكت نبضه وتعود الروح لخالقها في سلاسة، دون حتى لحظات احتضار!.

بكى حمزة كما لم يبك من قبل.. خرجت شهقاته من داخل قلبه وروحه وهو يرى هذا الوجه الطيب، الذي لن يملأ صباحاته بعد الآن.

صاح أحد العجائز بهم أن يفعلوا شيئا جيدًا بدل من الزحام بلا فائدة، كعادة (شباب اليومين دول). لم يغضب الشباب، فليس الوقت مناسبا لشيء إلا إكرام "عم أحمد". حملوه معا إلى شقة حمزة، وحمل حمزة طفلته وهو يحمد الله أنها لا تزال نائمة، لم تشعر بشيء، وصعد بها لهناء، وأخبرها بما كان.

أثناء هبوطه السلم، أرسل رسالة لود معتذرا عن إغلاق الاتصال فجأة، شارحا لها ما حدث باختصار، وأخبرها أنه سينشغل في جنازة ودفن هذا الرجل الطيب. وصلتها رسالته، وكانت بالفعل جزعة لإغلاقه الخط بهذه الطريقة، خاصة أنها عاودت الاتصال به ولم يرد. رغم أن الموقف غير ملهم بالابتسام، إلا أنها ابتسمت وهي تفكر فيما يحوز حمزة من رجولة وشهامة وحب لكل من وما حوله.. إنه يتكلم عن بائع الفول كأنه أب أو خال. خال!.. بعض الأخوال والأعمام لا يملكون ما تملكه يا حمزة من الحب لغريب!

لم تتخيل كيف أنه سيغيب عنها، فقد صار موجودًا دائما رغم غيابه. لا تعرفه من مدة كبيرة، ولكن قلبها انتظره منذ زمن بعيد.

أصبحت تعترف لنفسها أنها تحب وجوده، النظر إليه، تنتظر لمسة كفه حين يصافحها، تعشق رائحته . نظرت إلى ساعة الهاتف، وبدأت

تعد الدقائق ليمر اليوم بسرعة وينتهي من مهمته الإنسانية الجديدة، لتعود لحضنه مرة أخرى، رغم أنها لم تجربه إطلاقا.

أخذ أحد الشباب هاتف "عم أحمد"، وقلب في قائمته، فوجد بعض أسماء أهل الشارع من الباعة، ثم رقمًا مكتوب أمامه " الجماعة "، فعرف أنه رقم زوجته، فهم بالاتصال بها، ولكنه عاد فنظر للعجوز الذي نهرهم منذ قليل حائرًا. وجدت دمعة طريقها لعين العجوز، تشهد بأن تماسكه ليس إلا حفظًا لهيبة السن، وأشار له وهو يقول بصوت مختنق:

- ما تقولهاش حاجة وهي لوحدها، السن ما بيتحملش، استنوا لما تروحوا لها بيه

أومأ الفتى موافقا، واتصل بالرقم، وأخذ منها العنوان مفصلاً، وأخبرها أن..

- هو جي معاه حبايبه من الشارع يا حاجة عشان بس تفضوا سكة الله يكرمك

لم يخبرها بما حدث.. فقط: قادم ومعه من يحبونه. ركب حمزة وجسد "عم أحمد" البارد إلى جواره في الكرسي الخلفي، في تاكسي يملكه أحد الجيران زبائن عربة الفول. كان رأسه مستندا إلى كتف حمزة، ويد حمزة تربت عليه كأنه يشعر به ويحتاج تربيته. حتى وصل الركب إلى بيت "عم أحمد"، فوجدوا زوجته وشاب يشبهه كثيرا معها.

تأمل حمزة الشاب.. لم يكن يشبه أباه في الملامح، إلا أن روحه تجاوزت الملامح لتجعل الابن يشبه الأب تماما. هرول الابن إلى أبيه..

كان جليًا للعين أنه فارق الحياة، لكن قلبه أبى أن يصدق، فصرخ بلا كلام وهو يمرغ رأسه في الصدر البارد. وكأن صرخات والدته كان تنتظر تأكيد ابنها، فانطلقت معه لتشق برد ذلك الصباح بنيران الألم.

اتصل وليد بحمزة كثيرًا خلال هذين اليومين، لكنه كان قد نسي هاتفه في شقته وهو منشغل مع شباب الشارع ينقلون "عم أحمد" إلى بيته.

في النهاية، ذهب لمنزله قلقًا، متمنيًا أن تنتهي هواجسه إلى خير يكذّب وساوس القلق التي زادتها حالته وإحباطه. سمعت هناء جرس شقة حمزة يرن طويلا، فنزلت لترى ماذا هناك، وعندما عرفها وليد بنفسه، حكت له الأمر باختصار، واعتذرت له نيابة عن حمزة عن الغياب وعدم الرد. وكان وليد مقدرًا للموقف؛ فمن ذا الذي يحترم الموت أكثر ممن ينتظره!

حمزة ظل مع أسرة "عم أحمد"، لم يتركها، فوقف على غسله ودفنه، ثم وقف في عزائه إلى جوار ابنه، وبات معه ليلتين، استقر فيهما الحزن هادئا في صدر أهل الدار. وفي اليوم الثالث، اصطحب حمزة عصام، ابن "عم أحمد"، الأصم الأبكم، الذي جعل احترام "عم أحمد" يتضاعف في نفوس الجميع، مبهورين بما ربى وجاهد مع ابنه ليصل به – رغم إعاقته – إلى إدراك عالمه، وحسن التعامل مع مجتمعه. ولأول مرة، رأى الابن

الشركة الذي يعمل فيها والده.. عربة الفول التي أنفق عليه هو ووالدته من رزقها. نظر إلى حمزة، ولم يستطع أن يشرح له ما بداخله.. وما بداخله كان مزيجًا فريدًا من المفاجأة، واللوم، والحب،.. والقرار!

وقف وراء العربة.. فتح "قدرة" الفول، فوجد ما بها قد تعفن، فحملها، ونظر إلى حمزة متسائلا، فابتسم له، وأشار إلى حجرة البدروم التي كان "عم أحمد" يستأجرها ويجهز فيها الفول، ويخزن فيها أجولة الفول، وبراميل المخلل. اتجه عصام للبدروم، وشاهده العجوز، نفسه الذي يهوى مشاكسة الشباب ولومهم، وصاحب العمارة التي بها الحجرة، فنادى حمزة وناوله مفتاح الحجرة الاحتياطي، ثم انفجر بالنهنهة والترحم على "عم أحمد".

لم يكن عصام يعلم أي شيَء عن مهنة والده، لكنه رأى حب الناس هنا يخبره كيف كان أبوه رجل أعمال ناجحا بالمعنى الحقيقي للنجاح.

الأمر لن يكون عسيرًا جدا، فعليه فقط أن يعد أطباق الفول كما كان يعدها له والده في العشاء، هذا الطبق الذي لم يأكل مثله من أي مكان. قرر أن عربة عم أحمد ستظل علامة باقية في هذا الشارع، ولن تنقطع سيرة أبيه بالخير فوق الأرض، حتى وإن أصبح جسده تحتها.

***

عشرة أيام، يصطحب وليد حمزة، ويطوفان بالشوارع ومكاتب السماسرة، حتى عثرا على شقة مناسبة، في مكان قريب من سكن وليد، لتكون مقراً للشركة. كان شرط أن تكون قريبة منه هو الأصعب في البحث، لكن ظروفه الصحية حتمت هذ القرب، ليتيسر له المشوار قدر الإمكان. استغل وليد اتساع دائرة معارفه، ومن سبق له خدمتهم، لينجز الإجراءات اللازمة لإشهار الشركة، وخدمه كثيرون بكل ما استطاعوا، تقديراً لشخصيته الطيبة الودودة، أو أحياناً للتخلص من ثقل فضله السابق على نفوسهم، فأرادوا موازنة الكفتين برد الفضل. كان حمزة في كل ذلك هو ذراع وليد الأيمن، وعرفه وليد على جميع معارفه، وأخبرهم أنه شريكه ورجله الأول في مشروعه؛ ومن جهته، حاول حمزة تعلم كل شيء بسرعة، وهو أنه سيحمل الأمر كاملاً على كتفيه وحده؛ شاء أم أبى.

وخلال كل هذا، كان دائما برفقة ود، يختطف جملة قصيرة يكتبها لها عبر الماسنجر، أو لو أتيحت فرصة يتصل بها على الهاتف ليطمئن عليها وعلى أحوالها ومذاكرتها سريعا، خاصة وهو يعلم أنها قاربت على الامتحانات .

رغم انشغاله التام، إلا أنهما أصبحا قريبين أكثر مما توقعا.. أو أكثر مما تمنَّيا! بدأ يأخذ رأيها فيما يدور.. في كل كبيرة وصغيرة. أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها، وهي الأخرى لم تعد تتخيل ألا يكونا معاً. هي أصبحت الطيف الملازم له في كل مكان. وهو ملأ خيالها أينما كانت. كلاهما

بات يشكر إهمال محل الهدايا، ويشكر أكثر تلك الرسالة التي أرسلتها لنفسها في ذلك اليوم، والتي لولاها لما علم بحكايتها وأن هنا توجد مجنونة تشبهه كثيرا.

بدأ العمل في الشركة، وتم تحويل المبالغ المطلوبة لاستيراد أول صفقة لها، وبدأ قلق انتظار موعد استلام الشحنات. اتصل وليد على حمزة ليسأله عن آخر الأخبار:

- ايه الجديد عندك؟

أجابه وهو يتفحص الحاسوب:

- كل حاجة تمام، والمفروض الحاجة هتوصل ميناء بورسعيد بكرة.

سعل وليد، ثم أخذ نفسا طويلا وقال:

- يبقى بكرة من بدري نطلع على بورسعيد.

فهم من وليد كل ما يريده، وكتب في ملاحظاته أسماء معارف وليد في الجمرك وأرقام هواتفهم. لم يكن يقلق بشأن طفلته، فقد شرح لهناء ظروف عمله الجديد، وفرحت له كثيرًا أنه وجد عملاً يليق بمؤهله الجامعي، فقد كان عمله كسائق يشعرها بالإحباط في أحوال البلد. علا لا تضايقها، بل بالعكس، فهي تشارك ابنتها في اللعب، فتشغلها عنها بعض الوقت، فتستطيع قضاء ما ورائها من أعمال المنزل.

وقبل أن يغادر ، اتصل بود ليسمع صوتها ويخبرها عن سفره، ويتفقان على متابعة الطريق معها كل ساعة، لأنها ستكون في محاضرة، فلن تستطيع أن تظل معه طوال الطريق. أكدت عليه أن يطمئنها، حتى لو لم تستطع الرد، فطمأنها أنه سيفعل، لأنه هو نفسه يحتاج إلى ذلك.

يشعر أنه كان يحتاج هذا الاهتمام الكبير، وقد حصل عليه من فتاة لم ير لها مثيلا من قبل. لقد أصبح كل شيء يحدث له لابد وأن تعرفه؛ وإن كان بيده، لأخذ منها تصريحًا ليفعل أي شيء يريد أن يفعله.

في الجهة الأخرى، انطلق هو ووليد إلى بورسعيد معا.

بدا حمزة كعادته قلقا على وليد، بينما الأخير يطمئنه قائلا:

- الأعمار بيد الله.. وطالما ربنا نبهني انها قربت قوي كده يبقى لازم اعمل حاجة لرقية.

حاول أن يداري قلقه، وبدأ يتكلم مع وليد في كل شيء يخص العمل، ولا يلج إلى منطقة المرض والقلق. كانا متأخرين على موعدهما، فقد مر وليد على المستشفى قبل التوجه للسفر، لذا فقد كان حمزة يقود بسرعة ١٦٠ كم/ساعة. ربما كان من الطبيعي أن ينبهه وليد؛ ولكنه لم يفعل. فتح الزجاج ليستنشق هواء بورسعيد المحمل برائحة المياه المالحة التي يعشقها، وزاغت عينه على منظر الحاويات وهي تقتحم المياه بجواره، فنظر في ساعته، ثم سأل حمزة إن كان يريد أن يشاهد عن قرب، سؤاله جاء حانيا كأنه لابنه، فهز حمزة رأسه كطفل صغير حانت له فرصة

اللعب، مستمتعا بالحالة الجميلة مع هذا الرجل المحبب لقلبه. هدّأ سرعته، حتى أوقف السيارة، وترجلا منها ووقفا على حافة الطريق يحاولان تمييز لون المياه. فقد دقائق قليلة، أخذ حمزة نفسيا عميقا، وعاد بوليد مرة أخرى للسيارة ليكملا الطريق.

وصلا قبل موعدهما، وأخذ كل منهم يتم نصيبه من المهام التي قسّماها بخطة عمل واضحة، قبل بدء الرحلة. انتهى وليد من توقيع الأوراق ودفع الالتزامات المادية، وانتهى حمزة من مراقبة العمال وهم يفرغون بضاعتهم في سيارات النقل الكبيرة لتتجه بها للقاهرة، واستغرق الأمر يومين كاملين، وحمزة تارك وراءه طفلتيه؛ الصغيرة علا، والكبيرة التي يشعر أنها مسؤولة منه، ود.

فور عودتهما، وبمجرد أن نزل وليد من السيارة عند بيته، اتصل بود ليتفق معها على اللقاء، في مكان اختاره بعناية، ثم اتصل بهناء لتجهز طفلته وتهيئها، وأوصاها باختيار أكثر أثوابها أناقة، ليخرج بها بعد هذا الغياب، الذي لا تعتاده الصغيرة. كان قد قرر أن يأخذها معه في هذا اللقاء.

***

حاولت استيعاب انصياعها لكلامه دون جدال، فلم يسعها إلا أن ابتسمت مستمتعة بتنفيذ طلبه دون تفكير كثير، واتصلت بأخيها وهي ترتدي ملابسها، تخبره أنها ستخرج الآن ولن تتأخر. لم يسألها عن وجهتها، فحمدت الله كثيرا، فقط قال لها بهدوء قبل أن يغلق الخط:

- خدي بالك من نفسك بالله عليكي.

اختلج صدرها ضيقا، وأخذت نفسا بصعوبة، وقد حاكت في صدرها نبرة صوت أخيها. وقفت أمام المرآة تحدث نفسها، تخاطب روحها من الداخل، تقنع نفسها أنها تفعل الصواب، فهذا الذي تمنته وانتظرته من زمن ليس بقريب، فلماذا تلوم نفسها على أخذ بعض حقها من الحياة، وهي لم تقصر يوما في واجباتها، أليست الحياة حقوق مقابل كل هذه الواجبات؟!..

انتهت من ارتداء ملابسها، فألقت نظرة أخيرة في المرآة، وابتسمت لنفسها، ثم نزلت مسرعة كي لا تتأخر على موعدها. ركبت أول سيارة أجرة أمامها، ورن هاتفها فردت بلهفة، لتخبره أنها في الطريق إليه.. كانت دقات قلبها تتسارع كلما اقترب بها التاكسي من مكان اللقاء، ترسم مخيلتها أحلامًا تحمل أمانيها فيما سيدور بينهما. قاطع أحلامها تدخل عقلها بسؤال منطقي:

- هو اللي بيحصل ده منطقي؟ أنا حتى ماعرفش عنه أي حاجة غير اللي هو عايز يعرفهولي بس.

أخذت نفسا عميقا، وبدأت ترتب أفكارها، حتى وصلت لقرار بأن تعرف عنه كل شيء. لا يكفيها بأي حال أنها في حاضره، بل تريد أن تشاركه كل ما مر به من عمر وذكريات.. والأهم، أنها تريد معرفة مكانها عنده، وفي أي خانة يصنفها.

الانتظار للوقت المناسب من وجهة نظرك ليس دائماً مناسباً
عجل بأوان كل ما هو خير.. قبل فوات الأوان!

- ٤ -

أشعة الشمس قاربت على الاختفاء، فأصبح المناخ أكثر رطوبة، وخالد مع زملائه أمام المركز الذي يأخذون فيه دروسهم الخصوصية. دار الكلام بينهم عن المناهج والامتحانات التي على الأبواب، وقد بدأ الجميع يقلقون من الامتحانات. قطع حديثهم صوت صديقهم القادم من الجهة الأخرى من الطريق قائلا:

- بقالي ٥ ساعات بلف على تذاكر الماتش ومش لاقيها.. شكلنا هنشوفه في أي كافيه بقى كلنا سوا.

"الحمد لله" قالها خالد بصوت منخفض، فظهرت حبيبة من العدم عاقدة حاجبها وتقول:

- يعني ايه، مش هنتفرج على الماتش؟

رد عليها صديقهم في يأس:

- والله بقالي ٣ ايام بلف على التذاكر.. والنهارده لقيت عليها في السوق السودا برضه مافيش.. الماتش هيبقى حلو قوي في الكافيه برضه خصوصا لو كلنا سوا هنعمل استاد لروحنا.. تخيلوا الحماس عالقهوة وكله بقى زملكاوي وللا أهلاوي بيشجع الزمالك في بطولة أفريقيا علشان لو كسب هنقابل الأهلي ويبقى النهائي مصري خالص

قهقه خالد عاليا ثم قال لحبيبة:

- وساعتها بقى تيجوا في ملعبي بقى.

اتفق الجميع أن يلتقوا في الكافيه القريب من مركز الدروس قبل موعد المباراة بساعة، ثم ترك خالد حبيبة تغادر مع صديقاتها. قبل أن يذهب هو أيضا مع أصحابه، عادت مرة أخرى تناديه، ثم أخرجت "تي شيرت" أبيض اللون، أعطته لخالد الذي اتسعت مقلتاه قائلا:

- انتي بتهرجي!

- مش عاجبك طلقني.

قالتها حبيبة ضاحكة وهي تغادر برفقة صديقاتها، فضحك خالد وتابعها حتى انحرفن في شارع جانبي، ومشى مع وائل؛ صديقهم الذي اهتم بأمر التذاكر. وائل شخصيته لا تختلف عن خالد كثيرا.. سأله باهتمام عن شعوره تجاه حبيبة، فرد خالد بنبرة مرحة وهو يمسك تي شيرت الزمالك:

- دي هتخليني اجي اشجع الزمالك النهارده ودي لوحدها معجزة...

ضحك الصديقان، ومضيا يثرثران، حتى وصلا لمفترق الطريق، فسأله وائل عما سيفعل حتى موعد المباراة:

- ولا حاجة هاروح أريح في البيت شوية.. وانزل على ميعاد الماتش.

- طب ما تيجي تقعد معايا، مافيش حد في البيت..

امي بتزور جدتي عشان تعبانة شوية وابويا في الشغل لغاية بالليل واخواتي كل واحد فيهم بيرجع بعد بابا كمان.

حك خالد مؤخرة رأسه وأخذ يفكر قليلا، ثم أمسك برسغ صديقه وقال:

- يللا فعلا من زمان ما قطعتكش في البلايستيشن.

- اتكلم على قدك.

قالها وائل وهو يسخر من صديقه، بينما أخرج خالد هاتفه من جيبه واتصل بشقيقته يخبرها بخططه، لم تعترض ود وأوصته أن يهتم بنفسه وبمذاكرته أكثر، فطمأنها أنه يرتب أموره جيدًا، وأنهى المكالمة ثم انطلق مع وائل إلى منزله.

في صالة بيت وائل، خلع وائل قميصه وجلس على الأريكة ببنطاله الأسود، بصدر عارٍ، مما شجع خالد نخلع قميصه هو الآخر، فقد كانت حرارة الجو لا تطاق.

- ما تقوم تجيب لنا مية

- أنا اللي اقوم!.. مش بيتك ده برضه وللا أنا اللي مش واخد بالي!.. قوم يا عم بطل بلطجة الحقنا بشوية مية

دخل وائل المطبخ ليحضر المياه الباردة من الثلاجة، بينما فتح خالد اللاب توب وقام بتشغيله وتوصيل كل شيء في مكانه، لتبدأ المعركة. جاءه صوت وائل من المطبخ سائلا إياه:

- تشرب حاجة؟

- أي حاجة مش منكر.. انا لما باجي هنا بحس اني جاي قريش.

انتهى خالد من إعداد المكان لمباراة البلايستيشن، وأحضر وائل عبوتي عصير وكوبين، وجلسا سويا على أرضية الصالة، أمام اللاب توب على الطاولة، بعد أن أزاحا عنها التلفاز الصغير القديم الذي لا يستخدمه أحد سوى والدة وائل. لم يكن خالد ليهتم بتفاصيل المكان كثيرا، وإنما ما يعنيه هو روح المكان الذي يرتاح فيه عن غيره.

وبدأت اللعبة.. لو رآهما أحد من الأزمنة السابقة، ما صدق أن كل هذا الانفعال والجدية على وجهيهما فقط لمجرد اللعب. كان كل منهما يستعرض مهاراته في اللعب، بعد غياب عن المنافسة منذ فترة.. علا صوتهما مع اللعب تدريجيا.. وأحرز خالد هدفا في صديقه، فقام يرقص بتلك الحركات التي يحبها الشباب ويقلدون أبطالهم المفضلين بها، لكن وائل نظر له بضيق واضح وصاح به:

- اقعد بقى وبطل الشويتين دول..

مش كل ما تجيب جون هتنطلي في السقف.

إلى حد ما أقلق رد فعل وائل نفس خالد، وأحس أنه غير طبيعي. وقبل أن يجلس، رن هاتف صديقه، فقام ليرد. لم يكمل وائل دقيقتين، ثم عاد مرة أخرى لخالد قائلا:

- انت ابن محظوظة.

ضحك خالد ثم تابع:

- هو انا كل ما اجيب فيك جون هتقول لي حظ.

جلس وائل هازًا رأسه غير مبالٍ بالمباراة، وقال:

- عارف مين اللي كان بيكلمني؟

رفع خالد حاجبه وهز كتفه بمعنى أن لا، وقد ارتسم الفضول على وجهه، فتابع وائل:

- نورهان وصاحبتها.. وجايين على هنا.

لم يعقب خالد، بل قام من جلسته، وأخذ قميصه يرتديه..

- انت بتعمل ايه يا منحوس؟!

رد خالد بهدوء محاولا السيطرة على ضيقه لاتفاق وائل معهما دون أخذ رأيه:

- انا هامشي.. انت اقعد استنى صاحباتك وعيش.. انا ماليش في الجو ده إطلاقا وانت عارف، والمفروض انت اللي

قايل لي اجي وعامل حسابك ان القعدة معايا مش معاهم
حاول وائل ترضية خالد وإقناعه أن ينتظر حتى يراهما ربما يغير رأيه. أخبره أنه طلب منها أن تحضر صديقتها برفقتها لأجله خصيصا، وأن باستطاعتهما قضاء وقت لطيف وأن عليه أن يجرب قبل أن يرفض وأن يكف عن رفض ما لم يجربه. قاطعه خالد:

- مين قال لك اني همشي بس عشان اللي هيحصل ده حرام؟ انت عارف اني مش ماشي بمبدأ الحرام والحلال حسب الأوامر وبس، مع انك لو فكرت فيها هتلاقي تلقائيا كل حاجة غلط بتكون حرام.. اللي هيحصل ده غلط يا وائل وهيترد للغلطان بشكل أو بآخر، وانا ياعم بخاف على ود وحبيبة.

حاول وائل أن يدافع عن وجهة نظره.. هاتان القادمتان ستجيئان بإرادتهما، وهو ليس شيطانا يحمل إثم إغوائهما كي يرد له في أحد. لكن كان منطقه غير مقنع من وجهة نظر خالد، وقبل أن يغادر وضع يده على كتف صديقه يحذره للمرة الأخيرة:

- خد بالك من نفسك ومن أهل بيتك يا وائل.. أصلها كما تدين تدان يا صاحبي.

***

- وحشتيني يا بنت اللذينه

خرجت من حمزة وهو يهرول صاعدا السلم ناحية علا، التي جرت لتنزل له بدورها، فحملها وقبلها، ثم دار بها دورتين، وأخذ يضمها يستقي راحته بين ذراعيها الصغيرين. ضحكت بصوت عالٍ لشدة ضمته، ورأى في عينيها فرحتها به، والتي تجعله يحمد ربه على نعمةً حنانها الطفولي التي وهبها الله له لتجمِّل دنياه.. قال لها بنبرة فرحة:

- هخرجك حتة خروجة بقى.

وضعت يدها الصغيرة على شفتيه ليسكت، فقبَّلها، فقالت:

- هتوديني فين؟

لم يجبها.. أشار لهناء التي تراقبهما من مكانها عند باب شقتها، مطلقا من كلمات الشكر ما استطاع، وهبطا هو وعلا مسرعين يتقافزان على درجات السلم في مرح، حتى وصلا إلى السيارة ففتح لها بابها وأشار لها منحنيا ..

- تفضلي يا أميرتي

ضحكتِ علا وهي ترفع فستانها قليلا وتمشي مقلدة فيلم سندريلا، وركبت في السيارة، وفي أقل من ربع ساعة وصلا أمام الكافيه التي اتفق مع ود أن تقابله فيها. أخذ يد طفلته، ودخل المكان يبحث عنها بعينيه، حتى رآها، فتوجه ناحيتها بعين مبتسمة تتأملها، فابتسمت بدورها، وشعرت أن من الجيد أن تكون أنثى في حضرته.

كان وجودها يبشره بكل ما هو جميل، ويملأ نفسه بالحياة، لكنه حين وصل إليها سحب أولًا كرسيا لطفلته، وأجلسها كالأميرات، حريصًا على جعلها لا تغار من حضور ود، ولا تشعر أن وجودها انتقص اهتمامه الذي تنتظره منذ سافر. جلس على الكرسي المقابل لود، والمجاور لعلا، فهكذا قسمة العدل، أنا بجوارك يا صغيرتي، وفي نفس الوقت أملك حرية ألا تفارق عيني عيون حبيبتي.

ليست إلا لحظات من سلام وسؤال عن الحال، ثم قام ليطلب الطعام الذي حجزه مسبقا بالتليفون. لم يتأخر حمزة، وفي أقل من خمس دقائق جاء ومن وراءه النادل بالسمك والأرز، وبعد أن انتهى من وضعة على الطاولة، قال حمزة بنبرة مرحة:

- لما رُحت بورسعيد وشميت ريحته من المحلات.. كان نفسي اخش اكل سمك بس ماهانش عليا آكل من غيركم.. وانتم أهم ٢ في حياتي دلوقتي.

اتسعت عينا ود مع وقع الكلمات على قلبها، والتقت نظرتها مع حمزة، الذي ابتسم لها بعين لامعة تخبئ وراءها الكثير، ولكن كلاهما لم يضف كلمة، حتى قطعت علا الصمت الجميل بسؤالها الطفولي:

- ومين فينا أهم بقى.

فأجاب بدون تردد: انتي طبعا.

ضحكت، ونظر هو إلى ود فوجدها تضحك أيضا راضية متفهمة، فانتعش قلبه وأخذ يهتم بهما معا ويضع لكلتيهما السمك في طبقها. حتى انتهوا من تناول طعامهم مستمتعين، وقام كل منهم ليغسل يده، فأصرت علا أن تأتي معه هو إلى دورة المياه الرجالي ولا تذهب مع ود. حين عادوا إلى مكانهم، سألهما حمزة إن كانت أيهما تريد شيئاً آخر، فهزتا رأسيهما نافيتين، فقال :

- يلا بينا.

جذبته ود من مرفقه، ليجلس مرة أخرى وسألته:

- على فين؟. انا عايزة افهم في ايه؟

استغرب حمزة رد فعلها، فصمت لبرهة ليفهم ما يدور في رأسها، فسبقته علا إلى الرد:

- رايحين ناكل ايس كريم ونلعب شوية في مكان الألعاب.

ابتسم رغما عنه ثم قال:

- ده آخر مكان هنروحه.. عشان نتكلم براحتنا وعلا بتلعب.

قامت ود من مكانها، وسارت بجانب حمزة وعلا وكأنهم أسرة صغيرة تشع الحب إلى كل ما حولها. ركبوا السيارة لدقائق قليلة، حتى وصلوا إلى مكان قريب من الكافيه، يوجد به ساحة صغيرة للاطفال تتوسط بعض محلات الحلوى والأيس كريم. كانت ود عند حسن

ظنه، فلم يكن اعتراضها على مفاجآته كئيبا، وكان تقبلها لعلا وحرصه على إرضائها جميلا، فقابل روحها الجميلة بمكافأة انتظرتها هي منذ فترة.

ابتاع لهم الأيس كريم، وذهبت علا مع الصغار تمارس شغائرها في اللعب، وجلس حمزة وود على الأرض الخضراء يتابعان علا من بعيد. التفت نحوها فوجدها صامتة ولا تتناول الأيس كريم، فقال لها:

- المانجه طعمه تحفة.

لم تستطع ود مسايرته أكثر دون مشاركة لما في رأسه، فسألته في جدية:

- فيه ايه وانت بتعمل كده ليه؟.. انا عايزة افهم!

- قصدك عايزة اعرف انت مين.. صح؟

قالها ثم التهم قطعة أخرى من الأيس كريم، فهزت رأسها إيجابا وهي تراقب تصرفه وقد بدأت تغضب، وقد لمح هذا على وجهها، فتحول إلى الجدية هو الآخر، وترك الأيس كريم وقال:

- قبل أي حاجة، عايز اعرف.. انتي كنتي مستنياني زي مانا كنت مستنيكي ولا لأ؟

- بمعنى!!

قالتها ود متعجبة لسؤاله، وتنظر له بغيظ لإحراجها بهذا الشكل، فهي وإن كانت تعلم ما يقصد، فلن تمنحه الإجابة التي يريد. ضحك لتفهمه لكل ذلك وقال:

- طيب. تحبي ابدأ منين، من موضوع عُلا، ولا شغلي القديم ولا الجديد، ولا البيت اللي عايش فيه لوحدي.. ولا انتي؟

ساد الصمت بينهما.. كانت تفكر في كلامه، وفي إجابتها عليه كيف تكون.. تريد أن تعرف كل شيء.. كل ما ذكره يهمها أن تعرف تفاصيله.

في النهاية، تركت كل الأفكار والأشياء والموجودات جانبا، وقالت:

- ابدأ منك.

ابتسم.. أن تريد أن يكون هو البداية فذلك أجمل ما يتمنى.

وقبل أن يبدأ، رن هاتف ود، فأخرجته من حقيبتها لتجيب.

***

أمام الكافيه، قام العاملون بإخراج شاشة كبيرة إلى الشارع، ورص الكراسي بكل المساحة الواسعة المحصورة بين البنايات بجوار مركز الدروس. كان الاستعداد لمباراة الزمالك في البطولة الإفريقية يفرض نفسه على روح المكان، والعاملين، والزبائن الذين توافدوا لحجز الأماكن، وحتى المارة وأصحاب المحلات المحيطة بالمكان؛ الكل يتابع الحركة والتنظيم

وبدء تشغيل الشاشة. وصل خالد مبكرًا عن أصدقائه، بعد أن ترك وائل دون تكملة اللعبة، ولم يعد الوقت الباقي يحتمل أن يعود للبيت ثم يجئ للكافيه حسب موعده. قام بحجز كراسي بعدد أصدقائه، ووضع التي شيرت على كتفه، وجلس منتظرا الجميع. ما هي إلا دقيقة، ووصلته رسالة من حبيبة:

"انا جاية في الطريق. عايزة اجي الاقيك لابس التي شيرت". ضحك عاليا، ثم قام متجها لدورة المياه، وعاد منها لمكانه مرتديا تي شيرت الزمالك، وفي أقل من خمس دقائق حضر الجميع، وبدأت الجماهير في ملء الكراسي، إلى أن ازدحم المكان عن آخره.

جلست حبيبة بجانب خالد.. قالت وهي تغمز له بعينها:

- التي شيرت هيا كل منك حتة..

ضحك..

- بس يا حبيبة.. انا حاسس اني مش مظبوط بالتي شيرت ده.. يخربيت الحب وسنينه.

ضحكت حبيبة على تعليقه، ثم قالت:

- ربنا يخليك ليا يا حبيبي.

غرق الجميع في متابعة المباراة، وعلت الهتافات المؤازرة للزمالك.. وقبل انتهاء الشوط الأول، أحرز الفريق الأفريقي هدفًا، فسكت الجميع

مصدومين. نظر خالد لحبيبة وكاد يقول لها "مش قلت لك"، لكنه فضل الصمت احتراما لما رآه على وجهها من أسى وقلق، وأي مزحة منه الآن قد تثير غضبها. تعود دائما على مزاجها السيء في مثل هذه الحالات، والتي تتكرر كثيرا بسبب تشجيعها ووفائها لفريقها المفضل، الذي لم يوفق منذ فترة طالت. هو في الحقيقة لا يفهم لماذا يشجع البعض فريقا غير موفق لكل هذه الفترة.

بدأ الشوط الثاني في أجواء مشحونة، وبدأت جماهير الزمالك في تشجيع فريقها بحماس، وانطلق الدعاء من الأفواه مع كل اقتراب من المرمى. وما هي إلا دقائق قليلة من الشوط، إلا وأحرز الزمالك هدف التعادل، فقفز الجميع من أماكنهم ملوحين بأعلامهم، هاتفين بالصيحات وبالتكبير، والمشجعون يلفون حول أنفسهم ويحتضنون من يجدونه بجوارهم، حتى وإن لم يعرفوه من قبل. عاد الهدوء مع استمرار المباراة، وجلس الناس يتابعون باقي المباراة بتركيز، بينما شرد خالد يتخيل لو أفلت انفعال حبيبة سيطرتها على نفسها واحتضنته وسط الزحام.. استمتع بالمشهد الذي أخذه لدقائق، قبل أن ينتبه من شروده على صيحات الجماهير مهللين لإحراز الزمالك هدفًا ثانيا، وقد أخذ أصدقاءه يرقصون في الشارع ومع كل منهم علم يلوح به يمينا ويسارا، فقام معهم يشاركهم فرحتهم بمرح حقيقي، وهو يلقي نظرته محذرة لحبيبة من التمادي، وهي تضحك ولا تغادر كرسيها.

انتهت المباراة، وانطلق الأصدقاء بالأعلام إلى كوبري قصر النيل، يحتفلون بانتصار الزمالك في هذه المنافسة الشرسة. لمح خالد وائل يسير مع المجموعة متباعدًا قليلا مفضلا أن يتجنبه، فتغاضى عما حدث منه في المنزل قبل ساعات، وذهب إليه يضمه ويبارك له فوز الزمالك، فلكزه وائل في كتفه ثم عانقه بحب حقيقي.

قالت حبيبة لخالد بحماس وهي تقف بجانبه بمحاذاة السور:

- مش قلت لك هنكسب.

- ربنا يستر من الماتش الجاي.

قالها وهو يضحك، فقطعت ضحكته بنظرة جادة:

- هنكسب برضه.

قاطعهما وائل ينهي النقاش ويسألهما:

- انا هجيب حمص الشام.. أجيبلكم معايا؟

هزت حبيبة رأسها ناظرة لخالد، فقال خالد لصديقه:

- تمام، هات اتنين معاك.

وقبل أن يتجه بنظره مرة أخرى لحبيبة، نادى على وائل مستدركا:

- استنى هروح اجيب انا طيب.

لم يلتفت إليه، بل قال باسما وهو يشيح بذراعه:

- ياعم ركز في اللي انت فيه.

تابعه مبتسما محدثًا نفسه أنه - على كل ما يفعل - من أفضل وأطيب أصدقائه قلبًا. في اللحظة التالية، وبدون ذرة توقع، كان يرى أمام عينيه صديقه المبتسم يرتفع ثم يهبط، وتلك السيارة المسرعة تزيد سرعتها للفرار. صرخ بأعلى صوته "واااااائل"، ولكنه لم يذهب إليه، بل هرول وراء السيارة التي فعلت هذا، وهو مستمر في الصراخ باسم صديقه، لكن - بطبيعة الحال - لم يستطع اللحاق بها، وعاد إلى مكان وائل، فوجد باقي الشباب قد حملوه إلى سيارة توقفت لهم، فركب معهم، وانطلقت السيارة إلى أقرب مستشفى للمكان، حيث حاولوا أن يسعفوه، ذهبت محاولاتهم دون فائدة. كان خالد هو من وقف معه بحجرة الطوارئ، وأحس بعدم جدوى محاولات الأطباء، فأخذ يلقنه الشهادة ويرجوه أن يقولها، وعينا وائل معلقتان به، حتى انطفأ نور الحياة بهما، ولم يعرف أنطقها بقلبه أم كان الأوان قد فات. اتصل أحد زملائهم بمنزل وليد، فحضر أشقاؤه لإنهاء الإجراءات، بينما لم يفارقه خالد من حجرة الطوارئ، إلى المشرحة، والغسل، وهو يترنم بآيات الرحمة ويدعو لصديقه غير مصدق كل ما يراه بعينيه. تذكر فجأة أنه تأخر كثيرًا، فأخذ جانبا واتصل بشقيقته يخبرها ما حدث..

- الو.. ايوة يا ود.. وائل صاحبي مات في حادثة.. هرجع بعد الدفن بكرة.. انتي فين.. طيب.. سلام

أنهى المكالمة، ثم عاد مرة أخرى مع أشقاء وائل، وساعات الليل تمر بطيئة على الجميع، وقد انتظر باقي الشباب في الخارج تبعا لتعليمات المستشفى. غادرت حبيبة أيضا، فقد تأخرت بما يكفي.. كانت مصدومة تبكي وهي تتجه إلى محطة المترو، وتشعر أنها تكره كوبري قصر النيل، الذي يصر على عصر قلبها مرتين متتاليتين، تأتي فيهما إليه فرحانة تريد الاحتفال، فيردّها حزينة خائفة باكية.

***

تغيرت ملامحها، فصمت منتظرا أن تتكلم هي وتخبره بما كان في المكالمة.. استجمعت نفسها، وأخبرته بما حدث لوائل، وطلبت منه أن يذهب بها للمنزل، فأومأ برأسه موافقا، ثم نادى علا، التي جاءته تجري، وعندما همت بالاعتراض على انصرافهم، لمحت عيني ود الدامعتين، فأغلقت شفتيها واستسلمت للقرار.

وصلت لمنزلها، وودعها حمزة وعلا، فصعدت إلى الشقة الخاوية، ولم تفتح النور. ارتمت على أقرب كرسي، وأحست بوحشة شديدة وقد قبض الخبر قلبها، فوائل كان محبيا جدا لأخيها خالد، ولم يزل في عمر زهرة لم تتفتح للحياة بعد. أخذت هاتفها، فاتصلت بخالد تحاول أن تقنعه أن يحضر ليبيت معها، ثم يغادر في الصباح للجنازة، فرفض وصمم على البقاء بجانب صديقه، فلم تضغط عليه، فصوته المختنق يخبرها عن حاله أكثر من كلماته.

قامت إلى حجرتها، وفتحت اللابتوب، لتعجل وصول حمزة لتأتنس بحديثه في هذه الوحشة التي أخافتها بلا تبرير.

***

- ايه رأيك في ماما ود يا علا؟

سألها حمزة وهو يقود السيارة إلى البيت، فلم تفهم هذه الصغيرة كلامه تماما، فقد اعتادت أنه لها رفيق الحياة الأوحد، الذي يعطيها الحنان والأمان ولا تفتقد إلا حضوره حين يغيب عنها في عمله.

رغم عدم فهمها لهذه الكلمة الكبيرة، فقد ردت بتلقائية مرحة:

- هي حلوة.. بس انا أحلى.

تضاحك معها، ثم ذهب بها لهناء معتذرا لإثقاله عليها، لكون عمر أخوها قد اتصل طالبًا لقاءه الآن. اتصل بوليد وهو في الطريق إلى عمر، يسأله عن أي جديد في العمل، فطمأنه وأخبره أن الأمور على ما يرام، وعلى غير العادة أغلق سريعا. لم يبال حمزة كثيرًا، وأكمل طريقه إلى عمر الذي لم يتأخر عليه كعادته، بل وجده ينتظره في مكانهما المعتاد على تلك القهوة، أو بالأصح ذلك الرصيف المزدحم بالكراسي الخشبية، والطاولات المعدنية الصغيرة، وعدد لا بأس به من الشيش والمشروبات الطبيعية والغازية. جلس بجانب صديقه الذي قال فور وصوله:

- هات واحد كوكتيل مع الشاي والشيشة يا كرشة.

ضحك ثم قال:

- ماتاكلش منه وانت جايبه يا كرشة.

قالها، ثم التفت لصديقه ثم تابع:

- طالما عازمني على كوكتيل تبقى واقع في مصيبة وعاوز رأيي.

ضحك عمر من تعليقه، ثم قال:

- لا والله يا صاحبي، انا بس لسة قابض

وانت واحشني قلت نقعد سوا شوية.. عامل ايه؟

أخرج تنهيدة من اعماقه ثم قال:

- تايه..

عن أي تيه يتكلم؟.. هل يقصد توهانه في الدنيا عموما، وانتقالاته من مكان لآخر ومن عمل لآخر على مدار السنين الأخيرة؟ أم يتكلم عن توتر علاقته بوالدته؟.. أم تلك العلاقة الجديدة غير الواضحة مع ود؟.. تابع عمر:

- باين عليك قوي على فكرة.

ساد الصمت بينهما للحظة، ثم حسم حمزة أمره وترتيب أهمية ما يشغله..

- انا مش عارف انا عايز ود ولا لأ.

اندهش عمر من الجملة.. اعتدل ليواجه حمزة تماما في جلسته، وسأله في اهتمام حقيقي:

- ود مين، وامتى وفين وازاي؟

استمع لسؤال صديقه، وأخذ نفسا عميقا، ثم بدأ يحكي له كل ما حدث.. منذ البداية العجيبة، ثم احتياجها العجيب له، ثم تعلقهما العجيب ببعضهما. استغرب عمر صدفة لقائهما، ثم صدفة احتياجها له في مشكلة أخيها في هذا التوقيت.. كان الأمر كله بالنسبة له شيءٍ لا يعقل، ولكنه عاد يضحك قائلا إن الأمر غريب لو أنه يخص أحدًا غير حمزة، الذي لا تستطيع أن تستغرب في حياته - العجيبة كلها - شيئا مثل هذا.

سأله عمر عن كل شيء، وأجابه عن كل شيء.. هذه هي المرة الثانية التي يتكلم فيها حمزة دون أن يداري شيئا عن عمر، وكانت الأولى عند حديثه عن والده بعد وفاته.. فتأكد عمر أن صديقه وقع في شباك حب حقيقي يتملكه.

قال عمر لحمزة كلاما كثيرًا.. أخبره أن الحب الذي يبدل الحال بمقدار معين وبدرجة معينة تناسبك، يسعدك كما لم تسعد من قبل.. قال له محذرًا إنه لا بد أن يكون حريصًا كل الحرص، لأن الإفراط في أي شيء حتى الحب والاهتمام ينقلب عليك حتما. أخذ حمزة يستمع إليه صامتًا، وبدون أي مقدمات قام من كرسيه ليغادر، وخرج من المكان، فضحك عمر وضرب كفا على الآخر، وبسرعة أخرج ثمن طلباتهما من

جيبه ووضعه على الطاولة مناديا "كرشة" ليأخذه، ثم لحق بصديقه وركب بجانبه في السيارة، وانطلقا سويا.

توقف حمزة فجأة، أخذ ينظر إلى أستوديو التصوير الذي مر به، وهو يفكر في صمت، ثم اتخذ قراره وعدّل وضع السيارة ليركنها أمامه. أخرج هاتفه، وفتح الصورة التي أخذها من حساب ود الشخصي، ونزل من السيارة، ودخل إلى الأستوديو، فطبعها واختار لها إطارًا أنيقًا. لم يتكلم عمر أو يعلق على هذا التصرف، واكتفى بابتسامة قلقة على صاحبه. أدار السيارة وهم بالخروج من ركنته إلى الطريق، فرأى في المرآة فتاتين تسيران وراءه، وتتابعها سيارة إصدار السنة الحالية. هدأ من حركته، وبدأ يراقب ما يحدث، ويفكر هل يتدخل أم ينتظر ربما كانت الفتاتان راضيتان بالأمر.. ولكن في هذه اللحظة، أخرج شاب يده من السيارة لتلامس جسد إحدى الفتاتين، فضغط بقدمه على البنزين، ليتجاوز السيارة، ويقف بينها وبين الفتاتين. وقف سائق السيارة الحديثة مرة واحدة ليتفادى الاصطدام بحمزة، الذي نزل من سيارته يسأل الفتاتين إن كانتا بخير، فردت كلتاهما بإيماءة من رأسها، وإن كان قلقهما واضحا لا يخفى على عين. ظل مكانه ينظر لصاحب السيارة الفارهة صامتا ومنتظرا أي رد فعل، ولكن عكس ما توقع، فقد زفر ضيقا وانطلق بسيارته مبتعدا.

شكرته إحداهما بصوت خفيض يكاد لا يسمعه، وكأنها خائفة أيضا من صاحب الشهامة أن تكون شهامته ما هي إلا وسيلة للوصول إليهما.

أومأ برأسه دون أن يرد عليها، وانتظر إلى أن اطمأن عليهما أخيرا وقد رآهما تدخلان بناية قريبة، فأدار سيارته، وانطلق نحو المنزل.

كان يشعر باستياء جارف.. لن يتصرف بهذا الشكل في كل موقف مماثل، والمشهد يتكرر كل يوم في كل مكان، والكل يغض الطرف عن هذا الأفعال المشينة، ويعتبرونها جزءًا عاديًا من الحياة؛ ولكن إلى متى يستمر تذوق الناس للقبح، بل واستساغته؟!. أوصل عمر إلى بيته، وقبل أن ينزل من السيارة، التفت إليه وقال:

- انت جدع يا حمزة.. الدنيا لسه بخير ولسه فيها جدعان بس الناس بتغرق في الإحباط وتنسى انها عايشة وقادرة تصنع الجمال بايديها. انت يمكن اتصرفت بتلقائية ومافكرتش، لكن البنتين دول ممكن يكملوا حياتهم بس بالذكرى اللي انت سيبتهالهم دي .

ابتسم مجاملا صديقه، وغير مصدق أن الموقف يستحق كل هذا الكلام؛ لكن ما رن في عقله هو عبارة عمر: "الناس بتغرق في الإحباط وتنسى انها عايشة وقادرة تصنع الجمال بايديها". وترجمت شفتاه العبارة في كلمة واحدة: "ود"

دخل شقته مباشرة، ولم يصعد إلى جيرانه ليحضر طفلته، فالأكيد أنها الآن نائمة، وربما جميعهم ناموا، فلا داعي لإزعاجهم. كان أيضا يشعر أنه يحتاج لأن يختلي بنفسه ويرتاح قليلا. دخل إلى غرفة المعيشة،

ومدد جسده على الأرض بجانب اللاب توب محاولا الاسترخاء في الظلام التام.

***

جلست في فراشها خائفة.. لم تتعود أن تبيت بمفردها في المنزل منذ وفاة والديها. حاولت أن تقنع نفسها أن هذا فعل الأطفال، ولا يصح منها، فأغلقت النور وحاولت النوم، لكنها لم تستطع الكذب على نفسها طويلا، فعادت تجلس وأرسلت لحمزة على هاتفه: "افتح نت، محتاجالك".

رن هاتفه بوصول رسالة، فأخرجه متباطئا، فوجدها من ود فقرأها، ثم فتح متصفح الماسنجر على الهاتف، فلم يكن يريد أن يطلع على أي شيء سواها، ولا يرى شيئاعن أي من العالمين غيرها. تجاهل كل ما جاءه في صندوق الوارد، وفتح رسالتها مباشرة ثم قال:

- انا جنبك.

يزيد خوفها وقلقها مع مرور الوقت رغم وجود جيران لها في المنزل. لكن، تتذكر جيدا مواقفهم الدنيئة معها باستمرار لمعرفتهم انها يتيمة وبمفردها. تذكرت ايضا انها في مشاكلها لا تستطيع أن تلجأ لهم بسبب تصرفاتهم القذرة. تلقت رسالته فأجابت:

- انا خايفة، خالد مارضيش يرجع البيت وهيبات مع صاحبه.

اعتدل من نومته وأسند ظهره للحائط ثم قال:

- ربنا يكون في عونه.. الموقف اللي هو فيه صعب قوي.

أخذ نفسا عميقا ثم تابع:

- أنا هتصل بيكي.

سكتت قليلا تفكر في كل ما يجري بينهما منذ أول لقاء إلى الآن، ثم كتبت بأطراف متوترة:

- اوك.

رن هاتفها، فجال بخاطرها حالها منذ أيام مضت. أرسل الله لها حمزة في توقيت عجيب.. بما هي قد رقت له من البداية لأنها انتظرت قدومه. أخذت نفسا عميقا لتهدئ سيل أفكارها، ثم ضغطت على زر الرد ولم تقل شيئا. جاء صوته من الجهة الأخرى قائلا:
- أنا جنبك يا ود، عمري ما هسيبك.. من قبل ما اشوفك وانا قولت ان انتي اللي هتكمليني.. ان انتي الروح اللي لازم تسكني.

سكت لبرهة ثم تابع:

- حاسس انك مخلوقة ليا مخصوص يا ود، مخلوقة من ضلعي.

اجتاحتها قشعريرة خفيفة محببة، وسكنت لكلماته ولم ترد. قال بهدوء:

- ها بقى لسة خايفة؟

ابتسمت، ابتسامة لم يرها، لكنه أحس بها.. قالت:

- بس انا عايزة أعرفك، عايزة أعرف كل حاجة عنك.

تنهد وقال:

- هاحكيلك كل حاجة بس مش دلوقت.. الحكاية طويلة ماتنفعش في التليفون. انتي دلوقتي نامي عشان كليتك الصبح وانا كمان هنام عشان شغلي.. ويومين كده ونتقابل واحكيلك على كل حاجة.

- هتنام؟

- هانام.. وانتي نامي وخلي التليفون جنبك وأي لحظة تقلقي أو تحسي بالخوف كلميني

أنهيا المكالمة، فضغطت الهاتف في كفيها كأنما تحتضنه.

تركته على الوسادة، وقامت إلى المرآة تتامل نفسها وتسأل مخاوفها:

- ياترى آخرتها ايه.

فوجئت بشبح ابتسامة مطمئنة على صورتها المنعكسة أمامها، احمر لها وجهها أكثر، وهي تعترف أن حمزة استطاع فعلا، وبلا شيء أن يهبها الأمان ويبدد وحشتها. تركت المرآة، وألقت نفسها على السرير، ولامست الهاتف بأنامها وذهبت في نوم عميق.

وفي الجهة الأخرى، لم يتحرك حمزة من مكانه.. كان مرتاحًا أنه تكلم هكذا، وأنه صرح لها بما عاندته الفرصة في اللقاء فلم يقله. تجسدت

صورتها أمامه وهي تنام ممسكة بهاتفها، لاجئة إلى قلبه ليكون أمانها، فابتسم واستسلم للنوم.

***

استيقظ على طرقات الباب، فقام متثائبا، ليجد عصام يقف أمامه بطبق الفول مبتسما. بادله ابتسامته بابتسامة أكثر اتساعا وترحيبا، وأشار له بالدخول، فرد بلغة الإشارة أنه ترك العربة وحدها، فأخذه منه وربت على كتفه، وراقبه وهو ينزل في نشاط إلى عربته بإعجاب به وبتربية أبيه الواعية له. صحيح، عم أحمد أثبت للجميع أنه أكثر وعيا وثقافة من كثيرين من حملة شهادات التعليم. دخل المطبخ ليضع الطبق، ثم خرج إلى النافذة، ليتابعه وهو يقدم الفول لمريديه، ففوجئ بالورقة التي علقها على العربة الصغيرة:

"لو مش عارف تشاور اكتب طلبك في ورقة"

ضحك كثيرا من قلبه، ووضع يده على رأسه وظل يتابع.. أعجبته الفكرة البسيطة، وأحب تحدي عصام في مواجهة إعاقته البدنية. أحد الشباب وقف أمام العربة مبتسما، ثم بدأ يتكلم مع عصام بلغة الإشارة، فرأى حمزة البهجة على وجه عصام وفرحته بمن يكلمه بلغته الخاصة. فوجئ حمزة بالشاب يخرج هاتفه ويجري مكالمة بطريقة عادية، فقد ظنه من الصم والبكم هو أيضا. كان ما زال بملابس الخروج، فقد نام بها، نخبط عليها كأنه بهذا سيزيل تجعدها من أثر النوم، وأسرع إلى المطبخ،

فأفرغ الفول في طبق آخر، ونزل مسرعا بحجة إعادة الطبق إلى عصام. كان الشاب لم يزل واقفا يأكل إفطاره عند العربة، فوقف يراقبه حتى تحين الفرصة وهو يشير لعصام طالبا منه مزيدًا من المخلل، فالتفت إليه مبتسما في ود وسأله كيف يفعل هذا، فأجاب بوجه بشوش:

- الحب.

اتسعت عينا حمزة، فتابع الشاب كلامه ليوضح الأمر:

- اتعلمت لغة الإشارة عشان أعرف أتعامل مع حبيبتي، عشان أعرف اكلم خطيبتي.

ابتسم حمزة وقد فاجأه الشاب أكثر، فسأله أخيرا:

- اتعلمت ده فين؟ لها كورسات يعني؟

- يوتيوب.

رد الشاب وهو يهز رأسه نافيا، وبتعبير أن هذا العصر أسهل كثيرا من أن يسأل هذا السؤال. صافح الشاب عصام وربت على يده، ثم غادر مبتسما ملوحا بيده لحمزة، فتمتم الأخير: "إنسان".

عاد حمزة إلى منزله يتقافز الدرجات القليلة حتى شقته، دخل إلى غرفة المعيشة وضغط على زر التشغيل في اللابتوب ثم دخل على اليوتيوب ليرى كيف يفعل هذا. وجد العديد من الفيديوهات المهتمة بلغة الإشارة، فهز رأسه معترفا أن ذلك الشاب البشوش كان محقا،

فنحن من نتكاسل عن المعرفة، وعن محاولة التواصل مع مستخدمي لغة الإشارة، فالأمر متاح وليس صعبا، ففي أقل من خمس دقائق كان قد استطاع أن يتعلم أن يلقي السلام والتحية بلغة الصم والبكم.

نظر في ساعته، فأغلق اللابتوب، وقام فاغتسل وصلى الصبح، ثم أبدل ملابسه وخرج للشارع. أخذ نفسا عميقا من هواء الصبح اللطيف، ومشى بخطوات ثابتة تجاه العربة الصغيرة، متذكرا "عم أحمد"، يراه حياً في وجه ابنه عصام ووقفته. مد يده بثمن طبق الفول إلى عصام، الذي حاول الاعتراض، ولكن صمم حمزة، ثم ألقى عليه التحية بالإشارة، فضحك عصام دون صوت، واحمر وجهه مبتهجا ومتفاجئا ومتأثرا باجتهاد حمزة، فقط لأجل التواصل معه.

ركب حمزة السيارة، وأخرج هاتفه واتصل بود، ليوقظها كي لا تتأخر لى كليتها، لكنها قالت:

- لا انا مش هنزل النهارده.. هستنى خالد.

- طيب مش هيفوتك حاجة مهمة؟

لم ترد، فتفهم قلقها، وقال لها:

- طيب ابقى طمنيني عليه لما يرجع.

أنهى المكالمة معها، وانطلق ذاهبا لمقر الشركة، لينجز ما وراءه من أعمال كثيرة أصبح مسئولا عنها. تذكر في تلك اللحظة مكالمة وليد الأخيرة،

فعاد استغرابه وقلقه، ولكنه آثر ألا يتوقع شيئا، ويترك للساعات القادمة أن تخبره، وعساها تتلطف في الخبر.

***

اتجه الجميع مع الجثمان للمسجد للصلاة عليه، فدخل الرجال المسجد مع النعش، وصعدت السيدات والفتيات إلى مصلى النساء.. صلى الإمام الظهر، ثم أقام صلاة الجنازة، وخالد لا يملك دموعه، ويدعو لصديقه من قلبه أن يلطف الله به. انتهت الصلاة، فحملوا النعش على أكتافهم وركبوا إلى المقابر، وأصر خالد أن ينزل معه حتى مواراته في التراب، فلم يمانع أشقاؤه، فهم يعلمون كيف كان هو ووائل قريبين إلى حد يدهش كل من يعرفهما ويعرف اختلافهما التام في الشخصية والتصرفات والمبادئ.

بعد أن انتهوا من دفن وائل، عاد خالد مع أشقاء صديقه لمنزلهم، يريد أن يظل معهم أكثر وقت ممكن، لكنهم شكروه وطلبوا منه أن يذهب ليرتاح، إذ يكفي إرهاقه طوال الليل. استسلم لرغبتهم، وغادر لمنزله وهو يشعر بتعب شديد وألم لا يحتمل في رأسه. خواطره تقتله أكثر من إرهاق جسده، والصرخة بداخله يكتمها ولكنها تؤلمه وتبحث عن منفذ ينفث ذلك الضغط الرهيب على أعصابه.

حاولت ود أن تتكلم معه، فلم يجبها، وتناول ملابسه المنزلية في صمت، ودخل ليستحم. لم يلبث كثيرا في الحمام، وخرج وصلى العصر،

ثم ألقى بجسده على السرير وأمسك بالهاتف وأخرج رقم حبيبة، ثم ضغط زر الاتصال. وقبل أن يتكلم، جاءه صوتها ملهوفا:

- روحت امتى قلقتني عليك.. عامل ايه، شكلك من امبارح مش مطمني.

مسح دموعه، ثم أجابها محاولا الهدوء:

- مش قادر أتخيل ان وائل يموت قدام عينيا كده.

أخذت نفسا عميقا ثم قالت:

- قدر ربنا يا خالد، ده عمره هي بس أسباب.

جلس القرفصاء في ركن بعيد من السرير، ودفن رأسه بين ركبتيه، وهو يتنفس بصعوبة، ويعاني من ألم شديد في مؤخرة رأسه.

استجمع نفسه ليرد عليها وهو يسمعها تردد اسمه منادية في قلق، فقال:

- تخيلي لو كنت انا اللي رُحت مكانه. هو كان محتاج يعيش كمان شوية ، ليه دايما كل حاجة بتكون بالشكل الغلط. ليه الدنيا مابتديناش فرصة تانية.

حاولت أن تتكلم، فأسكتتها تنهيدة من أعماقه ثم قال:

- هو كان محتاج فرصة تانية.

لم تفهم ما يقصده.. ولم يشرح هو. لم يكن ليفشي أسرار صديقه بعد أن مات. قال أخيرا:

- أنا تعبان.. محتاج أنام.. محتاج أجازة طويلة قوي.

ضحك بوجع ثم تابع:

- محتاج تذكرة سفر لمكان برا الكوكب.. بس تذكرة ذهاب بس، مش عايز ارجع.

- طب وانا؟

قالتها حبيبة وهي تقاوم دموعها وارتجاف صوتها. هزه سؤالها وأعاده خطوة إلى الحياة التي أبعده الموت والنعش والقبر عنها كثيرا في الساعات السابقة.. رد عليها:

- انتي كل حاجة كانت وكائنة وهتكون لي.. بس لو هنكون.

ارتعشت حبيبة.. خائفة هي عليه كصغيرها.. قالت له في حنان:

- نام يا حبيبي، ريح جسمك ودماغك من التفكير شوية.

نظر مرة أخيرة للساعة في يده، وتابع العقارب وهي تدور حول نفسها. ابتسم للساعة ولقلب من أهدتها له، لكن كانت ابتسامة مشوبة بحزن عميق. أنهى المكالمة محاولا طمأنتها، ثم أغلق هاتفه مقررا أن ينام ويغيب عن كل هذا الألم.

لكن بعد أقل من خمس دقائق غفت فيها عينيه، فتحهما فجأة، وقام من مكانه، وفتح جهاز الكمبيوتر وفتح صفحته على الفيس بوك وكتب..
" محدش فينا مش محتاج فرصة تانية.. لو عندك الوقت انك تصلح كل الغلط في حياتك صلحه، عايز نتعلم الدرس ماتسمعش اللي بيتقال ماتمشيش وراه من غير تفكير.. بص بعينك وشوف كويس كل اللي بيحصل حواليك وانت تعرف الحقيقة اللي وصلنالها.. وانت تعرف الحياة ، ركز قبل فوات الأوان عشان ممكن في يوم يتقال عنك (نام ماصحيش) "
ضغط زر النشر، ثم أغلق الجهاز، وعاد إلى فراشه، وغط في نوم عميق.

***

إن رأيت حياة من تحب هشة وقابلة للسقوط، فكن أنت لهم السند.

ـ ٥ ـ

أمام النافذة الزجاجية الكبيرة، جلس وليد يتابع حركة المارة في الشارع المقابل للشركة، ويفكر في كل ما يفعله.. هل ما قرره هو الصواب أم كان لزاما عليه الاهتمام أكثر بصحته، لأنه عندما سيرحل لن يأخذ شيئا من هذا معه؟.. ترى أيستمر في الانتحار بالعمل هكذا لأجل أسرته، أم يأخذ من الراحة ما قد يقاوم به المرض بضعة أيام إضافية؟.. الموت وحده هو ما يكشف لك من المشتاق ومن الفار منك.. كل شيء هباء.. يعيش الناس الحياة معتقدين أنهم خالدون فيها، ولكن للأسف يأتي الموت دوما بما لا تشتهي الأنفس. يعود فيقنع نفسه أنه يفعل الصواب، لأنه يبني لابنته حياة كريمة، وإن كان غير موجود فيها، فعلى الأقل يتركها في غير حاجة تذلها للأقارب مهما بدوا قريبين، فالمودة شيء وتحمل المسئولية شيء مختلف تماما، وكفيل بتبدل الوجوه والنفوس.

قطع شروده دخول حمزة عليه، فابتسم له رغم ألمه البادي في ملامحه. ألقى حمزة التحية، ثم جلس على الكرسي المقابل لوليد، وهو يتفحص وجهه، ثم قرر أن يكلمه في صراحة..

- انت مش كويس.. باين عليك قوي يا وليد.

ربت على ركبتيه، ثم ألقى ببصره بعيدا، ناظرا للشارع وقال:

- مش مهم انا.. رقية ومامتها هما الأهم.

اقشعر بدنه.. كم تمنى أن يكون هذا الوفاء موجودًا بداخل والدته، وأن يكون هو الأهم عندها وليست حياتها الشخصية. كونها أم كان لابد أن تضحي بكل شيء من أجله بعد وفاة أبيه. النفس هي التي تحدد مصائر أصحابها. نظر لوليد بابتسامة يملؤها وجع، وقال:

- عندنا شغل ايه بقى اليومين دول.

أشعل وليد سيجارة، وأخذ منها نفسا، ثم نظر لحمزة بحماس وقال:

- كل الحاجة اللي جيبناها في المخزن.. سألت الناس اللي هتاخد منا قالوا انهم هيستلموا في خلال ١٠ ايام.. والفلوس هتتحول بعد الاستلام على طول.

- وانت واثق في الناس دي؟

قالها بنبرة قلق، فأجابه:

- أنا واثق فيك.

رجع حمزة برأسه للوراء ضاحكا:

- ربنا يستر.

رن هاتفه، فأخرجه ليجيب، فوجدها ود. استأذن وخرج إلى حجرة مكتبه، بينما هز وليد رأسه متفهما ومبتسما. ضغط حمزة زر الإجابة، وقبل أن يتكلم صدم أذنه صراخ رهيب، وحاول أن يفهم ما يجري فلم يجد إلا الصراخ، فأغلق الخط ونزل مهرولا على السلالم دون حتى أن يخبر وليد.

في الطريق، حاول أكثر من مرة أن يتصل بها، ولكن دون فائدة، لا تجيب. دارت في رأسه كل الاحتمالات السيئة.. إنه لم يميز الصوت الذي صرخ في الهاتف، فربما يكون صوتها أو صوت آخر، ولكن الأكيد أن هناك مصيبة وقعت أكبر مما يتخيل. أخيرا وصل إلى بيتها، فصعد السلام بسرعة، ليجد تجمع سكان العمارة أمام باب شقتها. تذكر هذا المشهد جيدا.. لقد كان نفس المشهد هناك يوم وفاة والده!

اختلج صدره وتلاحقت أنفاسه، وزاحم الناس المتلاصقين في فضول سخيف، ودخل والبعض يحاولون منعه، ولكنه أزاحهم وأخذ يبحث عن ود في كل مكان، حتى لمحها وحولها النساء تنوح وتهتف باسم أخيها خالد، فوقف مع الناس يتابع بصمت، وقد فهم أن خالد توفاه الله. هدأ قليلا رغم فزعه من الخبر.. إحساسان متناقضان في وقت واحد غمراه، لكن وجودها أمام عينه جعله يهدأ، ثم سأل الرجال حوله عما

حدث، فلم يجد إلا أن خالد مات ولا أحد يفهم كيف حدث ذلك. ظل في مكانه مع الناس صامتا، يرمي بنظره إلى ود يتمنى لو تلاحظ وجوده ويحلم أن يضمها إلى صدره حتى يتقاسما حزنها بين صدريهما. لكن بعد دقائق، خرج من غرفة جانبية رجال ونساء ترتدين السواد، وبينهم تسير ود بملامح جامدة، لا تميز أحدًا من الموجودين، وقال أحد الرجال كبار السن بصوت هادئ:

- الدفنة بعد صلاة العصر.. شكر الله سيعكم.

حاول حمزة أن يلفت انتباه ود أنه معها.. يعتقد أن وجوده سيعينها ويؤازرها.. اتصل عليها أكثر من مرة، لكنه لم يسمع رنين هاتفها رغم أنه يراه في يدها. غادر المنزل مع المغادرين، منكس الرأس، لكنه ظل قريبا، وجلس على أقرب كافيه يراقب المكان وينتظر. كان يريد أن يفعل لأجلها شيئا أفضل من المراقبة والانتظار.. مكانه في اللحظة معها، فإن لم يكن معها في موقف كهذا، فما قيمة وجوده في حياتها؟.. ولكن لا تعطينا الحياة إلا أدوارنا وأقدارنا المكتوبة.

***

على الأريكة المقابلة لباب الغرفة التي يرقد خالد بها، كانت ود تجلس شاخصة بعينيها للباب في ذهول، والنسوة اللاتي يجلسن بجوارها يحاولن أن يتكلمن معها، ولكنها تنظر إليهن بعين حائرة ولا ترد، ثم تثبت عينيها من جديد على الباب المغلق. لم يكن أمام عينيها إلا خالد

وهو ساجد على الأرض يصلي، ويطول سجوده، فتجلس على حافة سريره تنتظره، حتى شعرت بالقلق، فنادته، ثم قامت بمزيد من القلق فهزته، ففوجئت به يسقط على جانبه لا يحرك ساكنا..

وقتها، خرجت منها شهقة عالية، ثم صرخات مدوية هزت المكان، وجعلت الجيران يهرعون إلى بيتهما ويقتحمونه، ثم يتصلون بأقاربهما ليبلغوهم الخبر. في أقل من ساعة أتى الجميع هنا.. البعض من باب الفضول، والبعض من باب المظاهر الاجتماعية التي لابد منها، وقليلون هم من حضرت قلوبهم وليس أجسادهم الباردة. وسط كل الزحام، جلست لا تحرك ساكنًا، ولا تستجيب بأكثر من هزة رأس موافقة أو رافضة لأي شيء يتفقون عليه. حين قامت لتبدل ملابسها، حاولت سارة وهبة، اللتان وصلتا بعد اتصالها بهما، أن تدخلا معها، فأشارت لهم أن لا، فتركاها وحدها فلم تكن تحتمل أدنى ضغط أو إلحاح.

دخلت غرفتها، وجلست على السرير ذاهلة، وأخرجت هاتفها، ثم جاءت برقم حمزة.. مع رؤيتها اسمه بدأت دموعها تفر من محبسها وتنطلق تفرج قليلا عن هذا القلب الذي تكاد مصائب الدنيا تفقده نضارته وهو لم يزل في عمر زهرة. كانت تريده بجانبها الآن.. كل من هم هنا باسم القرابة وصلة الدم هم أبعد عنها من قطب الأرض. تريد أن يحمله حمزة وأن يحضر غسله وأن يدفنه بيده. هو الذي سانده في القسم وأخرجه من كربه ومحنته، فلماذا يعتقد هؤلاء بالخارج أنهم أقاربه الذين سيتولون أمره في موته وهم من لم يكونوا يوما أولياء أمره في حياته؟!

اتصلت به.. حاولت أن تنطق بأي كلمة.. لم تستطع.. أطلقت صرخة عالية، ثم أغشي عليها، وهرعت إليها سارة وهبة من ورائها فدخلتا وأغلقتا الباب ورائهما في وجه فضول النساء، وأخذتا تضربان وجهها برفق وترشانها بالماء وتضعت زجاجة عطر تحت أنفها، حتى أفاقت شيئا فشيئا، ثم ساعدتاها في إبدال ملابسها، وأخذت سارة هاتفها معها ووضعته في حقيبتها، ولكنها أفاقت من إغماءتها في حالة من الشرود التام، وصارت تمر بعينيها على الجميع دون تمييز لهم.

بحثت في الوجوه عن عزيز، فوجدت نفسها وحيدة جدا.. هي غير موجودة في عيونهم، ولا قلوبهم.. كلهم هنا على الكراسي فقط ثم سيرحلون، ولا فرق في الحقيقة بين أن يرحلوا أو يبقوا.. ألا ينبغي على الأحبة أن يرحلوا على مراحل أكثر تباعدًا ورفقًا؟!.. ثبتت ناظريها على المرآة التي تعكس الحائط الذي تسند ظهرها إليه، فرأت ظهرها للهواء على حرف جبلٍ واتكائها على الفراغ يجعلها على وشك السقوط.

دخل شاب، ربما ابن أحد الأعمام، فهي لم تعد تتذكر أشكالهم، وهو يشهر ورقة في يده.. ورقة مختومة بختم الموت الأكيد من الدولة.

لمحت زفرة الخلاص على بعض الوجوه وهم يتطلعون لانتهاء المهمة الثقيلة، ثم بدأ بعضهم في القيام ودخول الغرفة، ثم الخروج.. ها هو أحدهم يشير لتلك السيدة التي تربت على كتفها كل بضع دقائق، فتقوم إليه، فيهمس في أذنها، وهي تومئ متفهمة، ثم تعود إليها..

نظرت نحوها.. ترى ماذا تريدين مني؟ ماذا عساكم تفعلون بنا؟..
- مش عايزة تشوفي خالد يا ود قبل ما يحطوه في النعش علشان يشيلوه؟

عزت جاب شهادة الوفاة خلاص والدنيا حر نسرع الدفنة أحسن
نظرت إليها غير مستوعبة شيئا مما تقول.. لم تعرف ما يجب أن تفعل؛ هل حقا عليها أن تقوم وتنظر لوجهه قبل أن يختفي عنها للأبد؟.. لم تمهلها المرأة طويلا حتى تستطيع اتخاذ قرارها، وإنما التفتت إلى الرجل الذي ناداها، وهزت رأسها نافية مقررة نيابة عن ود أن خذوه ولا داعي للانتظار.

وأخذوا خالد للمسجد ليصلوا عليه، ونزلت وراءه ود في غير وعي وتكاد النساء تسُقنها وهي لا تدري أتتركه لهم ليخفوه تحت الأرض، أم تصر على بقائه، أم ترحل معه. ركبت معه في نفس السيارة التي تقله إلى المسجد.. سيارة الموتى التي أخذت منها كل من تحب؛ أبويها أولًا ثم الآن شقيقها الأصغر.. كان أصغر جدا من توقع الموت!

رأى حمزة الناس تتجمع أمام مدخل البناية فوقف ووضع حساب الشاي على الطاولة مستعداً للمغادرة. ما هي إلا لحظات ووجد شباب العائلة خرجوا يحملون النعش، فهرول إليهم يشارك في حمله، وساروا به إلى المسجد، فصلوا العصر ثم صلوا عليه، ثم مضى ركب سيارة الموتى وحولها بعض سيارات الأقارب وسيارات الأجرة تحمل آخرين إلى المقابر. لم تفارقها عينه قط، وإن كانت لا تراه.. بكى حتى ظنوه صديقا مقربا لخالد، خاصة أن ود لم تنتبه لإخبار أصدقائه، الذين لم يفيقوا بعد

من صدمة موت وائل، فلم يتصل أحدهم بهاتف خالد. كان يبكي هذا الفتى النضر الذي وقف إلى جواره منذ بضع شهور في قسم الشرطة، وما ظن أن عمره قصيراً إلى هذا الحد.. وكان يبكيها وهو يراها على هذا الحال من الذهول ويتخيل إحساسها وقد فقدت أهم إنسان في حياتها، وأمست وحيدة تماما. حتى هو، لديه علا يأتنس بها وإن لم تحمل همًا معه، لكن ود الآن لم يعد معها أنس وهي من تخاف من مجرد البقاء وحيدة في البيت لبضع ساعات أو ليلة واحدة.

انتهوا من دفن خالد، وبدأ الزحام ينفض، وبقي من بعيد يراقبها، هي وحبيبة، تلك المسكينة التي عرفها من حكايات ود عنها، ولفرط البكاء والهالات السوداء تحت عينها، فما تخيلت يومًا أن يتركها خالد لتكمل مشوارهما بمفردها، فبكت أول وأجمل حب وأغلى ما امتلكت في سنوات عمرها القليلة. كانت تلومه في نفسها وتعنفه.. لقد كان ملكها ثم إذا به يقتلها بهذا الرحيل دون موافقتها. لامته بينها وبين نفسها: "كان ينبغي عليك أن تخبرني أن هذه آخر مرة سأراك فيها.. كان يليق بنا وداعًا آخر.. كنت على الأقل أتأمل في ملامحك وابتسامتك أكثر.. أو كنت تأخذني معك"!

رأى حمزة أحد الرجال كبيري السن يهمس إلى ود، وهي تنتبه من ذهولها وترد عليه "لأ" وتهز رأسها في تأكيد رفضها، ثم الرجل يقول بهدوء، وإن علا صوته بعض الشيء:

- مابقاش ينفع تفضلي في البيت لوحدك.

نظرت له نظرة مليئة بلوم وسخرية وأشياء كثيرة زرعتها في نفسها مواقف عديدة، أهمها ما كان يخص هذا الغالي الذي واراه التراب، حتى اضطرها إلى الاستعانة بالغريب حمزة لإنقاذ خالد من قسم الشرطة، بعد تفريط هذا الذي أتى الآن يدعي القرابة في صلة الدم التي يتشدق بها. ردت عليه بنبرة تهكمية قوية، لم يملك حمزة حين سمعها إلا الإعجاب بقوة ود رغم كل ما يحدث لها:

- لا ينفع عادي جدا، شكر الله سعيك يا عمي.

لم يناقشها، أخذ عائلته ورحل، وغادر وراءه جميع الأقارب، بعد أن أدوا الواجب الاجتماعي بصورة مشرفة. اقتربت منها سارة ووالدتها، وقالت والدتها:

- يلا يا ود عشان تروحي معانا، فعلا ماينفعش تقعدي في البيت لوحدك على الأقل الفترة دي.

لم تعترض، تعرف أنهما على حق؛ فقط كانت لا تريد أن تغادر مع أحد من أقاربها. وقفت أمام قبر أخيها تقرأ له الفاتحة لمرة أخيرة، ثم رحلت متكأة على ذراع سارة.

لم يحاول حمزة أن يكلمها، ولو حتى أن يعزيها بكلمة. حالتها لن تسمح بفتح باب التساؤل من صديقاتها عنه، وكفاها ما هي فيه. فقط تابعهن، ليعرف مكان تواجدها في هذه الفترة الصعبة، وبعد أن صعدت إلى منزل صديقتها، غادر لمنزله ليستريح.

بمجرد أن وصلت للمنزل، شجعتها سارة لتأخذ حماما دافئا، ثم خرجت فارتمت في الفراش رافضة أن تأكل أي شيء، فتركتها صديقتها لتخلد في نوم عميق. نامت معها سارة وهبة في نفس الغرفة، ولم تفارقاها، فكلما استيقظت صارخة على كابوس وجدتهما برفقتها. كانت ممتنة لهما إلى أبعد حد، شاعرة بأنهما أقرب من أختين لها، ولكنهما لم تغنياها عن احتياجها لأن يكون حمزة بجانبها، يحمل حزنها الثقيل عنها. لكنها لم تكن في حالة تسمح بالاتصال به، فلا من حولها ستفهمن، ولا هي قادرة على الشرح، ولا حتى هي واثقة أنها ستستطيع الكلام دون أن تنهار ثانيةً.

أما حمزة، فقد أبدل ملابسه، وأعد الغداء له ولعلا، فتناولاه معا وهي غاضبة لانشغاله عنها، وهو يرى ذلك فيربت على يدها، ويعدها أنه سوف يفيق ويتفرغ لها بعد أن تنتهي مشكلة صغيرة تشغله، فأنهت طعامها واستأذنته أن تصعد إلى "طنط هناء" لتلعب من ابنتها، فسمح لها، ووقف على باب الشقة حتى اطمأن أنها دخلت إليهم، وأغلق الباب ثم دخل غرفة المعيشة. جلس أمام النافذة وهو يمسك هاتفه.. حاول الاتصال بها مرة واحدة، فلم ترد، فأخذ يشغل نفسه بقراءة المحادثات بينه وبينها، ويشاهد صورها، خاصة الصورة التي وضعها في الإطار، والتي ترك الهاتف وأخذها في يده يتأمها حتى اكتشف شيئا لم يلاحظه على الإطلاق قبل ذلك.. إن ود تشبه والدته كثيرا!

***

سمع صوت جرس الباب، فقام من مكانه ليرى من بالخارج. التفت حوله، فلم يجد طفلته، فتذكر أنها بالأعلى. فتح الباب، ليرى والدته أمامه، فاندهش لرؤيتها. تقدمت خطوة، ثم ضمته إليها، فلم يحرك ساكنًا.. هو في صراحة لم يفتقدها ولن يظهر لها غير ذلك. كاد أن يبعدها عنه، ولكنها سبقته وتحركت لداخل المنزل مبتعدة عنه، وأخذت تنظر لأركان الشقة باهتمام. سألته عن أخباره، فنظر إليها مندهشا ولم يجب، ثم أخذ نفسا وسألها:

- جاية ليه، وعرفتي مكاني منين؟

اختفت الابتسامة من على وجهها، ثم قالت بجمود:

- انا هتجوز كمان أسبوع، وكنت عايزاك تحضر.

ضحك من هول المفاجأة، رغم انتظاره لها كثيرا. لم يغلق الباب، بل فتحه على مصراعيه قائلا:

- وانا هاخطب كمان أسبوع وكنت عايزك تحضري.. يلا مافيش نصيب، هقولهم يتيم الأب والأم.

حاولت أن تتماسك لتستمر في تمثيل القوة واللامبالاة، وأعطته ظهرها لتداري دمعتها، ثم غادرت دون أن تنطق بكلمة، فأغلق الباب وراءها في هدوء يخفي ثورة من الحزن في قلبه.

عادت الطرقات على الباب بشكل عشوائي، فاستيقظ حمزة ونظر في ساعته، ليجدها السابعة. تنهد وابتسم قائلا بينه وبين نفسه: "أمي جايالي في

الحلم.. خير اللهم اجعله خير". تحرك نحو الباب مسرعا، ليجد عصام يقف له بطبق الفول مبتسما، فرد له الابتسامة، وقال له بلغة الإشارة:

- صباح الفل.

رد عصام التحية بنفس الإشارة مبتسما ثم غادر مسرعا إلى عربته، ودخل حمزة إلى المطبخ، حيث وضع الطبق على الطاولة، وبدأ في طقوسه اليومية. تعلم اليوم كلمات جديدة بلغة الإشارة، ليفاجئ بها عصام، ثم خرج للشارع وتكلم معه باللغة التي يحبها، فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه عصام، ثم اقترب منه وعانقه بحرارة، وأشار له بجملة لم يفهمها، فكتبها عصام في ورقة قدمها إلى حمزة: "انت الأخ اللي ماجاش". ابتسم حمزة وقد أنعشته الجملة البسيطة ركيكة التعبير بليغة الإحساس، فلكزه في كتفه مداعبا، ثم غادره إلى عمله.

وخلال يومه، حاول الاتصال عدة مرات بود، إلى أن سمع صوت في الجهة الأخرى:

- الو.. مين.

- أنا حمزة.. كنت عايز بس اتطمن على ود وأعزيها.. لو سمحتي اول ما تصحى خليها تكلمني.

استغربت سارة من الاسم، الذي لم تسمع عنه من ود من قبل، لكنها غلبت فضولها ولم تسأل عن هويته أكثر من ذلك، وإن كانت - مع مراجعة أحوال صديقتها في الفترة الأخيرة - قد توقعت من يكون، فقالت له:

- هي مش كويسة، بس نامت من التعب. اول ما تصحى هخليها تكلمك.

فكر قليلا ثم سألها:

- ينفع اجي اعزيها في البيت عندكم.

سألته أن يعطيها ثوانٍ للرد، ذهبت فيها لتسأل والدتها، فلم تمانع، فرجعت له على الفور قائلة:

- طبعا تنور في أي وقت.. معاك ورقة تاخد العنوان.

تردد قبل أن يقول:

- لأ، انا عارف العنوان شفتكم وأنتم مروحين.

ابتسمت رغم الظرف الحزين الذي يحيط بهم، ثم أنهت المكالمة:

- تنور في أي وقت.

أغلقت الهاتف وهي لا تدري هل تقول لود، أم تترك لها الخبر مفاجأة.. قامت لوالدتها، لتبدءان معا إعداد البيت الاستقبال ضيوف ود، رغم أنها تعلم أنها لن يأتيها سوى صديقاتهما في الكلية فقط.. وحمزة. أما أقاربها، فقد أتموا ما يمنع لوم اللائمين، فلن يأتوا ولن يسألوا بعدها.

في صالة واسعة، وعلى كرسي من بين خمسة كراسٍ وأريكة، بينها طاولة صغيرة، جلس ضاما ركبتيه واضعا يديه عليهما في حياء من والد ووالدة سارة. أتت ود في ملابس سوداء، ففاجأه هزالها وبهتان وجهها كأنها زهرة فقدت نضارتها تحت وطء جفاف الحياة القاسية عليها أكثر مما يحتمل سنها

الصغير. قام ليصافحها محاولا أن يتمالك نفسه وأن يبدو لقاء كفيهما مجرد مصافحة رسمية أمام أهل سارة، وبعين يملؤها الحزن تمنى أن تقول لها ما يحرج لسانه من قوله، لم يستطع إلا أن يقول لها:

- البقاء لله.

- متشكرة

قالتها ود ثم اتجهت إلى كرسي إلى جوار والدة سارة، وساعدتها سارة وهبة على الجلوس، ثم ساد الصمت على الجالسين، فتنحنحت أم سارة، ثم قامت متحججة بالحر لتجلس في الركن الآخر إلى جوار الشرفة، وتبعها الباقون تاركين لحمزة وود مساحة لحرية الكلام، مع الاحتفاظ بكونهم قريبين قدر المستطاع.

وقبل أن ينطق حمزة أي كلمة يواسيها بها، وجد عيناها تغيبان، ثم أغشي عليها. هرع إليها قبل الجميع، فأراح جسدها على الأريكة، وحاولت هبة وسارة أن تفيقاها ولكن بلا فائدة، فلم يجدوا حلا سوى التحرك بها لأقرب مستشفى.

على سرير حديدي صغير، نامت ود، وذراعها متصل بأنبوب بلاستيكي، يحمل سائلا شفافا، بينما أنبوب آخر يخرج من أنفها، مثبت بلاصق أبيض.

أخذ يتأمل ملامحها الملائكية، التي لم تتخل عن الحزن حتى وهي غائبة عن وعيها. كان جالسا على كرسي صغير بجانبها، يتأملها ويكلمها، ولا يصدق أنها لا تسمعه.. يستطيع أن يشم رائحتها التي تثير داخله مشاعر كثيرة، فيحتاجها

ويشتاق إليها، ويريدها معه بجانبه، تشاركه في كل شيء. كان يقول لها إن عليها ألا تظن في نفسها الضعف.. كان يقول لها إنها هي من تحميه وتطمئنه وتمنحه القوة والسكينة. انتبه من شروده على دمعة أفلتت من عينه وسقطت على كفه، فأحرجته أمام سارة وهبة المراقبتين له طول الوقت، فخرج مسرعا متجنبا أن ينظر لأحد. انتظر حتى هدأ قليلا، ثم اتجه إلى الطبيب المسؤول عن حالتها يسأله، فطمأنه بأن الأمر بسيط، وتحتاج فقط لبعض المهدئات للتغلب على الضغط العصبي الذي تعرضت له بأكثر من احتمالها، بالإضافة إلى قلة الطعام، التي يعوضونها لها عن طريق هذا الأنبوب المتصل بها ، وأخيرا قال بهدوء:

- إن شاء الله بكرة تبقى أحسن كتير ونخليها تروح معاكم.

خف توتره قليلا، ودخل مرة أخرى إلى حجرتها، ليخبرهم بكلام الطبيب، فارتسمت علامات الطمأنينة عليهم، ثم قال والد سارة:

- طيب اتفضل روح انت يابني.. انت تعبت واتبهدلت معانا النهارده، احنا معاها وهناخدها الصبح أن شاء الله.

كان متفهما لطبيعة وضعه وموقفه فهو بالنسبة لهم غريب، ربما لولا حالة الحزن المجتاحة لنفسية ود لما قبلوا وجوده من الأساس. هز رأسه متفهما، ثم ألقى نظرة أخيرة عليها، واستأذنهم أن يأتي في الغد ليطمئن عليها، وتبادلوا أرقام التليفون، ثم خرج يسير في طرقات المستشفى وهو يشعر أنه يريد أن يعود، وأنه الأحق بأن يكون معها من كل هؤلاء.. كيف له أن يتركها؟

لن تضيع منه بعد أن عوضته عن الجميع وعن كل شيء. لم يكن قريبا أبدًا لأحد، كان يهرب من الجميع، حتى قابلها، فاكتشف أن هروبه من الجميع كان إليها.. وجد عندها ملاذه، الذي دعا الله في طريقه ألا يفقده. تساءل حزينا غاضبا رافضا كل ما يحدث:

– ليه دايما الفارق في حياتي بيفارق؟!

***

أمام التلفاز، جلست إيمان، وبجوارها رقية الصغيرة تسند رأسها إلى ذراع أمها، وتتابعان المسلسل الذي تفضله إيمان منذ فترة. دخل عليهما وليد وهو مبتسم، رغم تدهور صحته في الفترة الأخيرة، فأسرعت رقية تجاهه، وألقت بنفسها في أحضانه، فنظرت له إيمان وقد رفعت حاجبها في إنذار مرح، فاقترب وجلس بجانبها، وطبع قبلة على وجنتها جعلت وجهها يحمر حياءً من ابنتها. ابتسمت رقية فظهرت غمازتاها، ثم قالت:

– نحن هنا.

ضحك وليد متحاملا على ألمه، ضاما الملاكين اللتين هما كل دنياه بين ذراعيه.. تمنى أن يبوح لهما بسره الكبير، كي يقتربا أكثر ويشبعاه منهما أكثر، لكنه آثر أن يقوم كي لا يؤلمهما بألمه الذي لابد سيظهر على وجهه، فقد اشتد لدرجة لن يتمكن معها من إخفائه.

– هاقوم أغير هدومي وأدخل المكتب أخلص شوية حاجات متأخرة

قامتا هما أيضا، لتنجز كل منهما ما وراءها، إيمان ذهبت للمطبخ لتحضر

العشاء، بينما دخل وليد مكتبه لينتهي من إرسال إيميلات متعلقة بصفقاته الجديدة، ودخلت رقية غرفتها تنتهي من واجباتها. انتهت إيمان قبلهما، فذهبت إلى وليد أولا، لتترك للصغيرة بعض الوقت لتنتهي من الواجبات قبل العشاء. طرقت الباب ودخلت تناديه في دلال..

- وليد.. عملت لك بقى حتة عشا... وليد!

لم يجبها.. أسرعت إليه في هلع، لتجد تحت رأسه المنكس على المكتب الدماء الحمراء تغرق الأوراق خارجة من فمه.. أطلقت صرخة مدوية، فهرولت إليها رقية، التي فزعت من المشهد ومن فزع أمها وشاركتها الصراخ، وفي لحظات كانت الشقة قد ازدحمت بالجيران.

نقله جيرانه إلى أقرب مستشفى، وساعدت الجارات إيمان في تغيير ملابسها والذهاب معه وأصرت رقية أن تكون معهم، وألا تبقى مع إحدى الجارات. في الطريق، استجمعت إيمان بعض تماسكها، واتصلت بحمزة لتخبره بما جرى، فأخذ منها عنوان المستشفى التي ستتوجه به إليها، وكان قريبا بما يكفي ليكون في انتظارهم أمام المستشفى، فهو لم يغادرها من الأساس. هرع الممرضون بنقالة الإسعاف، فأخذوا وليد من السيارة عليها إلى الاستقبال، بينما طلب الموظفون من الحاضرين أن يكتفوا بواحد أو اثنين، فلا يمكن أن تحتمل المستشفى مثل هذا العدد مع كل مريض، فأشار حمزة لإيمان أن تدخل هي ورقية مع وليد، ووقف يشكر الجميع ويطلب منهم الرحيل بأسلوب لطيف. في الاستقبال، طلب منهم الأطباء ترك المريض قليلا لإعطاء مساحة للحركة لإسعافه، فانتظروا ثلاثتهم - حمزة وإيمان

ورقية – في الخارج بجانب جميع من ينتظرون ذويهم. حين طال انتظارهم، بدأ يقلق، ونظر إلى الصغيرة خائفا عليها من صدمة ومشهد لو حضرته فلن تنساه طوال عمرها، فحاول اقناع إيمان بالرحيل، على أن يبقى هو معه ويبقى على اتصال بهما، فرفضت إيمان بإصرار، وقالت رقية إنها كبيرة وستكون بجانب أبيها مهما حدث، فابتسم لها معجبا بشجاعتها وحبها لأبيها، وسلم أمره لقرارهما، وجلس بجانبهما ينتظر في ترقب.

***

أفاقت ود تبحث بعينيها عن حمزة، فلم تجده. كانت بجانبها هبة، وتقف في الخارج سارة ووالدها ووالدتها، الذين دخلوا مع نداء هبة لهم فرحة بإفاقة ود أخيراً. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل، فطلب والد سارة من الممرضات استدعاء الطبيب ليطمئنهم أكثر.

وبالفعل، أتى الطبيب، وتهلل وجهه حين رآها تفتح عينيها وتستجيب جيدًا، وارتسمت ابتسامة على وجهه وقال لها:

- انتي زي الفل، وتقدري تروحي معاهم الصبح إن شاء الله.

سأله والد سارة:

- طب ماينفعش تروح معانا دلوقتي؟

ربت على يده وقال:

- صعب، في محاليل لازم تاخدها والأحسن كمان تبقى تحت الملاحظة للصبح. وعلى فكرة فرد واحد بس اللي ينفع يبات معاها. شوفوا مين هيبات والباقي يروح يستريح.

شكر الرجل الطبيب على اهتمامه، ثم توجه إلى الجميع:

- يلا البنات يروحوا يرتاحوا، وانا وماما هنفضل معاها ونجيبها ونيجي الصبح.

وقفت سارة من مكانها ثم قالت له:

- لا يا بابا، روح انت وماما وخدوا هبة معاكم وصلوها في الطريق وتعالالي بكره.. انا هستنى مع ود، والله ما اقدر اسيبها.

كان يعرف جيدا أن ابنته صادقة، فهي لن تستطيع فعلا ترك صديقتها الأقرب في حالتها هذه. يتفهم ذلك، ويفهم أيضا أن ود في الغالب تريد سارة معها وليس أي شخص آخر، فهي الأقدر على فهمها، والأكثر ألفة لقلبها. لم يعترض في الحقيقة بأكثر من محاولة هزيلة، لكنه كان مطمئنا إلى المستشفى جيدة السمعة، فلم يمانع، وأخذ زوجته وهبة ورحل بهما، بعد أن لقن سارة الوصايا العشر، لتكون حريصة على نفسها وعلى صديقتها.

رجعت سارة لود محاولة التخفيف عنها برسم ابتسامة مكسورة على وجهها، فقابلتها ود بدموع الفقد وقد غاب أخوها، أغلى الناس.

حاولت سارة أن تغير الأجواء، فسألتها عن ذلك الشاب المدعو حمزة، الذي وصلت جرأته أو تهوره أن يأتي ليعزيها عندهم، ولا يكتفي بمكالمة للاطمئنان. لم ترد ود، وأحست بافتقاد رهيب لحمزة، وتمنت لو أنها لم تفقد تلك الدقائق التي كان ليحتويها فيها، لولا أنها فقدت وعيها. ألحت سارة بالسؤال ممازحة في محاولة للمرح..

- يا ستي ما احنا عرفنا ان اسمه حمزة وخدنا رقم تليفونه كمان يعني بقى مننا وعلينا

نظرت إليها ود محاولة الابتسام، وهي تنظر إليها كأنها تعتذر عن عدم قدرتها على مجاراتها في المرح، وكادت تبدأ في البكاء، ولكن تأثير المهدئ في عروقها ساعدها على تمالك نفسها، فأخذت نفسا عميقا، وقالت في صوت خفيض:

- حمزة ده.....

لم تكمل جملتها.. انطلقت من العدم أصوات متداخلة ملأت المستشفى، وساد هرج ومرج في الخارج، وسمعت من وراء الباب خطوات تهرول، وصيحات بين ملهوف وممتعض من الليلة وانقلابها على رأسهم. طلبت من سارة أن تساعدها في الاعتدال في جلستها، ثم تذهب لترى ما يجري في الخارج، فقامت الأخيرة بخطوات متثاقلة، وغابت لدقائق ثم عادت قائلة:

- بنت جاية في محاولة انتحار، تقريبا حبيبها سابها.

أحست بضيق في صدرها، وتذكرت حبيبة، وكيف تجاهلتها تماما وقت العزاء. لم يكن بيدها، لكن على الأقل كان لها من يواسونها ويساندونها، لكن حبيبة كانت كالغريبة وحدها بكل ما في قلبها من حزن. حاولت النزول من على السرير، ثم طلبت من سارة أن تساعدها، وجرت قدميها الثقيلتين، وسارة تنهاها عما تفعل، ولا تملك إلا مساندتها، فقد كادت تنزع المحلول من يدها، فأدركتها سارة، وأخذته معهما وهي ترفعه عاليا.

كان دخول تلك الحالة الطارئة قد أصاب كل المرافقين المنتظرين بالمستشفى بالهلع، بعد معرفتهم عمر المريضة، وأنها قادمة في حالة انتحار.

وكان حمزة ممن هالهم المنظر، فقام من مكانه مستأذنا، وتحرك مع الجميع في قلق واضح على ضحية لم يعرفها، غير مستمع لصراخ موظفي الاستقبال أن يجلس كل واحد في مكانه، كي يستطيع الطاقم الطبي القيام بعمله.

تحركت ود بخطوات بطيئة، إلى أن وصلت إلى مكان تجمع أهل الحالة التي جاءت منذ قليل، فسمعت امرأة تنوح هاتفة باسم "حبيبة"، فحاولت أن تندفع إلى حجرة الطوارئ، فمنعها موظف الأمن، فكادت تفقد توازنها وأصابها دوار جعل سارة تكاد تحملها، وهي تصرخ طالبة العون، فانتبه إليهما حمزة، وتحرك باتجاههما مسرعا مخترقا الجميع، وحملها وعاد بها لغرفتها، طالبا من سارة استدعاء الطبيب.

كان مذهولا من هذه الدوامة الخبيثة التي ثارت فجأة ولا تهدأ.. لا إنها لم تعد دوامة، لقد أصبحت إعصارًا مخيفا يقتلع كل جذوره من الحياة. تذكر علا فجأة، وأحس بخوفه عليها يتضخم، وقرر أن يتصل للاطمئنان عليها بمجرد الخلاص من هذا الهرج. وبعد أن جاء الطبيب وطمأنهما على ود، التي عادت لحالة أقرب للغياب، تنظر إليهما دون أي انفعال أو رد فعل، اضطر حمزة لتركها ليطمئن على وليد. طلب الطبيب من الممرضة إضافة دواء ما للمحلول، ثم أنب سارة في حزم وقال إن عليها ألا تسمح للمريضة أن تغادر حجرتها لأي سبب من الأسباب.

إلى إيمان ذهب، وكان الزحام قد خف، والمكان قد أصبح أقرب للهدوء مجددا، ولكن الصغيرة رقية كانت قد تحولت لنموذج للخوف من المرض والموت والمستشفى، أكثر تعبيرا بقسمات وجهها من خيال أي رسام يريد لوحة للفزع. ربت على رأسها، محاولا طمأنتها، لكنه أحس ارتعادها تحت يده. توجه بسؤاله إلى إيمان:

- فيه اخبار، حد خرج من عنده؟

- لأ، انا قلقانة عليه قوي.

حاول أن يطمئنها، وأن يقنعها بالرحيل لأجل الصغيرة، فقالت بصوت غاضب:

- مش هروح من غير وليد يا حمزة.

يعرف أنه لن يستطيع إقناعها بغير ذلك، ولكنه قلق لما قد يخبرها الطبيب به، ويرى أن العقل يحتم أن تتجنب رقية كل هذا المشهد الأليم.

وبينما يحاول أن يقنعها بهدوء، خرج الطبيب من الغرفة التي يسعفون فيها زوجها، موجها كلامه لحمزة:

- انت حمزة؟

أومأ برأسه أن نعم، بينما وقفت إيمان في تحفز منتظرة أن تسمع عن زوجها، لكن الطبيب استمر في توجيه كلامه لحمزة:

- تعالى معايا لو سمحت.

واستدار مبتعدا دون كلمة أخرى، فتعلقت رقية بأمها أكثر، وضمتها إيمان إليها في مزيد من الخوف، بينما تحرك حمزة بخطوات ثقيلة مرهقة، ودخل وراءه حجرة جانبية صغيرة مليئة بأرفف الأدوية وعبوات المحاليل. أغلق حمزة الباب وراءه، فقال له الطبيب مباشرة:

- انت عارف ان وليد عنده سرطان في الرئة في مرحلة متأخرة جدا؟ هو لما فاق طلب ان مراته وبنته ما يعرفوش، وسأل عليك وقالي اقول لك انت هتتصرف.

هز رأسه موافقا، أو ربما محاولا أن يوافق على كل هذا الهم الذي قررت الحياة أن تمنحه مسئولياته. سأل الطبيب:

- طب هو ينفع يروح معانا النهارده بس، وانا هجيبه تاني بكرة.

عقد الطبيب حاجبيه.. حالة وليد متدهورة لا يمكن الاعتناء بها في المنزل. قال:

- مستحيل طبيا مراعاة حالته في البيت. لو خرج يبقى هتكتبوا تعهد على نفسكم انه خارج على مسئوليتكم.

كان وليد هو من طلب منه ذلك واتفق عليه منذ أخبره بأمر مرضه. خرج إلى زوجة صديقه محدثها:

- ممكن تستني برا بقى في الاستقبال، وانا هجيب وليد عشان يروح معانا.

لم تصدقه تماما، ولكن كان قلبها يبحث عن الاطمئنان، فاستجابت وأخذت ابنتها معها وتحركت للخارج، بينما اتجه حمزة إلى الغرفة التي يقطن بها وليد، فوجده قد استفاق ولكن حالته صادمة، وقد تعود أن يراه مليئا بالحركة والحماس للعمل مهما بلغ تعبه. قال حمزة:

- هتخرج النهارده.. زي اتفاقنا. المدام ورقية بره تروّح معاهم وبكرة هاحاول أجيبك لوحدك، ولو اني مش عارف ازاي.. أنا بصراحة شايف انه حقهم يبقوا......

قاطعه وليد بإشارة حاسمة من يده، فلم يجادله. هذا المنهك في فراش النهاية لا طاقة به للجدال. أنهى الأوراق، وطلب سيارة إسعاف تنقل وليد للبيت، وخرج إلى إيمان، فأخبرها أن تركب مع وليد بسيارة الإسعاف، وسيأخد هو رقية في السيارة ويمشي وراءهم مباشرة. على أي

حال، حتى لو انتقل بالإسعاف، فقرار ذهابه للبيت طمأن إيمان بعض الشيء، ولكن بقي شعور الخوف والقلق في قلبها، وسألت حمزة:

- طيب لو هو مش قادر يروح وهيتنقل بالإسعاف يبقى ليه؟! ما يكمل علاج في المستشفى الأول.. أنا خايفة النزيف ده يتكرر تاني، ده...

قاطعها حمزة:

- هو بخير، بس بالإسعاف علشان مرهق جدا من النزيف اللي حصل. وهو عايز يرجع يرتاح في البيت، أنتِ عارفة مبيحبش جو المستشفيات

استسلمت، وربما قابل ذلك في نفسها تعطشها للاطمئنان ولو كذبًا. ركبت مع زوجها في سيارة الإسعاف، وتبعهم حمزة ومعه رقية، التي بدأت تستجيب لمداعباته، وتترك للابتسامة فرصة ولو صغيرة على وجهها. صعدوا جميعا إلى الشقة، ووضعه المسعفون على فراشه، وعلقوا المحاليل بأربطة إلى شماعة حائط عالية، وعلّموا إيمان كيف تتابعها وتغير العبوة كلما فرغت، ثم ذهبوا. اطمأن حمزة إلى استقرار الحال بهذه الأسرة الصغيرة مؤقتًا، ونزل عائدًا إلى المستشفى، ليطمئن على ود. نظر في ساعته وهو يركب السيارة، فقلب شفته في ضيق، فلم يعد الوقت يسمح أن يتصل بصغيرته. أحس أنه يفتقدها ويحتاجها وبأنه مقصر في حقها كثيرًا في الفترة الأخيرة، لكن ليس بيده..

- والله يا علا مش بايدي.. بس هاعوضهالك أكيد
استيقظت ود بعد حوالي ساعتين، تنظر حولها بعين ناعسة من أثر المهدئ القوي الذي أضافه الطبيب، ولا زال ساريا ببطء في دمها مع قطرات المحلول الذي أخذت تراقبه، وتتساءل في نفسها عن جدواه، ثم تمتمت بكلمات ممزوجة بالبكاء، وهي تتذكر حبيبة:

- مش هنستحمل نعيش من غيره، روحنا كانت فيه.

ذرفت دموعا كثيرة، لم يفلح حضن سارة في تخفيفها. لقد أصبح السواد حول عينيها شاهدًا على ما في صدرها من ظلام الحزن. أصبحت وحيدة، ولن يعود من تركها للوحدة أبدًا. غلبها المهدئ ثانية، فرجعت للنوم مرة أخرى، في نفس توقيت وصول حمزة خارج غرفتها. وقف يتأملها من وراء نافذة زجاجية، فابتسمت له سارة من مكانها، فهز رأسه لها مبتسما، فتحركت إليه لتطمئنه عليها. سألها باهتمام عن أخبار ود، فأجابت:

- هو الدوا مخليها هادية دلوقت بس وبعدين!.. أنا غلطانة فعلا اني سمعت كلامها وخرجتها تشوف اللي بيحصل.. مش عارفة انهي مخ ده اللي خلاني اسمع كلامها!

سألها:

- هي الحالة اللي دخلت بالليل دي كانت فعلا حبيبة ، حبيبة خالد؟

- ما اعرفش.. مش متأكدة.. ولا ود نفسها شافتها ولا تعرف أهلها بس بتتعامل مع الموضوع انها هي اكيد وان...

ظهر القلق على وجهها، فاستحثها حمزة لتكمل:

- في ايه؟ انت مخبية حاجة؟

- ود مصرّة ان هي كمان مش هتعرف تعيش من غير خالد.. بتقول ان هي وحبيبة روحهم متعلقة في روحه ومش هيعيشوا من غيره!

ضاق صدره بما سمع حتى كاد يختنق. كان الشروق قد اقترب، فاستأذن من سارة أن يجلس بجوار ود لبعض الوقت. أخذ يتأملها يراقب نبضات قلبها وأنفاسها، وملامحها التي حُفرت بداخله، والإرهاق يكاد يغلب جفنيه لينام قليلا، لكنه يغالبه ليملأ عينه منها أطول وقت ممكن. واستيقظت فجأة، لتدب الروح فيه وينسى كل إرهاقه ونعاسه.. قابل عينيها بابتسامة صافية، وبحنان واضح قال:

- الحمد لله انك قومتيلي بالسلامة.

أخذت سارة جانبا لتترك لهما مساحة الكلام. حاولت ود أن تعتدل في جلستها فقال:

- خليكي مستريحة زي ما انتي.

اعتدلت في جلستها ثم قالت:

- انا أحسن جدا دلوقتي، وهامشي أول ما النهار يطلع.

تداخلت الصور والمناظر في رأسه ومخيلته، ثم قال لها مترجيا:

- طب ينفع تيجي معايا دقايق؟

نظرت له في حيرة ولم تجب، لم يترك لها حرية الاختيار.. لم ينتظر ردها، أمسكها من كفها متجاهلا رد فعلها أو نظرات سارة، ثم فك فرامل السرير، ولفه تجاه الشباك.

كانت السماء تتلون بدرجة من درجات الرمادي، ولم تشرق الشمس بعد.. اقترب منها وأمسك بيدها، وأشار بيده الأخرى إلى السماء وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تحبها وتطمئن بها.. لم تتكلم، فقط استمتعت بمنظر الشمس التي يظهر منها جزء بعد الآخر في إبداع سماوي يملأ القلب بالأمل. كان يريد أن يزيح من على قلبها شيئا من وجعه، وان يجعلها ترى النور صاعداً من قلب الظلام.. ولكن دون جدوى، فقد نظرت له من وراء دموعها ثم قالت:

- خالد مات يا حمزة!

***

- خالد مات يا ماما.

قالتها حبيبة وهي في غرفتها بالمستشفى، لوالدتها التي تجلس بجانبها ممسكة بمصحف صغير تقرأ فيه بتركيز، قطعه صوت ابنتها تتمتم بهذه

الكلمات. وضعت المصحف جانبها، ثم اقتربت لابنتها التي يتساقط الدمع من عينيها بلا توقف، وقالت

- طيب يرضيكي يعني خالد يزعل منك؟

فتحت فمها عن آخره، ثم قالت بصوت بائس:

- لأ، خالد يزعل لأ.

اقتربت والدتها منها، وضمتها في حنان. بكت حبيبة بكل ما في صدرها من حزن، ملتجئة لحضن والدتها، ناعية حلمها الذي سرق منها، وكل كبيرة وصغيرة بينهما تمر بعقلها دون توقف..

كل موقف..

كل كلمة..

كل شيء في ملامحه وتصرفاته الرجولية الحنونة.. حتى سكوته ونظرته للقمر وهي تعاتبه.. لقد أرادت الانتحار لتعجل لقاءها به، رافضة أن تصدق أن الله يمكن أن يعاقبها لأنها تريد أن تكون مع حبيبها. لم تفكر في المعاناه التي سيعانيها الجميع بفقدها وبطريقة فقدها أيضا، فهي لم تحسبها بطريقتهم، وإنما حسبتها بمعاناتها من بعده. مشاعرها النقية القوية تجاه خالد لم تكن محض مراهقة كما كانت تنبهها أمها كل فترة، بل هي تعرف وواثقة أنها ستبقى تنتظره دوما وتنتظر لقاءه.

صغيرة حبيبة على مواجهة هذه القسوة.

لقد واجهت فجأة أكثر الحقائق ألمًا، الموت.

- طيب يا حبيبة خالد مات وهو بيصلي.. يعني هيروح الجنة.. لو عايزة تلاقيه يبقى لازم تروحي الجنة انتي كمان مش تنتحري يا بنتي!

نظرت إلى أمها تسمعها ولا تكاد تفهم ما تقول. الجنة! كان خالد جنتها.. رجعت برأسها للوراء وأغلقت عينها متذكرة ما حدث...

كانت حبيبة في سريرها، مُمسكة بالسلسلة التي أهداها لها خالد بين كفيها، ملتصق بصرها بها، ترى فيها ملامحه، تبكي وتصرخ في داخلها، بدون أن يسمعها أحد. يعلم جميع من في المنزل أن ما يجمعها بخالد ليس زمالة فقط. تكلمت مع أمها بوضوح أن هناك مشاعر متبادلة بينهما، وإن نظر الجميع لتلك المشاعر على أنها حب المراهقة. لم تبال هي أو هو بتلميحات الجميع أن هذه المشاعر ستتلاشى في يوم من الأيام، باعتبار أن أبناء الـ ١٧ عاما لا يملكون فهم الحياة ولا حتى فهم أنفسهم. تستطيع أن تجزم أن سبب جميع الخلافات بين الأجيال السابقة والحالية، هو التهميش أو اتهام الأصغر دائمًا بعدم الدراية والإدراك وفهم الحياة.

تذكرت كلام خالد لها عن الحياة وعن أحلامه التي يريد أن يحققها برفقتها.. لم يكن خالد صغيرًا أبدًا، بل إن عقله كان ناضجًا أكثر من كثيرين شابت رؤوسهم. تتذكره، فيزداد نزيفها الداخلي ووجعها بشكل لا يوصف.. إنه هذا الشعور بأن روحك تسحب منك عنوة ولا تستطيع التنفس. سمعت أحدهم بالخارج يقول: "مش من بقية أهلنا يعني علشان

ده كله".. نعم لا يربطها به الدم.. لكن رباط القلب صلة أقوى بكثير. هذا الذي يتحدث عن رابطة الدم لا يفقه عن القلوب شيئا.

تملكتها فكرة رباطها الوثيق بخالد مهما حدث.. ارتدت ملابسها السوداء، وخرجت من غرفتها متجهة لباب المنزل، فاندهش الجميع لخروجها من غرفتها التي لم تغادرها منذ عودتها من المقابر، واستوقفتها والدتها:

- رايحة فين يا حبيبة.

أرادت أن تصرخ في الجميع أنها ذاهبة إلى من يربطها قلبها به أكثر من كل دماء العالم. نظرت لها بهدوء ولا مبالاة واضحة على ملامحها، وردت بنبرة حزينة مجروحة:

- مصدعة يا ماما ومش عارفة انام، هنزل اجيب حاجة من الصيدلية.

تحركت ناحيتها وضمتها قائلة:

- خليكي انتي يا حبيبتي.. هنزل اجيبلك انا، أو حد من اخواتك يجيبلك وهو جاي.

ابتسمت ابتسامة منكسرة، ثم قالت بثبات:

- لا يا ماما.. هنزل وهرجع علطول مش هتاخر.

استسلمت والدتها لرغبتها، وتركتها تنزل، وخرجت للشرفة تتابعها.
نزلت حبيبة إلى أقرب صيدلية، وطلبت من العامل هناك دواءً منومًا، ودست في يده ورقة فئة الخمسين جنيها، فدخل مغافلا الصيدلاني المنشغل من زحام الزبائن، وأتاها بشريط به أقراص صغيرة، أخذته وغادرت.

رجعت المنزل في أقل من خمس دقائق، ودخلت غرفتها.. ولم تخرج منها إلا محمولة على ذراع شقيقها الأكبر مهرولا بها إلى المستشفى.

***

ساعدت سارة ود لارتداء ملابسها، في حين انتهى حمزة من الإجراءات اللازمة للخروج، وبدأوا يستعدون للرحيل، حين دخلت إليهم هبة ووالدة سارة. بعد أن اطمئن الجميع على حال ود، سألها حمزة:

- هتروحي على فين.

فأجابت بدون تردد، حاسمة أمرها وهي تنظر للجميع:

- على بيتنا.

همت سارة بالكلام، فنظرت لها ود بحنان وهدوء وسبقتها قائلة:

- مسيري هرجع البيت يا سارة.. يبقى اواجه الحقيقة من دلوقتي احسن من بعدين.

استجاب الجميع لرغبتها، بعد محاولات إقناعهم التي لم تحيدها عن قرارها. وافقها حمزة على هذا القرار، ولكنه أضاف:

- أنا من رأي ود؛ بس مينفعش تكوني في البيت لوحدك.

ثم نظر لصديقتيها، وتابع كلامه راجيا:

- سارة وهبة يقعدوا معاها فترة.. على الأقل فترة الامتحانات؛ منه ماتبقاش لوحدها في البيت ومنه يساعدوا بعض في كل حاجة لغاية ما الفترة دي تعدي على خير.

وقفوا جميعا على باب المستشفى، فأخذ هو خطوات للأمام ليستوقف لهم تاكسي. قالت والدة سارة:

- معلش يا حمزة.. وقفلي تاكسي انا كمان عشان انا هروح

فقال مبتسما:

- خلاص يا ماما.. اتفضلي اركبي انتي التاكسي ده، وانا هوقف واحد تاني ومش هسيبهم غير قدام البيت.

ربتت السيدة على كتفه، ثم ركبت وغادرت في سلام.

نظرت الصديقات الثلاث لبعضهن البعض، ثم قالت ود:

- أنا تعبتك معايا قوي الفترة اللي فاتت دي... قبل أن تكمل حديثها، قاطعها في حسم:

- أنا فاهم يا ود انتي خايفة من ايه.. انا مش هنزل حتى من باب التاكسي عشان الناس وكلام الناس.. بس انا فعلا مش هسيبك تروحي لوحدك مهما كان السبب.

للتو، اكتشفت أنه يوجد من هو أكثر عنادا منها، فهزت كتفيها مستسلمة لقراره. ركبوا جميعا أول تاكسي قادم، متجهين إلى بيتها. خائفة هي من كل شيء، بعدما فقدت الجميع.. لم يتبق لها سوى صديقتاها وحمزة مجهول الهوية في حياتها.

وكان حمزة في الكرسي الأمامي يراقبها في المرآة الجانبية للتاكسي، ويفكر أنها من اليوم مسئولة مسئولية كاملة منه، ولكن كيف يفعل ذلك في ظل الظروف الحالية، وكل كلمة أو تصرف من ود تحت مراقبة الجميع. سينتظر لها هؤلاء الجميع أن تخطئ لينهشوا فيها؛ كعادة البشر لا يساعدون ولا يدَعون أحداً يحيا كيف يقرر دون أن تناله ألسنتهم، ويكون اغتيابه بل وبهتانه تسليتهم في جلسات النميمة إلى جوار اللب والفيشار.

كان يرى البنات الثلاث في المقعد الخلفي وقد بدأن يندمجن في حديثهن مخفضات أصواتهن، فأحس بشيء من الراحة والاطمئنان أكثر على ود. أن تبدأ التفاعل مع من حولك تلك إشارة جيدة لكونك بدأت تتغلب على مشاكلك الداخلية وتضع أحزانك في ركن الذكريات بعقلك، بعيدا عن ركن قيادتك وتوجيهك، وهو أكثر ما كان يخاف عليها منه، أن يوجه الحزن تصرفاتها وهي وحيدة جدا في شقتها، عرضة في لحظة لقرار متهور كقرار حبيبة. لم يكن يتخيل أنه يعشقها إلى هذه الدرجة.. ذلك الإحساس اللطيف الذي ولد بداخله في أول يوم رآها فيه قد كبر وترعرع بمرور الوقت، حتى أصبح عشقها كشجرة دبت جذورها داخله

وتفرعت غصونها في خلاياه وانتشرت أوراقها ورائحتها في باقي الجسد مع دمه، فما عاد يمكنه الفصل بين أجزائه وبين عشق ود.

وصلوا إلى العنوان المحدد، فنزل الجميع ماعداه. انتظر بالتاكسي حتى اطمأن عليها؛ ثم طلب من السائق أن يأخذه إلى عنوان آخر، ثم اتصل بوليد ليخبره أنه في الطريق إليه. مع مكالمة وليد، تذكر فجأة أنه نسي أمر السيارة، فقد تركها أمام المستشفى، فطلب من السائق أن يعيده للمستشفى مرة أخرى، حيث حاسبه، وأخذ السيارة ليتمم ما يجب عليه فعله، حتى لا تعرف زوجة وليد ما يحدث، بناء على رغبة وليد، التي لم تعد مقنعة بالمرة بعد هذا التدهور الأخير، ويرى أن من حقها أن تفهم ما يحدث، وأن تستعد نفسيا للقادم الأصعب، حتى إنه يشعر بتأنيب الضمير لانه يداري عنها الحقيقة، ولكن على أي حال هو لا يريد أن يتدخل فيما لا يعنيه.

وصل، ففوجئ بوليد منتظرا أمام المنزل، وزوجته وابنته في الشرفة تودعاه. ركب وليد بجانبه، وقبل أن ينطلقا احتد حمزة قائلا:

- ازاي نزلت؟ ازاي شلت المحاليل وبتخاطر بالشكل ده؟!

أشار له وليد أن يهدأ، وقال محاولا بث شيء من المرح:

- انت مش واخد بالك اني بقيت خبرة في موضوع المحاليل ده وللا ايه؟

قال حمزة في إلحاح:

- لازم يعرفوا يا وليد.. صدقني لازم يعرفوا.

نظر له وليد مفكرًا.. يعرف أن معه حق، لكنه يتمنى أن يمشي الأمر كما خطط له. زفر في ضيق ثم قال بنبرة حزينة:

- هيعرفوا في الوقت المناسب.

ضغط حمزة على دواسة الوقود، وانطلق إلى المستشفى دون أن يزيد كلمة. يقدر تماما ما على وليد من ضغوط لا تحتمل المزيد من الإلحاح، حتى وإن أخطأ القرار. قبل أن يصلا، بدأ وليد في التحدث بهدوء، وكأنه كان يرتب أفكاره طوال الطريق.

- انا هتعالج.. مش عشاني خالص، انا هاعمل ده عشانهم.. بس انا لازم اروح البيت كل يوم عشان ماحدش يحس بحاجة.. وانت اللي هتباشر الشغل الفترة دي.

هز حمزة رأسه بالإيجاب، دون تفكير في مدى اقتناعه بالكلام.

وصلا للمستشفى، وتوجها مباشرة للطبيب الذي يتابع حالة وليد، وتكلما معه في رغبتهم في تغيير طريقة العلاج أو توقيته وكل شيء يمكنهم من إخفاء الأمر عن إيمان ورقية. كان الطبيب متفهمًا لشعور وليد، لكنه طلب منه إعادة التفكير في الأمر، لأن حالته لا يمكن إخفاؤها طويلا بعد المرحلة التي وصل إليها. حاول إقناعه أن معرفة زوجته ربما تكون أخف وطئا من مفأجاة أخرى مثلما حدث بالأمس، وربما يتشاركان هو وزوجته في إعفاء الصغيرة رقية من هذا المشهد مجددا.

في النهاية، ترك حرية القرار لصاحب الشأن، واتفقوا على كل شيء، ثم تركهما حمزة للإعداد لجلسة العلاج الكيماوي في المستشفى، ليذهب لمتابعة أمور العمل بالشركة، على أن يعود له في آخرٍ اليوم. قبل أن يذهب، أشار لوليد بإبهامه علامة التفوق وقال مشجعاً:

- انت قدها.. وهترجع لمراتك وبنتك بالسلامة.

هز وليد رأسه بابتسامة يائسة، وغادر حمزة وهو يردد اسم علا بشفتيه، معاتبا نفسه على طول حرمانها من رعايته، ولكن ما زال ليس في يده إلا الاتصال بهناء ليطمئن عليها من بعيد.

***

من اكتسبت صديقة حقيقية في هذا الزمن المزيف،
اكتسبت حياة كاملة.

- ٦ -

على سريرها الكبير، الذي كان يومًا ما فراش أبويها، جلست ود وصديقتاها بملابسهن المنزلية حول صينية طعام أعدتها هبة في تحدٍ مرح مع سارة. كانت ود معهما وليست معهما، فهي لم تنطق بكلمة ولاً حتى تأكل. تبادلت الصديقتان النظرات، ثم غمزت سارة لهبة، التي قالت لود في نبرة مشاغبة:

- مين اللي واخد عقلك يا جميل؟

استغربت ود من السؤال، وقبل أن تجيب، ردت سارة مكملة وصلة المزاح:

- أكيد حمزة يعني مش عايزة سؤال

دق قلب ود بسرعة، واحمر وجهها استحياءً من صديقتيها، لم تتعود أو تسمح لهما بالاقتراب منها إلى هذا الحد في الكلام. لكن اليوم الوضع مختلف..

ليس فقط مختلفًا ولكنه يفرض نفسه على كل قراراتها السابقة في الحدود والفواصل وعلاقاتها بالناس. إنهما الآن معها في منزل واحد وغرفة واحدة، تحلان مكان أهلها.. مكان خالد. لكن خالد نفسه لم يكن يقتحم نفسها وخصوصيتها هكذا. قالت ود وهي تشعر بضيق من اختراق مساحتها الخاصة:

- لا خالص , انا بس ماليش نفس والله.

شعروا بحرجها، فقامت سارة من على السرير، وقد انتهت من طعامها، وجلست على الأرض مقرفصة وقالت في مرح:

- انا ماجيبتش كتب معايا، يعني مافيش مذاكرة النهارده.

وقبل أن تتابع حديثها، قاطعها رنين هاتفها، فأخرجته من جيبها وقرأت الرسالة، وابتسمت نجلا. أعادته مرة أخرى مكانه، فغمزت هبة لود ثم وجهت كلامها لسارة:

- طب ما تفرحينا معاكي.. الرسالة اللي خلتك جبتي ألوان دي من مين يا هانم؟

قمن ثلاثتهن متشاركات في غسل الأطباق وعمل الشاي، ثم بدأت سارة في الكلام.. كانت قد فكرت أثناء وجودهم بالمطبخ واتخذت قرارها أن تحكي لهما، لسببين.. أولهما أنها ربما تغيِّر أجواء الحزن تدريجيا، وثانيهما أنها رأت أن الوقت قد حان لتعبر الحواجز المنيعة التي لم تستطع سنين الكلية أن تعبرها بهن إلى مزيد من الألفة والاقتراب. قالت:

- هحكي بس بشرط.

تحمست ود لأول مرة منذ فترة لسماع أي شيء، وقالت هبة:

- شرط ايه؟

غمزت لهما بعينيها، لتصبح كطفلة صغيرة تداعبهما في شقاوة، وتابعت:

- انتوا كمان تحكوا.

هزت هبة رأسها في مرح قائلة:

- انا بموت في الرغي أصلا.

فنظرت لود، التي هزت رأسها في استسلام. أخذت كل واحدة منهن كوبها، واتجهن إلى الصالة، لكن قبل أن تجلسن قالت ود:

- لأ، يلا ندخل جوه.. أمان اكتر.

صمتت سارة وهبة متفاجئتين.. لقد أصبحت تخاف من البيت أكثر، وفكرن أن الأمر لم يعد طبيعيا. صارت تخيفها وحشته، بعد مغادرة الجميع إلاها، وستكون هي الوحيدة المتبقية من سكانه في غضون أيام قليلة قادمة، فوجود سارة وهبة معها مؤقت، لن يسمح أهلهما باستدامته.

ضمتاها بحنان، ثم اتجهن إلى الغرفة، ليحاولن البدء في المرح من جديد.جلسن متقاربات، وبدأت سارة تحكي أولا، وقد أمسكت بكوب

الشاي، وأسندت ظهرها لزجاج الشرفة. كانت تغالب خجلها، فتتكلم في انفعال وتلوح بيدها، كمدرس يحاول أن يبسط المعلومة لتلاميذه. قالت:

- أولا احنا مافيش بينا غير رسالة مجنونة كل فترة....

قاطعتها هبة:

- ايه الجنان ده، ليه؟!

ضمت أصابعها مشيره لها بالصبر، فسكتت.. وبدأت سارة تخبرهما بمحتوى الرسالة، فقالت:

- الرسالة مكتوب فيها "بنتي بقالها كام يوم منزلتش الجامعة، وانا قلقان عليها.. طمنيني عليها لو سمحتي وقوليلها اني بحبها وانها واحشاني اوي.. وان الجامعة من غيرها........

جامعة برضوا عادي :P "

قالت هبة بحماس:

- مين المجنون ده وعرفتيه ازاي.

رجعت برأسها للوراء، تتذكر حبيبها " علي " وطريقته وكلامه.. تتذكر كيف لهذا الشاب المرح المجنون أن يكون بهذه الحكمة وهذا العقل والخلق.

في بداية السنة الثانية في كليتها، من المفترض أن جميع طلاب دفعتها ليسوا بالجدد الذين يسألون عن أماكن المحاضرات أو الجداول.. وعلى غير

العادة، كانت قد أتت إلى الكلية مبكرا في ذلك اليوم، فلم تجد ما تفعله، سوى أن جلست بمفردها تعبث بهاتفها وتنتظر صديقاتها.

كانت قد جلست في مساحة خضراء تحت شجرة، واضعة السماعات في أذنها، تستمع إلى موسيقى تحبها، منعزلة عن العالم الخارجي. لم تر هذا الشاب الواقف في الجهة الأخرى وهو متقدم نحوها، ولم تنتبه إلا لشاب طويل القامة بالنسبة لها، ينظر إليها بعين عسلية، ويمرر أصابعه في شعر أسود داكن، وله لحية خفيفة، يقف أمامها مباشرة، ويكلمها وهي لا تسمعه. نزعت السماعات من أذنها معتذرة، فقاطعها قائلا:

- من غير لف ولا دوران انا طول السنة اللي فاتت وانا براقبك في الكلية ومعجب بيكي جدا.

ابتسمت وهي تنظر له وقالت:

- وايه كمان؟

شعر أنها تعامله كمتحرش، تريد أن تستدرجه في الكلام، ثم تكيل إليه ما شاء له القدر، فعقد حاجبيه وقال:

- من غير تريقة لو سمحتي.. انا ولا بعاكس ولا بتعرف.. انا فعلا معجب بيكي وعايز اتجوزك.. بس انا ماينفعش اجي اتقدم غير لما اخلص كلية.

علت ضحكتها قليلا، فزاد حنقه، لكنه تابع:

- لو سمحتي ما بحبش الأسلوب ده، اسمعيني للاخر وبعدين قولي ردك.

أخذت نفسا، ثم هزت رأسها مستمعة، فقال:

- انا مش هقولك رقمك ونتكلم والجو ده.. انا بس عايز منك كلمة انك هتستنيني وانا مش هاجي جنبك ولا هاكلمك غير يوم ما اقولك اني جاي اتقدملك.. بس اعرف انك هستنيني.

شعر بالعرق على جبينه، فلم يبال به وتابع:

- انا سايبك عند ربنا أمانة.. بقالي سنة بدعي ربنا كل يوم انه يحفظك ليا..

بس فاضل ٣ سنين مش ضامن ايه اللي ممكن يحصل.. فممكن آخد منك رد.

لمست في كلامه صدقًا جذبها، واطمئنت لنبرة صوته ولكونه يؤمِّن الله عليها، فقالت وقد تغير وجهها من الضحك إلى الحياء:

- انت بتتكلم بجد؟!

هز رأسه في إيجاب، وأقسم لها أنه جاد، ثم قال:

- يمكن انتي ماتعرفنيش كويس.. وعشان كده مش عايزك تردي عليا دلوقتي.. انا بعد اسبوع هاجي اسألك عن ردك تكوني سألتي عني وفكرتي كويس.

انتبهت من شرودها على صوت هبة..

- انتي بتسرحي بينا صح؟

هزت رأسها نفيا وقالت:

- والله أبدا، ده اللي حصل.

خرجت ود من صمتها سائلة في شغف:

- ها وبعدين.

رجعت سارة لذكرياتها مرة أخرى..

سألت عليه بفضول الأنثى، لتعرف ما وراءه، فربما فعل هذه الحركة وقال هذا الكلام لغيرها من قبل. فوجئت بأن ما داعب قلبها من تمنّي هو ذاته الحقيقة التي شهد له الجميع بها.. عرفت عنه الهدوء والخلق والتميز في السنة الماضية، حتى استغربت أنها لم تره إطلاقا من قبل، وضحكت من نفسها إذ بدت كأنها الوحيدة التي لم تعرفه. وبعد مرور أسبوع، جاءها يسألها، فأجابت بكلمة واحدة:

- موافقة.

قالتها بخدود زادت حمرتها من الحياء، وغادرت مسرعة لا تستطيع النظر في عينيه. لمحته بطرف عينها يدور حول نفسه في مكانه فرحا، فأحست أن قلبها يبتسم وليس وجهها. جلست في المدرج، ولمحته يدخل إلى المحاضرة، ويجلس بعيدا، وكأن شيئا من كل ذلك لم يحدث،

فصدقته أكثر، وبدأت تتعلق بدنياه المبهمة، التي لا تعرف عنها إلا قليل مما تلمحه من بعيد.. تعلمت منه العشق من بعد، والحب في هدوء وسكينة.. تعلمت منه الحب في رضا الله، فبعد أن اطمأن لموافقتها به لم يفعل كالجميع؛ لم يحاول أن يكلمها أو يضايقها، بل التزم بوعده تماما. إلى أن غاب عن الكلية أسبوعا كاملا، فبمجرد أن ظهر، ذهبت له بعين محمرة حولها هالة داكنة، تسأله وتعاتبه:

- كنت فين كل الأسبوع ده..

تحركت مشاعره مرة واحدة كبرق يكهربه، فتمنى أن يضمها إليه.. ولكن تمالك نفسه وهو يتأمل إرهاق عينيها، فيراه أجمل ما يمكن ان يرى في فتاة تخاف عليه ويفعل القلق بها أفاعيله، ثم قال:

- كان في شغلانة كويسة لمدة اسبوع هعمل فيها مبلغ كويس فقولت استغلها يعني.

رفعت حاجبها دهشة، وهمت بالجدل، فقاطعها قبل أن تبدأ:

- بصي يا سارة.. انا عايز اتجوزك.. ومش مستعد اتعاقب بيكي.. احنا دلوقتي مش زمايل يعني كلامنا مع بعض فيه مشاعر.. بس لسه ده مش وقتها.. أنا بحبك وانتي عارفة ده.

سكت لبرهة مستمتعا بوقع الكلمة عليها وخجلها الجميل، ثم أكمل وهو يخفي ابتسامة منتشية:

- وبكده يبقى كلامنا مش كلام زمايل.. انا عايز ربنا يباركلي فيكي ومايحرمنيش منك.. احنا مش هيكون بينا كلام غير لما يكون في بينا حاجة رسمي.

على الرغم من أنه أحرجها إلى حد ما، إلا أنه أسعدها بكلامه، وشعرت أنها ملكة متوجه على قلبه. تابع:

- لو غِبت تاني لفترة أكيد هاكون بشتغل أو في ظروف، أنا هاشتغل وهادرس عشان بدل ما اجيلك بعد ٣ سنين يمكن يبقوا سنتين ولما اجي بيتكم ابقى معايا اللي اقدر أكرمك بيه قصاد أهلك.

حاولت أن تشرح له شيئا، لم يمكنها هي نفسها التعبير عنه، لكنه رآه في عينيها أجمل من الكلام، فقال بهدوء وثقة وهو يقطع ورقة من دفتره ويخط عليها شيئا:
- ده رقمي.. ماتبعتيليش عليه غير لو غِبت لحد ما قلقتي. وانا كمان لما توصلني مسج منك هاسجل رقمك وابعتلك لما تغيبي عني. وبكده نبقى وصلنا لحل وسط.. مع انه ممكن يكون مش صح قوي.

ضحكت من قلبها، ثم قالت بمرح:

- انت تحفة.

ألقت هذه الكلمة، وغادرت مسرعة وهي تشعر بنظرته تتابعها وتحتضنها.

قطع إنصاتهن لسارة رنين هاتف ود، التي نظرت إلى اسم المتصل، ثم خرجت من الغرفة لتجيب. تبادلت سارة وهبة الابتسامة، وقالت هبة ضاحكة:

- أكيد حمزة اللي خلاها تنسى انها كانت من شوية خايفة تقعد بره واحنا معاها ودلوقت خارجة تقعد بره لوحدها

ضحكت سارة وردت:

- طيب ما تقوليش لوحدها بس

- صحيح.. دي معاها الدنيا كلها يا أختي آه ياني من البنات وعمايلهم.

في الخارج، ردت ود على حمزة وهي مضطربة.. كانت من قبل ترتاح حين يكلمها وتنسى همها، لكن مؤخرًا أصبحت، بقدر ما تشتاق إليه وتتمناه وحده لمؤازرتها، بقدر ما تقلق كلما وجدته. اطمأن عليها، وأوصاها أن تعتني بنفسها إلى أن يراها في القريب العاجل. طمأنته قدر ما استطاعت، وسألته عن علا، ورجته أن يهتم بها كثيرا. أنهت المكالمة سريعا، ولم يثقل عليها هو، مقدِّرًا حالتها. وقفت شاردة لدقائق، لا تدري ماذا يخبئ لها الزمن معه، وإن كانت لا تنكر أن صوته بث فيها بعض الطمأنينة.

عادت مرة أخرى لصديقتيها، اللتين ظلتا مترقبتين للحظة، فلما لم تتكلم، أعفتها سارة من الحرج وقالت بمرح:

- وبس يا ستي وبقالنا سنتين اهو كل اما حد يغيب التاني يبعتله مسج.. بنحب في بعض بعنينا بس.. لغاية ما يكون بينا حاجة رسمي.

ثم قالت وهي تخرج هاتفها من جيبها..

- استنوا هاقرا لكم رسالة قديمة بحبها قوي..

"عينيكي وطن، فماتسيبينيش أتغرب"

طبعت قبلة على شاشة الهاتف وأردفت في مرح:

- الصراحة انا مبسوطة بالطريقة دي، حاسة اني برنسيسه كده.. وهو راجل في كلمته، كان عايز يجي البيت آخر السنة اللي فاتت بس انا اللي قلت خلينا بعد مانخلص خالص عشان افضاله.

أنهت كلامها والفرحة في عينيها واضحة، فقالت ود:

- يابختك بيه.

فردت هبة بنبرة ساخرة:

- اتوكسوا، هو في أحسن من الحب والارتباط والخروج والفسح.

جلست ود بجانب سارة على الأرض، لتستمعا إلى هبة، فنظرت في ساعتها، لتعلن أن الوقت تأخر..

- يلا ننام بقى وبكرة نبقى نكمل.

لم تعترض ود، بينما ألحت سارة مدعية أنها...

- لا بقى أنا كده اتضحك عليا

لكن هبة شدت الغطاء عليها وهي تقول:

- بكرة واحنا بنجيب جدول الامتحانات هابقى احكي لكم كل حاجة.

أطفأن الأنوار، ولم يستغرقن إلا قليلا حتى ذهبن في نوم عميق متجاورات، مطمئنات ببعضهن البعض.

***

تعلم حمزة ما يكفي من لغة الإشارة على اليوتيوب، للتفاهم مع عصام بسلاسة. لم يكن يحتاج ذلك، لكن من قال إن السعادة فقط في تحقيق حاجات النفس، بل إن السعادة الأكبر تملأ النفس عندما تكون سببا في إدخال السرور على قلوب الآخرين. وبالمقابل، فإن هذا الشاب الذي فقد والده، قد اكتسب أخًا كبيرًا يحنو عليه، ومنح حمزة ودًا حقيقيا وإحساسًا بأخوَّة لم يكن له منها نصيب. كان حمزة يؤكد لنفسه دائمًا أنه ليس صاحب الشخصية المثالية التي يتخيلها الجميع، ويحذر نفسه من أن يغره كلام عصام أو غيره. كلما تكلم حمزة عن تعويض الله له عن والده بحمزة، كان حمزة يردد في نفسه أنه لم يعمل إلا خيرًا يقدمه لنفسه في المقام الأول، فيكفِّر به عن ذنب اقترفه يومًا، حتى وإن لم يدركه.

استيقظ حمزة مبكرًا، على صوت علا بجانبه تناديه وتهزه يمينًا ويسارًا ليستيقظ. فتح عينه، ونظر لها بحنان مبتسمًا، ثم ضمها لقلبه وطبع قبلة علي جبينها وقال:

- انتي لو مراتي مش هتطلعي عيني كده.

- اصحى يا عم في واحدة واقفة على الباب بره عايزاك.

قالتها علا، فانتفض من مكانه وهو ينظر في ساعته، ليجدها العاشرة صباحا. مَن تراها تلك التي جاءت إلى مكانه، الذي لا يعرفه أحد. تناول هاتفه، ليجده مغلقًا، نخرج ليجدها سكرتيرة الشركة، فأخذ نفسا عميقا، بينما قالت هي بنبرة مضطربة:

- باتصل عليك من الساعة ٨ يا أستاذ حمزة.. الأستاذ وليد عايزك ومش عارف يوصل لك.. وماكانش فيه حل غير انه يخليني اجيلك البيت عشان اصحيك.

ضرب مقدمة رأسه بيده في ندم، ثم قال:

- طيب استني هاجيب لك مفاتيح العربية اقعدي فيها ١٠ دقايق هالبس واجيلك.

أخذت المفاتيح ونزلت، ودخل هو مسرعا، فدخل الحمام، ثم بدأ في تبديل ملابسه، فطرقت علا الباب، فرفع سرواله مسرعا ونادى عليها أن تدخل.

جلست على السرير تنظر له في تعجب، وقالت في جدية أكبر من سنها كثيرًا:

- انا بقالي كتير ماقعدتش معاك، على طول انت بره وانا فوق.

قال وهو يرتدي قميصه، وهو يعي غباء ما سيقول، ولكن ما باليد حيلة:

- هو حد بيزعلك فوق يا حبيبتي؟

هزت رأسها نافية، فتابع ببسمة حانية:

- والله غصب عني يا حبيبتي. بس قريب قوي هنقعد مع بعض كتير وهنسافر كمان.

انفرجت أساريرها وابتسمت تلك الابتسامة الجميلة التي تشع من قلبها قبل وجهها. انتهى من ارتداء ملابسه، وخرجا من الشقة معا، فخرج هو إلى الشارع، وأسرعت هي تصعد السلم إلى هناء. خرج وألقى التحية على عصام، وأشار له فيما معناه:

- يعني انا ماصحيتش بدري اخد منك فول زي كل يوم، ماتجيش انت تصحيني.. تسيبني يروح عليا نومة كده.

ضحك عصام وقال مشيرا بيده:

- نسيت والله، حقك عليا.

أشار له مبتسما، وتوجه إلى السيارة، وهو يتصل بوليد ليخبره أنه في الطريق إليه. أوصل السكرتيرة إلى مقر الشركة في طريقه، ثم اتجه إلى المستشفى ليعرف ماذا يريد وليد.

دخل لحجرة وليد مباشرة، فألقى السلام وسأله مباشرة في قلق:

- انت كويس؟

فقال وليد مضطربا:

- أنا تمام، بس وصلني ايميل بيقول ان الحاوية فيها مشاكل في دخول الميناء، وهيبعتوا واحدة تانية، وهتوصل كمان ٣ ايام وكده هنتأخر على العملاء.. الحل ايه؟

ضرب حمزة كفا على كف "لا حول ولا قوة الا بالله" قالها، ثم نظر لوليد وقال في ضيق:

- احنا يدوب بنثبت نفسنا في السوق.. التأخير ده طبعا هيضرنا. عاد فأخذ نفسا عميقا وقال:

- ماتقلقش انت انا هتصرف.

أخرج هاتفه، وخرج إلى الشرفة واتصل بالعملاء واحدًا تلو الآخر، يطلب منهم فترة سماح مقابل تقليل السعر.

ظل وليد يتابعه في صمت، حتى انتهى، ثم قال بعصبية:

- كده ماعملناش حاجة، هي هي نفس الخسارة.

ابتسم ابتسامة نصر ثم قال:

- ميزة دول شرق آسيا انهم كل حاجة بيكتبوها في العقود مش بيمشوا على كلمة راجل زي حالاتنا.. أنا هابعت أطلب تعويض بسبب التأخير، ودي في دي وخلاص.

هدأ وليد وأخذ يحسب الأمر في رأسه. لم يكن الوضع هكذا سيئا جدًا، ثم إنه لا يوجد حل آخر. في النهاية قال:

- جهز نفسك يا حمزة هتسافر كوريا آخر الشهر عشان تخلص صفقة هناك.

استغرب وبان اندهاش حمزة، فقال وليد بحنان أب:

- أنا مش هقدر أسافر بحالتي دي.. والشركة محتاجة الصفقة دي ضروري لأنها هتنقلها نقلة كبيرة. معلش المرة دي هتسافر لوحدك، فجهز نفسك بقى.

شكره حمزة على ثقته، فأعاد عليه ما يقوله له مرارًا وتكرارًا عن أنهما شريكان، وكلاهما يثق في الآخر، فلا فضل هناك ليشكره عليه.غيَّرا الحديث عن العمل إلى السؤال عن أحوال وليد وتطور العلاج، واطمئن حمزة عليه إلى حد كبير، ثم تركه ليذهب إلى العمل.

***

أول شيء فعله بعد خروجه من المستشفى، هو الاتصال بوده.

وضع الهاتف على أذنه، وانتظر.. جاء صوتها هادئا بلا تعبير، فسألها:

- انتي كويسة؟

كانت وقتها في الجامعة، تصوِّر بعض الملازم، وتنقل جدول الامتحانات. ينتابها خوف حقيقي من كل شيء حولها، ولم تنكر ذلك، بل بالعكس كانت تنتظر صوته لتبثه مخاوفها..

- كل حاجة بتخوف يا حمزة.

دق قلبه قلقا عليها، فسكت ولم يجد ما يقول، فتابعت:

- أنا آسفة.. من يوم ما عرفتني وانا تاعباك معايا.

سكت قليلا ليفكر إن كان التوقيت مناسباً لما كان قد قرر أن يحدثها فيه. قال بحنان:

- انتي فين دلوقتي؟

أخبرته أنها في الجامعة، فاقتنص الفرصة، وتابع بلهجة آمرة ممزوجة بالمرح:

- طب ماتتحركيش من عندك.

أنهى المكالمة، واتصل بالسكرتيرة، ونظم معها أمور العمل، بحيث يأتيها متأخرًا، بينما يتجه إلى الجامعة. لم يعد هناك متسع من الوقع ليضيعه بعيدا عنها.. لم يعد هناك مجال لأن تخاف من أي شيء وهي معه. في أقل من نصف ساعة، اتصل عليها لتخرج له أمام بوابة الجامعة، فأعطت هبة مفتاح الشقة، وقالت:

- لما سارة تيجي خديها وروحوا على البيت، وانا هعمل مشوار صغير ومش هاتأخره

للمرة الثانية أقلقتها نبرة صوتها. تتكلم ود بهدوء لم يعتده منها أحد، وكأن هذه الروح المرحة انطفأت مرة واحدة. قالت هبة وهي تقاوم سؤالها عن تفاصيل أكثر:

- حاضر يا حبيبتي.. خلي بالك من نفسك.

ابتسمت لها ود، وهمت أن تقول لها إنه حمزة فلا تقلقي، لكنها عادت فآثرت أن تنصرف صامتة، واتجهت نحو باب الجامعة، وهو معها على الهاتف ويشير إليها من مكانه، حتى رأته في الزحام، فاتجهت إليه، وركبت بجانبه، فانطلق بالسيارة، وود صامتة تماما، تنظر من النافذة تتابع لا شيء. لم يقاطع صمتها بأي كلمة.. يعرف أنه في بعض الأحيان يفضل الإنسان الصمت، وإن لم يحب الوحدة، ونادرا ما تجد من يحترم هذا السكوت متفهمًا، ويظل بجانبك سندا وأمانًا.

وصلا للكافيه التي جلسا فيه في آخر لقاء لهما، وقبل أن يجلس، طلب لهما وجبتين سريعتين من الدجاج المقلي والبطاطس، ثم قال:

- عارفة يا ود.. ابويا الله يرحمه كان قال لي حاجة ماعرفتش قيمتها غير لما عرفتك.

ارتسم التساؤل على وجهها، فتابع مبتسما لأنه نجح في إثارة انتباهها:

- كان دايما يسألني انا ليه مابشوفلكش اصحاب بنات زي اصحابك في الجامعة، فكنت باقول له يا حاج البنات عقلهم صغير قوي وانا ماليش خلق.

لمعت عينه لتذكر والده، وحبس دموعه وأكمل:

- قال لي "يابني لو قلبها قلب عيل صغير وعقلها عقل حد كبير.. اتجوزها".

مسح عينه قبل أن تهرب دمعته منه، وتابع:

- كنت لما اسأله انت عمرك ندمت على جوازك بامي، كان يقول لي ان امي احسن ست في الدنيا.. بس اللي انا مستغربه هي ازاي هتقدر تعيش من بعده مع واحد تاني.

شعرت ود بما يدور بداخله. تعرف هذه الحالة من الحنين والخوف من كل شيء، فأتى دورها لتخفف عنه بنبرة مرحة، لأول مرة بعد الأزمة الأخيرة التي مرت بها:

- ايوة يعني انت عايز ايه دلوقتي.

قالتها ساخرة كاسرة كل مقاييس الرومانسية، فأجاب بنفس الطريقة الساخرة:

- عايزك تدوريلي على عروسة.

قالها، ولم يستطع أن يمسك نفسه من الضحك. أخرجت نظارتها من حقيبتها، ووضعتها على عينها بحركة مضحكة كموظفين شئون الطلبة، وقالت:

- عدي عليا بكرة اكون شوفتلك عروسة.

ضحكا من قلبيهما سويا، ثم قال بحنان:

- عايز اتجوزك يا وده

وضعت النظارة على المنضدة، واحمر وجهها ولم تجب.. تابع:

- احنا مش صغيرين.. انا محتاجلك في حياتي الفاضية عشان تمليها.. وانتي محتاجة سند وضهر في الدنيا.. وانا اوعدك اني اكونلك سند.

تعرف أنه بالفعل أصبح كذلك منذ أن تقابلا. لم تكن تتوقع أن يطلب منها هذا الطلب في هذا الوقت.. لقد تطورت علاقتهما بشكل سريع، دون أن يدري أي منهما سبباً لذلك. بما كان السبب هو انتظار كل منهما للآخر من قبل أن يتقابلا بكثير. التزمت بالصمت، فقال:

- هو ده وقته يا ود.. ماينفعش تفضلي لوحدك.

شبكت أصابعها، ونظرت في عينه نظرة طويلة، ثم قالت بهدوء:

- اديني وقت افكر.. انا بمر بظروف وحشة.. محتاجة أقيم الأمور بشكل تاني.

تعلم أنه الوقت المناسب، ولكن تريد ألا تندم.. إنها وحيدة جدًا، هذا يجعلها تحتاجه، ويجعلها أيضا تفكر ألف مرة، فلو أخطأت القرار لن تجد ظهراً من أب ولا أخ. قطع كلامهما النادل، الذي وضع طلبهما على الطاولة. انتظر رحيله، ونظر في عينيها مباشرة ليرى داخلها، ثم قال ضاحكا:

- موافق بس بشرط.

استغربت ود من طريقته، وهزت رأسها مستفهمة، ليتابع بنفس الطريقة:

- تردي عليا بسرعة عشان نتجوز قبل آخر الشهر، يعني بعد امتحاناتك بأسبوع.

فتحت فمها من الدهشة.. لم تتوقع حدوث شيء كهذا بهذه السرعة. فكرت قليلا، وجدت أن خوفها من القرار لا معنى له، خاصة أن سارة وهبة لن تبقيا معها كثيرا. قالت:

- بس بشرط.

رفع حاجبه متربصا لها لتقمصها نفس دوره، فتابعت:

- تديني البطاطس بتاعتك.

سكت كثيرا ونظر لها باستغراب، فقالت:

- انت كاتب في المعلومات عندك ان أهم حاجتين في حياتك هما علا والبطاطس.

ضحك من فرط المفاجأة وقال:

- افتحي موبايلك كده وخشي عندي واقريهم تاني.

فتحت هاتفها ودخلت على الصفحة الشخصية له. نظرت له مرة أخرى بحنان وعشق واضح في عينها التي لمعت من روعة المفاجأة:

- ايه ده؟.. غيرتها من امتى؟

رد وهو يحرك البطاطس من امامه باتجاهها قائلا:

- " الود بالنسبالي أهم حاجة في الحياة.. انك تلاقي حد يودك يحبك يهتم بيك دي حاجة حلوة.. انما لما تلاقي الود نفسه.. فده أحلى بكتير، فماتسيبهوش."

لم يكن من السهل أن تدخل ود في هذه الحالة من العشق بين لحظة والأخرى. هربت بعينيها من عينيه، فنظرت إلى الطعام، لتجد طبق البطاطس الخاص به أمامها. فقالت:

- خلاص عفونا عنك.. طالما ماطلعتش أهم حاجة.

بدءا في تناول الطعام، فتذكرت فجأة شيئًا وقالت:

- انا ماعرفش حاجة عنك لسه!

قال وهو يأكل بعض من البطاطس:

- على الرغم انه مش مهم تعرفي عني المهم تعرفيني..

وأظن انك عرفتيني بس عندك حق.. خلصي امتحاناتك وانا هاحكيلك على كل حاجة.. بس أنا عايزك تركزي.

هزت رأسها، وللحظة شعرت بأحساس طفولي في حضرته.. شعرت أنه يذكرها بمعاملة وكلام أبيها لها. انتهيا من تناول الطعام، وخرجا من المطعم، ليقوم بتوصليها ويطمئن عليها، وأخذ طريقه إلى الشركة لينهي بعض الأوراق.

***

جلسن حول المكتب، وقد فاتهن الكثير في الأيام الماضية، والامتحانات قد أزفت بعد أيام قليلة. وقبل أن تبدان، قالت سارة بجنون كعادتها:

- لأ.. مش هتذاكروا ولا كلمة غير لما هبة تحكيلنا، انتو ضحكتو عليا وخلتوني احكي وانتو لأ.

تبادلن النظرات، فقالت هبة بتذمر:

- احنا مش هنخلص من جنانك انا عارفة.

ضحكت سارة، فقالت هبة وهي تترك أقلامها وكتبها أمامها:

- انا حكايتي بسيطة جدا

تابعت ود باهتمام، وقالت سارة بمرح:

- احكي يا ست البسيطة.

أغمضت هبة عينها لثوانٍ، لتتذكر أول موقف جمعها بحبيبها، هذا الشاب الذي فعل شيئا لم نتوقعه منه. كانت ومازالت هبة مهووسة بالشعر والشعراء، وتجتهد في محاولة كتابة أبيات قليلة مترابطة متناسقة بشكل شعري، ولا يقرأ لها سوى أصدقائها في الجامعة أو على الفيس بوك.

قالت هبة وترتسم علامات السعادة على وجهها:

- كنت قاعدة في الكلية عادي، لاقيته جاي وبيديني هدية ملفوفة لفة شيك كده..

ضحكت وهي تقول:

- كنت لسة هاقوم أضربه بالقلم، بس هو خد خطوتين لورا وقال لي "بس افتحيها".

تحفزت سارة وود لسماع المفاجأة، فتابعت هبة:

- لاقيته جمع كل الحاجات اللي بنزلها، وكتبها ونسقها وحط لها صور، وعمل لها غلاف كمان، وراح المكتبة طبعها وجلِّدها. رغم انه عارف اني مش شاعرة أو مش مهتمة أصلا أن يكون لي كتاب. بس هو حب يجمع الحاجات بتاعتي، وعمل منها نسختين، واحدة له وواحدة اداهالي.

أمسكت هبة أقلامها، وهمت بالمذاكرة، فخطفت منها سارة أغراضها وقالت:

- كملي يا بنتي بقى.

ضحكت هبة وهي تغمز لود التي تعرف كل شيء:

- بس يا ستي وصحيت من النوم.

- يعني ايه؟

قالتها سارة وهي تعقد حاجبيها ضيقًا، فقالت هبة:

- أنا اللي عايزني ييجي يكلم بابا يا سارة..

اللي عايزني يجيلي البيت.. وبس بقى يلا نذاكر.

ألقت سارة الأقلام أمامها وقالت بضيق:

- واللي حكيتيه ده ايه؟

قالت هبة بحزن:

- ده حلم من الأحلام اللي مابتتحققش وماينفعش تتحقق. مش كل حاجة عايزينها ينفع تتعمل، حتى لو كانت سهلة مش صعبة في نظر أي حد.. يلا الحمد لله.

قاطعتهم ود بنبرة حاسمة:

- خدي جنب يا سارة بكتبك بقى، ويلا يا هبة عشان نذاكر.

وصل هذا الكلام بتفاصيله لحمزة عن طريق ود خلال مكالماتهم الهاتفية ، اطمئن عليها، شكر الله على وجود هبة وساره بجانبها . مرت الأيام عليهن متشابهة.. مذاكرة وإمتحانات ومضايقات من الجيران بلا سبب سوى عدم وجود رجل في المنزل. وحمزة دائمًا حولهم، وإن لم

يقترب حرصا على سمعة ود، يطمئن عليها باستمرار، ويحاول أن يروح عنها ضيقها وتوترها من الإمتحانات. آمنت ود بنفس بتفكير هبة لسنوات عدة، ولكن وحدتها ووحشتها وترتيب الأقدار لمصادفة لقائها بحمزة وأخيرًا فقدانها لأغلى الناس، خالد، كل ذلك فرض عليها الوضع الحالي. ولم تكن ود مستاءة من هذا، بل لقد أحبت هذا الوضع كثيرا، معللة لنفسها تغيُّر رأيها بأنه لم يتبق سوى القليل وتنتقل للمرحلة التي ترتضيها في علاقتهما، بأن حمزة جاد في الأمر بما يكفي لتثق فيه.

على غير العادة، كثرت زيارات أعمامها لها، وهو ما لم يكن منطقيا وهم يعلمون أنها مشغولة بالامتحانات، ولم يكن أيهم يأتي إلا ضيفا تضطر للقيام عن مذاكرتها لمضايفته وتقديم ما يتاح في البيت له، إلى آخر واجبات الضيافة، التي لا وقت لها مع الامتحانات ومع كل ما ضاع من وقت، ومع قسوة الظروف التي أثرت على تركيزها كثيرًا. حين كانت هبة تقول لها إنهم على كل حال أهلها وضيافتهم واجبة، كانت ترد عليها أن أحدهم لم يفكر أن يكون عونًا، بل يجيئون كضيوف لا كأهل. في النهاية، قالت ود لعمتها، التي تعلم جيدا أن كل كلمة ستقولها ستصل للجميع:

- زي ما سيبتوني لوحدي بعد بابا وماما، سيبوني لوحدي بعد خالد.

وكما توقعت، خرجت عمتها من عندها إلى منزل العائلة، وأخبرت الجميع بما جرى، فقرروا عقد جلسة عائلية، يناقشون فيها أمر ابنة أخيهم، وطلبوا حضورها. أنهت مكالمة عمها، واتصلت فورا بحمزة، وأخبرته بما

جرى. سألها عن المكان الذي سيعقدون جلستهم فيه، وسألها إن كانت تحتاج أن يأخذها بالسيارة إلى هناك، فشكرته ورفضت في تلطف. أخذ يطمئنها أن الأمر لن يعدو بعض نصائح الكبار ثم لا شيء، ويلح عليها ألا تفكر كثيرًا في الأمر، كي لا تضيع المزيد من الوقت، لأن الامتحانات أولى بوقتها.

وحان الموعد، وذهبت ود وحدها لتواجه كل هؤلاء الكبار منفردة.

جلسوا جميعا في الصالة الكبيرة، وجلست ود على كرسي منفرد، تستمع لكلامهم ونصائحهم، وعروض الزواج المتكررة من هنا وهناك، وهي لا تجيب ويظهر الملل والاستياء على وجهها إلى الحد الذي أغضب بعضهم.

قطع كلامهم صوت الجرس، ففتح طفل من أحفاد عمتها، ودخل حمزة عليهم. اتسعت عينا ود من الدهشة، ودق قلبها قلقا، ولم ينظر هو نحوها نهائيا، بل تحرك ووقف في منتصف الصالة موجها كلامه لأكبرهم سنا:

- السلام عليكم.. أنا آسف اني جاي من غير سابق ميعاد أو معرفة.. أنا جاي اطلب ايد ود.. عايز اتجوزها.

تداخلت الأصوات وجميعهم يتكلمون في وقت واحد، لا أحد يسمع ما يقول الآخر، فقامت ود من مكانها متجهة لحمزة قائلة بصوت طغى على أصواتهم جميعا، قائلة:

- وانا موافقة.

كانت كلمة "عايز اتجوزك" أهم بكثير من "بحبك" في هذه اللحظة بالنسبة لود. خطفها من بينهم بهذ الكلمة، فضربت نساء العائلة كفا على كف، وهتف الرجال أنهم بريئون منها ومن أفعالها، حتى إن أحد شباب العائلة، الذي منذ لحظات يترقق ويتودد ليكون الزوج القادم لها، قام محاولا الهجوم على حمزة، فتأهب حمزة للمواجهة، لكن أوقفته ود قائلة بصوت مرتفع ونبرة حازمة، وهي تعلم أنه بظهرها أمانًا لها:

- انا عديت الـ ٢١ سنة.. شرعا وقانونا انا مش غلط في اللي هاعمله.. واللي هيتعرضلي في حياتي هاعمله محضر تعدي.. كفاية بقى، طمعانين في اخوكو وهو عايش وكنتو واخدين خيره كله، ولما مات طمعانين في لحمه، ولما مات خالد طمعانين في اللي باقي. كفاية ماعنديش اللي تطمعوا فيه ده هي الشقة ومعاش هيقف يوم ما اتجوز وانتو أدرى الناس الباقي كله راح فين، يبقى عايزين مني ايه؟!

أنهت كلماتها، وأعطتهم ظهرها وغادرت مع حمزة، وهي تتأمل الوجوم الذي حل عليهم، وتهز رأسها متذكرة تلك الحكمة الخالدة أن الحق يعلو ويلجم الضالين. حضور حمزة كان له أثره الدافع لها لتنهي المهزلة من جذورها. لم تتخيل أن يعرض نفسه لهذا المواقف ويأتي وهو لم يزل بلا ارتباط رسمي بها، ليواجه عائلتها رغم كل ما حكته له عنهم. حمزة لم يتركها وحدها، والإنسان لا يحتاج لأكثر من أن يجد الرفيق الذي يسانده كي يحطما معا كل التوقعات.

حمزة أيضا لم يتخيل أنها بهذه الشجاعة. عندما قرر الذهاب إليها، توقع أنه مقدم على حرب لا محالة، وأنه من سيساندها ويدفع عنها مكيدتهم، لكن ما حدث أنها هي من كانت سنده هذه المرة. خرجا معا يحتمي فيها ويحتويها، وتحتمي فيه وتحتويه. خرجا معا من هذه المكان، لا يتمنى سواها ولا تمنى سواه، وملء نفسيهما ثقة أنهما أحسنا الاختيار، وأنهما معا سيصنعان حياة حقيقية، لا وحدة ولا وحشة فيها.

***

النهايات دائما تكون بداية لشيء آخر.. فانتظر.

- ٧ -

مازالت إيمان زوجة وليد وابنتها رقية قلقتين عليه، رغم محاولاته الدؤوبة لإظهار تحسن حالته، وهو ما يخالف الحقيقة. لقد انتهت رقية من امتحانات آخر العام، وكانت تريد من والدها أن يذهب بهم لمطروح، كعادتهم كل عام. بالطبع حاول وليد أن يتحجج بانشغاله في الشركة الجديدة التي تحتاج وجوده، ويؤخر رده على رقية كل يوم إلى الغد.

جلس وليد أمام الطبيب، الذي انشغل بالنظر في صور الأشعة. وأخيرا، أخذ نفسا عميقا، ثم هز رأسه نافيا، فابتسم وليد ابتسامة مكسورة، وقال وهو يقوم من مكانه

-مافيش أمل.

تمنى لو أن الطبيب ناداه وحاول أن يوبخه على يأسه ويقول أي شيء يسانده، لكنه لم يفعل، فغادر الغرفة والمستشفى بأسرها وقد قرر ألا يضيع أيامه الباقية وأمواله في علاج لا جدوى منه. اتصل بإيمان لتجهز

حقائب السفر، وهو يريد أن يعيش برفقتهما ما تبقى له في الحياة بأجمل ما يمكن أن تكون الذكريات. سألته إيمان مستغربة إصراره المفاجئ على السفر، فقال وليد بنبرة هادئة:

- مافيش وقت نضيعة يا ام رقية من غير ما نكون سوا، مبسوطين.

أقلقها كلامه، لكنها قامت بتفيذ رغبته، منتظرة شرحا مفصلا منه لهذا الكلام حين عودته. أنهى المكالمة واتصل بحمزة، يطلب منه أن ينتظره في الشركة، ولكنه حين وصل لم يجد في نفسه قابلية للصعود، فاتصل بحمزة لينزل إليه. ركب بجانبه، وطلب منه أن يتوجه للمنزل، ثم عاد فطلب منه أن يأخذ طريق كوبري قصر النيل. نظر له حمزة باستغراب وسأله عن السبب، فأجاب وليد:

- عايز اتكلم معاك شوية، وعايز اقعد على النيل.

زاد قلقه على وليد، ولم يجادله، بل نفذ له ما يريد منطلقا إلى كوبري قصر النيل. ركن السيارة، وترجلا منها، ووقف وليد ينظر للنيل طويلا. وحمزة بجانبه صامتا، محترما شجونه. طال الصمت، فأشار حمزة بيده إلى مكان بعيد، وقال لوليد وهو يضحك:

- أنا ساكن هناك.

لم يبتسم وليد لمحاولة حمزة، وإنما تنهد في ألم، ثم سأله:

- علا عاملة ايه يا حمزة؟

وقبل أن يجيب، أخذ وليد نفسا ثم تابع:

- أنا استجدعتك من يومها.. أول ما قلت انك هتاخدها تعيش معاك وانا قلت انك اكتر حد ممكن أأمن له على بيتي وعيلتي.

ضحك بوجع ثم قال:

- مافاضلش كتير.. مافيش أمل من أي حاجة.. حتى المسكنات مش جايبة نتيجة.. ماحاولتش اتناقش مع الدكتور بس الواضح من كلامه ان خلاص.. أنا في آخر مرحلة من المرض.

اختلج صدر حمزة ألما وضيقا لكنه قال لوليد بهدوء:

- ماتقولش كده، الاعمار بيد الله.

نظر له بهدوء:

- الحمد لله.. بس احنا برضه نعمل اللي علينا.. انا هطلع مطروح اسبوع مع رقية هي ومامتها، انت خد بالك من الشغل لغاية مارجع، ده لو رجعت.

لم يعقب حمزة على هذا الكلام المتشائم اليائس من الحياة، فبالفعل كان وليد يعافر بأقصى ما يمكنه لإنكار النهاية وللعمل على سعادة زوجته وابنته، حتى لم يعد يمكنه بذل المزيد.. أحيانا يكون الركون لليأس راحة حقًا. قال له وليد وهو يخرج ظرفا من جيبه:

- الظرف ده فيه كل الورق اللي هتحتاجه لترتيب أمور الشغل لصالح رقية وإيمان في حالة لو حصلي حاجة.

حاول أن يقاطعه، لكن سعل وليد بقوة حتى خاف حمزة أن يهاجمه النزيف، لكن الله سلم، وأخذ وليد نفسا عميقا، وتابع:

- يا حمزة مافاضلش كتير. اسمعني للآخر. رقية أمانة في رقبتك.

ها هو وليد يلقي على حمزة بحمل ثقيل جديد. اضطربت ملامحه للحظة، لكنه سارع فأخذ نفسا ليستوعب الأمر، وليخفي همه عن ذلك الرجل الذي لا يحتمل أدنى اعتراض. قال له:

- ربنا يطول في عمرك ياعم وانت اللي تعمل لها كل حاجة بنفسك.

شعر وليد أنه اطمأن ولو نسبيا على ابنته، فاستدار متوجها إلى السيارة، فتبعه حمزة في صمت تام واتجه به للمنزل.

أصر حمزة على توصيل وليد وأسرته لمطروح، ثم سيعود ليباشر عمله.

فصعد وليد ليتفقد تجهيزاتهم للرحلة، واقتنص حمزة الفرصة ليتصل بود ليطمئن عليها ويخبرها بآخر الانباء. كان يشعر أنها مسئولة منه وهو مسئول منها، وان عليه أن يخبرها بكل تحركاته.. وربما أيضا ينتظر منها دعاء أم لابنها المقبل على سفر. ردت عليه بعد اول جرس، فقال بصوت يملؤه الحنان:

- وحشتيني.

- عايز ايه؟.. مش فاضية بذاكر عندي امتحان بكرة.

ضحك لنبرتها الصارمة، وكأنما تخبره بأن صديقتها بجانبها، فقال لها:

- انا مسافر مطروح مع وليد ومراته وبنته وهرجع بالليل.

قامت ود من مكانها، لتستطيع محادثته بحرية، فقالت بضيق ممزوج بخوف:

- لا ماترجعش بالليل يا حمزة، عشان خاطري.

شعر بخوفها عليه، فلم يجادلها.. وافقها على الفور وتابع حديثه:

- يبقى هارجع بكرة عليكي في الكلية اخدك بعد الامتحان.

اكتشف في هذه اللحظة أنه منذ أحبها وإلى الآن لم يقل لها ولو مرة واحدة كلمة "بحبك". الحب أفعال وليس كلمة واحدة تختصر جميع الأفعال والمشاعر. الحب هو أن تخاف على من تحب، حتى من نفسك لو اضطررت لذلك. أنهى المكالمة معها وقد نزل وليد وابنته، وعادت هي لصديقتيها المبتسمتين، لتضع عينيها في كتابها دون كلمة.

نزل يساعدهم في وضع الحقائب في مكانها، ثم ركب الجميع، وانطلق بهم ووليد بجانبه، وفي الخلف رقية بجوار والدتها التي وضعت السماعات في أذنها وانشغلت بهاتفها النقال. ساد الصمت في السيارة، وأخذ حمزة يسترجع كلام وليد والأمانة التي حمّلها له، فأحس أنه يختنق بوجوده وسطهم، فضغط دواسة البنزين بعنف، ليصل في أقرب وقت.

***

وصلوا إلى الشالية في إحدى شواطئ مطروح، وكانت الساعة تشير تمام التاسعة مساء. ساعدهم حمزة مرة أخرى في إنزال حقائبهم، ودخل معهم يساعدهم في ترتيب أغراضهم. كانت إيمان وابنتها قد اعتادتا وجوده والاعتماد عليه واعتباره فرداً من العائلة. رقية الصغيرة قالت له ذات مرة إنه أصغر من أبيها كثيراً، فلا يمكن أن تقول له "عمو" وأن أباها يحبه كثيراً كأنه ابنه، ولذا فقد قررت أنه سيكون أخاها الكبير.

حين قال إنه سيعود إلى القاهرة في نفس اليوم ، صمموا جميعا أن يبيت معهم ويسافر في الصباح، وأن لا مجال لتركه يسافر على الطريق في ظلام الليل. لم يجد مفراً من البيت وقد تذكر طلب ود منه ذلك أيضا، فقال إنه سيقضي الليل في السيارة ويغادر في الفجر، فهتف وليد به:

- عربية ايه يابني اللي تبات فيها، الشاليه فيها كذا اوضه فاضية، انت شايفنا عشرة يعني!.. عيب كده.

في طريق العودة للقاهرة، لم تفارقه صورة ود، ولم يفارقه صوتها وهي قلقة عليه مصرة ألا يقود السيارة ليلا على طريق السفر. رأى في جمالها كمالا يريح عينه، وفي روحها احتواءً لروحه.. أحس أنها قريبة منه كما لو أن دمها يختلط بدمه، نبض قلبها هو ما يحييه. هو حقا متيم بها، لا يعلم ما يميزها عن غيرها، ولكن فقط هي التي يشعر انها خلقت لأجله.. خلقت من ضلعه.

تذكر عمر فجأة، وأنه لم يحكِ له تطورات أموره منذ فترة، فاتصل به يسلي نفسه في الطريق، ويعتذر له عن انشغاله الطويل عنه. يراعي عمر ظروف صديقه، ولا يعاتبه على غيابه، ودائما وأبدا يلتمس له ألف عذر، ويقابله كل مرة وكأنهما افترقا بالأمس، ويجيبه بالهاتف بنبرة صادقة. جاء صوت عمر من الجهة الأخرى:

- من لقى أحبابه...

ضحك حمزة، ثم قال لصديق عمره:

- ماهو انا مكلمك عشان أحبابي، هتشهد على عقد الجواز ولا اجيب ٢ شهود من براه

بارك له عمر بحرارة .. لم يصدق أن صديقه الذي لم يفكر يوما في الزواج، بعد تلك العقدة النفسية التي تسببت فيها والدته، سيتزوج ويقبل على هذه الخطوة بهذا الشغف. شعر في صوته بفرحة حقيقية. فقال عمر بحنان أخ:

- ربنا يتمم لك بخير يا حبيبي.. امتى بقى بالظبط.

- يوم الخميس إن شاء الله كتب الكتاب.. وهنسافر كوريا في طيارة الجمعة.

ضحك عمر كثيرا ثم قال له:

- لا انت عايز قعدة، انا عايز افهم ايه اللي حصل الفترة اللي فاتت دي. كوريا ازاي يعني ايه الجوازة التكنولوجية دي

كان يتكلم منفعلا ويضغط على البنزين أكثر، ليصل أسرع إلى ود، التي تنهي امتحاناتها وستتفرغ له من اليوم. قال لعمر:

- قشطة نتقابل النهارده في القهوة بالليل..

أغلق الهاتف، وقد أحس بالراحة لوجود عمر بجانبه. إنه قلق من هذه الخطوة رغم اشتياقه لها، ولكن يطمئنه أن الجميع يقولون إنهم مروا بهذا الإحساس. أخيرًا، وصل القاهرة، ثم الجامعة، فركن السيارة قريبا منها، وانتظر ساكنا مترقبا، فلم يزل من الوقت المحدد للامتحان نصف ساعة.

وبمجرد أن خرجت من الامتحان، أسرعت تخرج من الجامعة، فوجدته أمامها. ابتسمت بحنان، فتفتحت ملامحها كوردة، فقال في حنان:

- سمعت الكلام وما سوقتش بالليل.. ودي أول مرة اسمع فيها كلام حد.

ضحكت وهي تدخل إلى السيارة، ولف هو إلى الناحية الأخرى ليركب بجانبها قائلا:

- ماوحشكيش عصير الفراولة؟

ضحكت من أسئلته المفاجأة غير المتعلقة ببعضها وقالت:

- لا نشرب مانجا بقى المرة دي.

تحرك بالسيارة لأقرب كافيه، وجلسا ليتكلما معا ويناقشا ترتيبات الزواج. لقد وافقت عليه دون تردد، ولكن من حقها أن تعلم عنه كل شيء، وأن تشاركه التفكير في مستقبلهما معا. أتى النادل، فطلب حمزة لهما كوبين من عصير الفراولة، فرفعت حاجبيها في دهشة، لكنها لم تعترض. أخذ هو نفسا عميقا وهو ينظر لعينيها وقال:

- كتب كتابنا يوم الخميس.. وهنسافر تاني يوم نقضي أسبوع عسل في كوريا.

احمر وجهها من الخجل.. مهما كان قرار زواجهما جريئا، فذلك لا يتعارض مع حيائها. ركزت في الكلام مرة أخرى، ثم سألته:

- كوريا!.. ليه كوريا؟

شرح لها ظروف عمله، وأنه سيسافر أسبوعا إلى كوريا لينهي بعض الصفقات الهامة هناك. أمسك يديها بعاطفة أقرب لأن تكون أبوية وقال:

- ومش هقدر اسيبك لوحدك.. هتبقى معايا في أي مكان من دلوقت وفي كل وقت.

اطمأنت بكلامه.. أخيرا وجدت نصفها الثاني وإحساس السند والأمان.. رجعت بذكرياتها لأشياء كثيرة تريد أن تحكي له عنها، كما تريد أن تسمع منه كل شيء عنه. لم يكن يريد أن يعرف عنها أي شيء، مكتفيا بوجودها في حياته الآن، ولكن هي صممت على أن يكون بينهما يوم ليحكي كل منهم للآخر كل شيء عن نفسه، فسألها:

- تحبي نحكي هنا قبل ما نكتب الكتاب، ولا على البحر في كوريا لما نسافر.

راودتها أحلام كثيرة.. رأت وهي نائمة على صدره وهما جالسان على الرمال يحكيان ويحكيان ويقولان كلامًا كثيرًا حتى تزول الشمس. نظرت إليه وتمهلت لبرهة، ثم أجابته بابتسامة:

- لما نسافر.

طلب منها أن تنتهي من إعداد نفسها للزواج قبل الخميس، وأخبرها أنهما بمجرد عودتهما سيعيشون سويا في شقته الصغيرة، إلى أن يأخذ شقة أخرى في الفترة القصيرة المقبلة. الأهم الآن أنه لن يتركها بمفردها ولو يوم واحد. طلب منها أيضا أن تبقى سارة وهبة معها الفترة المتبقية، حتى لا تبيت بمفردها في المنزل، ولتساعداها في ترتيبات الزواج. كانت سعيدة بكلامه ونصائحه، ومتقبلة منه صيغة الأمر أحيانا في سعادة. لكم اشتاقت لهذه المشاعر.. إحساس أنها مسئولة من رجل يحافظ عليها وهي تمتلكه..

هو يحميها ويحتويها، وهي تعرف أنه يريد إسعادها. انتهيا من الحديث، دون أن تنتهي رغبتهما في الحديث، فقام بتوصيلها لمنزلها. ثم ذهب إلى بيته.

***

جلس في غرفته، ينظر لحياته من بعيد، يريد أن يعرف ماذا حدث.. هل سيظل يراقب ما يحدث، ويجعل الحياة هي التي تحركه؟ افتقد بيته.. صغيرته، وكتبه التي يهرب فيها من كل شيء. فتح الفيس بوك، وظل يتابع الأخبار من بعيد. تجلس في الجهة الأخرى علا، تتابع قناتها المفضلة. اتصل به عمر ليؤكد عليه موعدهما، فدعاه للعشاء معه في البيت، فوافق على الفور.

وقفا في المطبخ يعدان وجبة خفيفة، بينما بدأ حمزة يحكي لعمر ما حدث معه في العمل مع وليد. ثم حكى له عن ود، والظروف التي مرت بها، ومواجهة عائلتها، وكيف يشعر أنها مسؤولة منه الآن.

لاحظ عمر ارتباكه وقلقه وهو يتكلم عن ود، فسمعه إلى النهاية ثم سأله:

- حمزة، انت متاكد انك عايز تتجوز؟

فاجأه السؤال تماما، ففكر لبرهة، ثم أجابه وهو يداري ارتباكه:

- الجواز عموما لأ، بس عايز اتجوزها.. عايز ابقى معاها، جنبها.

رجاه عمر منه أن يأخذ وقته في التفكير واتخاذ القرار. قال له إن هذه الفتاة ليس لها أي ذنب بما مر به حمزة في حياته، ويجب إن أراد الزواج منها أن يتخلص من كل عُقَد الماضي أولا.. قاطعه حمزة حاسما الكلام:

- مش هسيبها لوحدها يا عمر.

سكت عمر، فنظر له صديقه بخوف:

- ود مش زيها يا عمر.. صدقني انا بعرف اطلع اللي شبهها من وسط ألف.

شرع يشرح له برنامجه في الأسبوع المقبل، من ترتيبات كتب الكتاب ثم السفر، فوعده عمر أنه لن يفارقه في الفترة القادمة إلا في المطار، بعد إقلاع الطائرة. شكره حمزة فضربه عمر في كتفه قائلا:

- ياعم اتنيل.

ضحك متذكرا كل ما ربطه بعمر من ذكريات.. كل شيء ساعده صديقه فيه. انتهوا من اعداد المكرونة والبانية، فجاءت علا على رائحة الطعام، وجلسوا ثلاثتهم على المائدة.

مرت الأيام الثلاثة على ود وصديقاتها، وأحيانا أم سارة معهن، سواء في شراء الاحتياجات، أو على الهاتف تقدم النصيحة، وكأن الوقت يجري منهن ولا يلحقن به، وهن تمضين كل دقيقة في انشغال، ما

بين شراء ما ينقص ود من وجهة نظرهن، رغم أن حمزة أكد عليها ألا تجهز سوى حقيبة ملابسها فقط؛ لكن هيهات أن تقبل عقول الإناث إلا أن تفعل ما تعلمته ورأته واشتاقت أن يأتي دورها لتفعله في هذا الموقف. كان يتابع معها كل شيء على الهاتف، ليطمئن عليها، وليحاول أن يجعلها لا تتذكر أحزانها وقت يجب أن تفرح. دوما استحق أن يكون زوجها بمحاولاته المستميتة لإسعادها، وهو أكثر من يحتاج إلى من يكرس حياته له ليسعده.

انتهين من كل شيء يتعلق بالعروس، من ملابس ونصائح وتجهيزات. وجلسن ثلاثتهن في غرفة ود، وكتب كتابها في اليوم التالي.. تنصحها سارة وهبة بنصائح لا تنتهي، وربما غير قابلة للحدوث في الواقع، فكلهن أصغر وأقل خبرة من الموقف، ولكن بأي حال، فمساندة الأصدقاء خير من حيرة الوحدة. تركتهما عندما جاءها اتصال حمزة، وقفزت مبتعدة بالهاتف وهي تضحك معهما بسعادة..

- جاهزة لبكرة يا عروسة؟

لم ترد، فتابع:

- ماتخافيش من حاجة يا ود.. انا جنبك.

شعرت بالراحة مع وقع كلامه داخلها، فقالت لأول مرة:

- ربنا يخليك ليا.

"ليّ".. إضافة هذه الكلمة لهذا الدعاء كفيلة أن تلون حياته بألوان مبهجة، وتمحو من ذاكرته أي وجع أو أسى. الفرق بين أن تقول "ربنا يخليك" وتخصيصهما معا في دعائها "الله يخليك ليا" جعل قلبه يقفز في صدره. طبع قبلة على الهاتف، فسمعتها، فاحمر وجهها ولم تعلق، فتركها تنتهي مما تفعل مع صديقتيها، بعد أن ختم المكالمة بقوله:

- بكرة هتباتي معايا في البيت عندي.

صعد الدم في رأسها، واحمر وجهها من الخجل، وقالت بحسم:

- لأ طبعا.

استغرب، ولكنه استوعب الموقف وتابع:

- يبقى آجي انا أبات عندك؟

بصوت غلبه الخجل، طلبت منه أن تغلق الهاتف لتنهي ما وراءها، فوافقها مبتسما، متخيلا وجنتيها في لون الورد.

***

الخميس، في تمام السابعة مساء، وقفت سيارة نخمة أمام الكافيه، وترجل منها رجل ببذلة أنيقة، وامرأة اقتربت من الخمسين، لم تفلح المساحيق في تصغيرها كثيراً.. تقدمت بخطوات ثابتة إلى مدخل الكافية، بينما وقف الرجل في مكانه، فعادت إليه متسائلة، فقال:

- بلاش انا دلوقت.. هاستناكي في العربية.

كان الجمع في الكافيه يلتف حول طاولة ضمت المأذون وحمزة، وفي المقابل جلست ود بفستان أبيض رقيق، ووقف عمال الكافيه، الذين يعرفونهما جيدًا، فرحين بزواجهما مباركين لهما وكأنهم عائلة متماسكة متحابة. وقفت بجانب ود صديقاتها وزميلاتها الأقرب، ووالد ووالدة سارة، بينما وقف بجانب حمزة عمر، وهناء وزوجها وأطفالها، وصغيرته علا، تلك البريئة التي سكنت قلبه منذ أن رآها، وعصام الذي صمم أن يكون شاهدا على عقد زواج أخيه، كما قال لحمزة بالإشارة. داخله سعادة لا توصف.. لأول مرة تغمره السعادة بهذا الشكل. نظر لصغيرته، وجذبها من يدها وأجلسها على فخذه، وبدأ المأذون إجراءاته.

الكل منشغل، والبسمة على وجوه الكل، حين دخل المكان رجل وامرأة لم يلتفت لهما أحد، فوقفا وسط الجميع والمرأة تنظر للعروسين في حنان. لمحها عمر فتحرك ناحيتها مبتسما ومحييا، فصافحها هي ومن معها ووقف معهما. انتهى المأذون، فبحث حمزة بعينه عن عمر، فرآه يقف مع والدته، فوجم تماما وسكت، فتحرك عمر إلى المأذون ليوقع مكان الشاهد، ثم مال على صديقه قائلا:

- اوعى تكسر بخاطرها النهارده.

نظر إليه حمزة لا يجد ما يقول.. حاول أن يتمالك أعصابه، وزفر ضيقا، ثم قال:

- ايه اللي جابها النهارده ومين اللي معاها ده؟.. أكيد جوزها.

اقتربت منه تهم بمعانقته وتبارك له، فرجع خطوة للوراء، محاولا تفاديها، فصممت على الاقتراب أكثر ومعانقته، فتركها تعانقه دون رد فعل منه.

كانت تريد إقناعه بتفكيرها، ولكن لم يكن هذا وقتاً مناسباً، لكنها عاتبته:

- ينفع كده اعرف من براه

نظر لعمر بضيق، فتابعت:

- كان لازم أعرف، عمر ما غلطش.. أنا أمك يا حمزة حتى لو مش متفاهمين لكن نحافظ على انك ابني واني أمك يا ابني.. ألف مبروك يا حبيبي.

كان زوجها يقف وراءها بخطوات، ولم يحاول أن يتدخل، أو حتى يبارك لحمزة، فما رآه منه لا يشجع على الإطلاق، فلام نفسه على موافقتها على الدخول معها. لكز عمر حمزة وأشار له بعينه نحو الرجل، فتقدم إليه وصافحه بطريقة رسمية باردة، وهو يفكر أن الرجل ليس له ذنب في أي شيء، فهذه المرأة هي التي فضلت نفسها واستقرارها على حياته. لم يعاتب عمر على إخباره والدته بأمر زواجه، فهناك تقف ود تراقب ما يحدث ولا تفهم شيئا، والموقف لا يسمح بأي عتاب أو رد فعل قوي، فشكر أمه وزوجها لحضورهما بأسلوب رسمي، ثم تركهما وعاد إلى ود، دون حتى أن يدعوهما للتعرف إليها. أخذ يد تلك الفاتنة، التي توجها

الآن في قلبه ملكة على كوكب الإناث جميعًا، فتوسط بها المكان، وبدأ يراقصها على أنغام الكمان، الذي بدأ أحد عمال المكان العزف عليه، هدية منه لزبونه المفضل، حمزة. فقط رقصة قصيرة لدقائق، أغرقتهما في حلم السعادة اللانهائية وانتقلت بهما إلى سماوات بعيدة عن الزحام والدنيا والمشاكل والأحزان، ولم يعودا يريان إلا وجهيهما معا ممتلئين بالحب والأمل.

اتصل به وليد، وطلب منه تشغيل الصوت لتسمعه العروس ليهنئها هو وإيمان ورقية، ثم قال معاتبا في مزاح:

- ما كنتوش قادرين تستنونا لما نرجع من السفر.

ضحك حمزة وقال وهو يغمز بعينه لود، ثم قال:

- ملحوقة.. لما تيجي أتجوز تاني.

ضحك الجميع، ثم تابع:

- ما كانش ينفع والله يا وليد.. عشان ينفع تسافر معايا بكرة كوريا.

أخذ وليد نفسا ثم قال ممازحًا:

- يعني انت رايح تقضي اسبوع عسل مش شغل بقى.

رد حمزة بحماس مرح:

- ايوووة.. بالظبط كده.

بارك له هو وإيمان ورقية، وتمنوا لهما حياة سعيدة، ورغم أنهم لم يلتقوا ود نهائيا، إلا أنهم أوصوه بها خيرا، فابتسمت سعيدة بما عرفت عن طبع طيب لواحد من أقرب الناس لحمزة. قال وليد بنبرة هادئة، لينهي المكالمة محاولا تجنب الحديث حالته الصحية :

- خلص شغلك أول ما توصل، عشان تبقى فاضي للعروسة باقي الأسبوع.

نظر حمزة في ساعته، وأشار لود وأشارا بالتحية للجميع، وهما يخرجان للسيارة التي زينها له عمر. ركبت ود، وقبل أن يركب حمزة، ركع أمام صغيرته علا، التي سيفتقدها كثيرا، وقال لها وهو يقبّل جبينها وكفيها:

- ما تيجي معايا.

كانت والدته تنتظر منه هذه الكلمات، ولكنها قيلت لعلا. ضحكت علا بطريقة طفولية وقالت:

- طنط هناء قالتلي اسيبك بقى الأسبوع ده عشان تبقى براحتك مع العروسة.

ضحك، وعيناه مشفقتان على الصغيرة التي تابعت:

- هو انا لو معاكم مش هتبقوا براحتكم ليه يا حمزة؟

احتضنها بقوة، وهو يقول لها:

- لا يا حبيبتي.. هو احنا بس هنسافر علشان عندي شغل في بلد بعيدة قوي، وهابقى مشغول طول الوقت فمش هينفع تبقي معايا.

تدخلت هناء، فأخذت علا متكفلة بتبسيط الأمر لها، وأشارت له أن يذهب هو..

- مش هتخلص من لماضة علا، روح انت للعروسة بدل ما تقضوا الليلة هنا وانت بتقنع اللمضة دي.

أومأ برأسه، وأشار لعلا مودعًا، ثم ركب بجانبه زوجته. نظر في عينيها مباشرة، وهم بالاقتراب منها، فرجعت برأسها للوراء، وأشارت للخارج نحو علا، فقال لها وهو يحيطها بذراعه لأول مرة:

- بحبك....

اهتز كيانها من وقع هذه الكلمة، وسافرت إلى عالم آخر، وعادت منه على صوته قائلا :

- اول كلمة بحبك، وانتِ حلالي.

سكتت تماما، ظلت تستمع بوقع الكلمة على أذنها ، لم تحاول النظر لترى إن كان الجميع يشاهدهما من وراء الزجاج، أم أنهم قد ذهبوا، بينما علت الابتسامة وجهه وضغط على البنزين، تاركًا وراءه حياة مضت، ليبدأ طريقه إلى حياة جديدة.

***

وقف أمام باب غرفته المغلق مبتسما في سخرية، فلم يكن يتوقع أنه في يوم من الأيام سيخوض هذه التجربة. طرق الباب، فقالت:

- استنى شوية.

ضحك من نبرة صوتها الخائفة وقال:

- يابنتي احنا اتكتب كتابنا.. طب بصي البسي أي حاجة.. عندك ترنجات في دولابي البسي واحد طيب وتعالي اقعدي معايا.. ماهو ماينفعش نبقى متجوزين وفي بيت واحد وانتي قافلة باب الأوضه عليكي.

لم ترد.. وهو الآخر لم يعقب، ودخل غرفة المعيشة، فوجد بها ملابسه التي تركها خلف الباب قبل أن يغادر، فأبدل ملابسه وجلس على الأرض وهو يقول لنفسه:

- حلو اني مادخلتش التي شيرت والشورت جوه الصبح.. بس حلو الشورت ده.

طال انتظاره، فتأكد أنه سينام بمفرده على الأرض حتى الصباح، وبالفعل تناول وسادة من جانبه، وأمسك بأول كتاب قابله، ونام أرضا، وبدأ يقرأ بلا مبالاة أو ذرة حماس. مرت بضع دقائق، وهو يشعر بالضيق إلى حد ما، وجدها تدخل عليه الغرفة ببنطال أسود، وقميص من ملابسه واسع عليها، وقد رفعت شعرها في "كحكة" صغيرة وهي تمشي متعثرة في خجل طفولي ملائكي. لم يستطع أن يمسك نفسه من الضحك. ضحك وهو ينظر لها، فقالت وهي تحاول أن تداري خجلها وتشاركه الضحك:

- كنت هالبس الترينج كامل، بس عجبني القميص ده.. حلو عليا صح.

هز رأسه بالإيجاب، واعتدل في جلسته مفسحا لها مكانا بجانبه، وأشار لها لتجلس بجانبه. جلست وتكورت على نفسها في مكانها، حاول أن يقترب منها، فاحمر وجهها، فقال لها في حنان:

- والله ما هاعمل حاجة غصب عنك نهائي.. اتفقنا.

هزت رأسها بلا معنى، فاقترب أكثر، فأحس حرارة جسدها أكثر، فحاول أن يخرج بها من هذه الحالة ويشعرها بالألفة، قائلا في حماس مرح:

- مش جعانه؟

نظرت له في امتنان لما يحاول فعله من أجلها وأجابت:

- قوووي.

أخذها من يدها، وقام بها إلى المطبخ، وقال بمرح:

- بعرف اعمل مكرونة وبانية وبطاطس تحفة.. حتى ابقى اسألي علا.

اقتربت منه، وأخذت مكانه أمام الثلاجة، ثم قالت:

- بس ياعم، حاسب كده اما اشوف عندك ايه.. انا هعملك بقى أكل بجد تاكل صوابعك وراها. هات لي ورقة بس

أشار إلى مكان ورقة وقلم يضعهما على رف في المطبخ، فأخذتهما، فكتبت له قائمة مشتريات ليذهب ويحضرها من السوبر ماركت، فنظر لها ضاحكًا:

- انتي بتستهبلي.. انا لو حد شافني في الشارع دلوقتي هتبقى مصيبة.. انا عريس يا ماما.

ضحكت معه مشوحة بيدها أن اهدأ، وقالت في مرح:

- خلاص ياعم هنتصرف من الموجود في البيت.

أعدت معًا عشاءهما، وهما يرتبكان كلما تلامسا مرة دون قصد وأخرى عن قصد.. بعد أن أطفأت البوتاجاز، وبدأت في إعداد السلاطة، وقف وراءها وهي تقطع الطماطم، ووضع يده على خصرها، وترك قبلة على كتفها وعنقها، ثم غادر المكان كمن سرق شيئا، وهي تنظر له بعين حائرة بين السعادة والخجل، الرغبة والحياء، ولكن أكثر ما فيهما كان الأمل الجميل. أحست ود في هذه اللحظة أنها تحتاجه أكثر مما يحتاجها، وتتمناه كما يتمناها وأكثر.

وقف عند باب المطبخ ينظر لها ويتأملها، حتى انتهت من إعداد السلاطة. نادته ليساعدها في رص الأطباق، وجلسا يتناولان الطعام بشهية مفتوحة. قامت ود من مكانها فجأة، فسألها:

رايحة فين؟

فقالت وهي تبتسم بود:

- هاجيب مايه بس.

توجهت للثلاجة، فقفز من مكانه ناحيتها، ووقف وراءها مباشرة، فحاصرها بينه وبين الثلاجة، ونظر لها باشتياق، فقالت وهي تضحك:

- الأكل هيبرد يا حمزة.

لم يرد، فلم يعد يستطيع الكلام، واقترب أكثر يلتهم شفتيها، ويحتضنها بقوة أكثر، ليصبحان روحان في جسد واحد. أغمضت هي عينها مستجيبة له، وقد بدأ يوزع قبلاته بين عنقها ووجنتيها وشفتيها، ثم فاجأها أن حملها بين يديه ودار بها حول نفسه، ثم سألها:

جعانة وللا..

- ضحكت وقالت في إصرار:

جعانة

ضحك عاليا وهز رأسه مستسلماً، ثم جلس بها على الكرسي ووضعها على فخذه كطفلته ، بدأ يضع لها الطعام في فمها، وهو يلف ذراعه الآخر حول خصرها، محاولا تهدئة مخاوفها. لاحظ توترها، فقال:

- ماتخافيش يا ود.، قلت لك مافيش حاجة هتحصل النهارده.

أقول لك حاجة.. ولا حاجة هتحصل بكرة ولا بعده ولا أي وقت إلا لما تبقي عايزاها زيي بالظبط ومش خايفة مني .

ارتسمت السعادة والاطمئنان على ملامحها، وبدأت تأكل بشهية أكبر، وأطلقت مرحها في ارتياح، وهو تارة يطعمها وتارة تطعمه.. يقبلها مرة، وتتجرأ هي مرة لخطف قبلة على جبهته. يحتضنها بحنان وتلقي برأسها على صدره لتسمع دقات قلبه. كانت تنظر في عينيه تريد أن تعرف عنه كل شيء، لكنها لم تحاول أن تسأله، فقد اقتربت هذه اللحظة كثيرا، ولا حاجة لاستعجالها، ففي أقل من ٢٤ ساعة ستكون معه على شاطئ جزيرة، في بلاد لم تحلم بزيارتها في يوم من الأيام. فكرت أن حمزة قد ظهر لها فجأة من الفراغ، ورزقها الله به يوم عيد الحب ليكون هدية حياتها، ومكافأتها على تحملها الطويل.

انتهيا من الطعام، فأخذ يدها ليريها الشقة بالتفصيل. دخل بها غرفة المعيشة وقال لها:

- انا بحب الاوضة دي قوي.. برتاح فيها جدا.

نظر لعينيها مباشرة، وطبع قبلة على كفها، ثم تابع:

- دلوقتي فيها كل حاجة بحبها.. انتي والكتب.

دفنت رأسها عند صدره، و تركت نفسها تقبله ثم همست وهي تخفي وجهها فيه، وتذوب حياءً:

بحبك

ضمها أكثر، واطلق آهة عالية راضية، ثم جذبها ليجلسا على أرض لطالما أحبها، بين الكتب التي عاش فيها حياته لأيام مضت، ثم ناما معًا مؤتنسين بدفء الحب الذي جمعهما من حيث لا يدريان.

***

استيقظ على رنين الجرس، فقام متسللا، محاذرًا أن يزعج هذا الملاك الجميل النائم إلى جواره. فتح الباب، ليجد أمامه عمر وعصام. قال عمر وهو يغمز له بعينه:

- صباحية مباركة يا عريس.

ضحك ثم قال لصديقه:

- عايز ايه من العريس عالصبح كده والنبي.. يللا روح كل لك سندوتشين فول عند عصام لغاية ما اغير هدومي عشان مانتأخرش.

- هي بقت كده.

قالها عمر وهو يضحك ويغادر مع عصام، الذي قال لحمزة بلغة الاشارة:

- مبروك يا عريس.

في أقل من نصف ساعة، خرج حمزة وود يحمل هو حقيبة ملابس صغيرة؛ تكفيهما لأسبوع رحلتهما، وتحمل حقيبة صغيرة بها بعض الكتب

والأشياء الصغيرة. كانت علا تنتظرهما في الشرفة بالأعلى وأخذت تشير إليهما وتصيح في بهجة:

مع السلامة يا عروسة خدي بالك من حمزة

وود تبتسم لها وترسل إليها عبر الهواء قبلة، وحمزة سعيد بقبول علا لعروسه الرائعة. ركب حمزة وود في الكنبة الخلفية، فقال عمر قبل أن يركب في كرسي السائق:

- السواق اللي جابهولك ابوك الله يرحمه.

انطلقت السيارة للمطار، ليبدأ اسبوع العسل الذي وعد به حمزة ود.. قال لها:

- أنا دورت عالنت على قد ما عرفت.. إن شاء الله هوديكي أحسن مكان ممكن تروحيه في حياتك وهخليكي تقضي أحلى أسبوع عسل في جزيرة.

سرحت تخيل المنظر وجماله، فقال لها:

- ماتحاوليش تخيلي حتى.. المكان فوق كل التخيلات.

ثم أخرج هاتفه، وفتح الصور التي قام بتحميلها من على شبكة الإنترنت، وناوله لها، فاتسعت عيناها من الدهشة والسعادة معا. لم يمكنها سوى أن تمسك يده وتترك عليها قبلة شكر لكل ما يحاول فعله من أجلها، فرآهما عمر في مرآة السيارة، فقال:

شكلنا هنتمسك بتهمة فعل فاضح في الطريق العام وتقضوا شهر العسل في ابو زعبل.. اهدوا شوية يا جدعان ماحدش يعرف انكم متجوزين.. خليتونا نفكر في الجواز واحنا اللي عمرنا ما فكرنا.

ضحكوا جميعا، وانطلقوا يغمرهم المرح.

بداخل كل منا حياة، لا تمت للواقع بصله

بره الدنيا الروح متسابه

سايبه حدود الدايره الخنقه
شايله النور ف كفوفها ربابه
تعزف لحن حياتها الشارقه
صوت من ابعد نقطه ف روحها

ل : عزيز محمد

- ٨ -

" جزيرة جيجو "

دخل حمزة مقر الشركة التي يتعامل معها، مرتديا بذلة أنيقة، وتصحبه ود، التي أصرت على مصاحبته في كل خطوة. رحب به رئيس مجلس الإدارة ترحيبا شديدا، وقال بعربية جيدة :

- أنا أتحدث العربية بطلاقة، واسمي "بارك تشان يول" ويمكنك أن تناديني بـ "تشان يول"

ابتسم حمزة لطرافة نطق الرجل، وعقب بمرح:

- وأنا أتحدث الكورية بطلاقة.

ضحكوا لمزحته، ثم دخلوا غرفة الاجتماعات، واستمرت النقاشات، حتى انتهيا إلى اتفاق تراضيا عليه، ووقعا العقود، واطمأن حمزة على كل شيء، متفقداً البضاعة ومواصفاتها وتغليفها وتحميلها الفوري إلى الميناء.

حاول تشان يول أن يبقيه معه أكثر، وأن يدعوه إلى عشاء عمل، فأخبره بإنجليزية متقنة أنه عريس جديد، ويريد أن يقضي الوقت مع عروسه ويريها الأماكن الجميلة في كوريا. نظر الرجل لهما بسعادة وقال:

- لا.. وأن تذهب لجزيرة جيجو.. سوف تقضيان وقتا ممتعا هناك.

نظر حمزة لود بعشق، فبادلته النظرة، والرجل يراقبهما في حبور، ثم طلب منهما أن يسمحان بتقديم هدية بسيطة وهي أن يوصلهما بنفسه للجزيرة، فشكره حمزة ولم يعترض. ركبوا السيارة الفاخرة، وعرض تشان يول عليه أن يجرب قيادتها، فركبت ود في الخلف، وانطلق حمزة متبعا تعليمات رفيقه الكوري، إلى أن وصلوا قرب جراج كبير، وبجانبه ما يشبه الغابة، بأشجار عالية كثيفة. نزلوا من السيارة، وأشار لهم تشان يول إلى الطريق الذي سوف يسلكانه للبحر. توقفا يتأملان المشهد الرائع لبعض الوقت، قبل أن يدعوهما رفيقهما للصعود إلى السيارة، كي يعودوا إلى المدينة قبل الغروب.

في المساء، جلس حمزة في الشرفة، يتابع الشارع بصعوبة، بسبب ارتفاع الطابق الذي نزلا فيه. كانا بالكاد انتهيا من تغيير ملابسهما، فدخل الشرفة واستلقى على كرسي مريح، فاردا ساقه مسترخيا. أغلق عينيه وغاب في عالم آخر، حتى انتبه من شروده على رائحتها وهي تقترب، ففتح عينه، ليجدها في أحسن صورها، ترتدي روب أبيض لا يكشف من جسدها شيئا. جذبها من يدها، وأجلسها بجانبه، دون أن يتكلم، واسترخت هي على الكرسي ترسل عينيها إلى السماء، وشردت تماما، حتى قال لها بحنان:

- يلا نام بقى عشان بكرة عندنا يوم طويل.. انا متاكد ان الشروق هنا هيبقى يجنن.

جذبت كفه الذي تقبض عليه بكفها الرقيق، ورفعته إلى شفتيها طابعة قبلة رقيقة عليه، وقالت:

- مغرم انت بالشروق.

- بس بموت في ود.

قالها وهو يقوم من مكانه ويجذبها بيده للداخل. لم تكن تتخيل أنها ستجد هذه السعادة بعد رحيل أخيها. هي لم تبين له أي مشاعر حزينة بسبب فقدها لخالد. لم تزل تنتظر أن يحكي لها، فتحكي له عن كل ما بداخلها من مشاعر خوف وفقدان. أغلق النور واقترب منها أكثر، فشعرت به يقتحم وجدانها.

***

وقفا أمام الأشجار الكثيفة، في ذلك المكان الذي أتياه مع رجل الأعمال الكوري، لكنهما هذه المرة وحدهما، مبكرين، ولا أحد حولهما، وكأنما هما أول من وصل إلى المكان. كان يحتويها بعينيه ولم يفلت يدها لثانية، يبثها الشعور بالأمان، ويهيم معها في عالم هما فيه آدم وحواء ولا أحد سواهما. كانت السماء تتلون باللون الرمادي، ما بين ظلام الليل وضوء النهار، وقد ارتدى حمزة ملابس رياضية، والتزمت ود بفستان فضفاض وحجاب لم تتنازل عنه، فوقف أمامها ينظر في عينيها، ثم لف

ذراعه حول خصرها وضمها إليه، فمالت برأسها على صدره، فلثمها من جبينها وقال لها وقلبه ينبض بشدة:

- انتي حته من الجنة يا ود، وعيونك دول نقطتين نور في طريقي.

ضمته أكثر، فتابع:

- من ضحكتك اتخلقت كل حاجة حلوة.. وبيها الكون أجلى.

نظرت له، وعينها تترقرق بدموع الفرحة، فقال:

- عيونك حتى وهم فيهم دموع حلوين. عارفة..

صمت قليلا، فتركت قبلة عند قلبه، فتابع:

- ساعات بحس انك من الجنة. وانك أكتر من اللي اتمنيت، واوعدك بكل طاقتي من هنا ورايح هاخليكي ان في يوم بكيتي تاني هيكون سبب البكا فرحة أمسكها من كتفيها، وقال لها أخيرا:

- انتي الحاجة الوحيدة الكاملة المتكاملة في حياتي.. أنتِ أنا.

تعانق كفاهما، وتحركا معا بين الأشجار متجهين للشاطئ. لم يعودا وحدهما، فقد ظهرت مجموعات من السياح وأهل البلاد أيضا، يتحركون جميعا نحو البحر، يريدون مشاهدة الشروق، الذي يأسر الجميع بسحر الأمل. أتنسا بالناس حولهما واطمأنا للمكان، وأخذا يتضاحكان على نظرات من حولهما إلى زيها الإسلامي التقليدي، وغطاء الرأس الذي يميزها بين النساء، بينما يرتدي رجلها شورت وتيشيرت.

وصلا إلى الشاطئ مع إشراقة أول ضوء من الشمس، من خلف سحب خفيفة تغازل الشمس وتداعبها. خلعا أحذيتهما، وتحركا على الرمال بخفة، تاركين وراءهما آثار أقدامهما، التي تقول للجميع أنهما هنا. جريا قليلا في مرح، واختارا مكانا بعيدا عن باقي الحاضرين، فجلس حمزة على الأرض يراقب الشمس في انبهار، واقتربت ود تريح رأسها على كتفه من الخلف، فالتفت لها واضعا قبلة على خدها بجانب شفتيها، فارتعشت وقد تذكرت ما حدث بينهما بالأمس، لتكتشف أنهما الآن قد صارا كيانا واحدا. لفت ذراعيها حوله، فجذبها وأجلسها على فخذه، وبدأ يراقب ظهور الشمس من وراء حجابها، ثم لف ذارعه حولها، وقبَّل رأسها.. كان يستنشقها، فسألته عما يفعل فقال:

- بتنفسك.

أعجبها وقع الكلمة.. فكرت في معناها قليلا، فارتسمت ملامح السعادة عليها وقالت:

- كتير عليا كل ده يا حمزة.

شابك أصابعهما بقوة، كي لا يترك أي فراغ بين كفيهما.. ضمها لقلبه، حتى كاد أن يكسر ضلوعها من شدة ضمته، التي أمتعتها رغم ألمها الخفيف.

أغمضت عينها، ففوجئت به وقد حملها بين ذاراعيه، وجرى بها ناحية الماء، وهي تصرخ في سعادة وجنون. لامست قدماه المياه، فقالت في غنج:

- الماية لأ يا حمزة.

فأجابها مقلدا:

- الماية آه يا وده

تشبثت به أكثر، فأنزلها ببطء، إلى أن لامست قدماها الماء، ووقف بجانبها يتأمل الأفق، ثم سألها:

- تركبي مركب؟

- بس انا اللي اسوق.

قالتها بمرح، فأجاب بنفس النبرة المرحة:

- تسوقي ايه، ده مركب مش عربية.

سارا على الشاطئ ذهابا وإيابا، تارة يضحكان معا، وتارة يغازلها وتشاغبه، حتى وصلا لمكان تأجير مراكب خشبية صغيرة، فطلبت منه أن ينفذ وعده ويصطحبها في نزهة بالقارب. كان الوقت قد جاوز السابعة صباحا، وبدأت حرارة الشمس في الارتفاع، ففكر قليلا ثم قال:

- ناكل الأول وبعدين خلينا نلحق نلف شوية في الجزيرة قبل الحر، أكيد مافيهاش بحر بس يعني.. وقت الغروب نرجع بقى نركب براحتنا ونبات هنا كمان لو تحبي.

تشبثت بذارعه معلنة موافقتها لكل ما يقرره، وانطلقا مبتعدين عن البحر، عائدين مرة أخرى للفندق.

***

جلس وليد تحت المظلة هو وإيمان، يراقبان رقية وهي تمشي على البحر برفقة أصدقاء لها تعرفت عليهم منذ وصولهم لمطروح.

كانت حالته الصحية تسوء، وبدأت الكوابيس تطارده، لدرجة أنه بدأ أحيانا يفكر في أن ينهي حياته بيده، بدلا من أن يستنفذ الفزع والألم عائلته نفسيا. قطعت إيمان شروده سائلة:

- انت كويس يا حبيبي.

هرب بعينه منها، وهز رأسه دون أن يرد. لم يكن من الطبيعي ألا تلاحظ إيمان تدهور صحته المستمر، فاقتربت منه أكثر، وكررت سؤالها، فتهرب منها قائلا:

- ما تيجي نروح نتغدا سمك.. اندهي على رقية ويلا بينا.

زاد قلقها عليه، ولكنها لم تعلق. قام وليد وهم بالمغادرة، ثم توقف لحظة، وغيّر رأيه قائلا:

- خلاص خليكو هنا انتم.. أنا هروح انقي السمك واستنى لما يتشوي واجيبه واجي.

أخذ نفسا عميقا وهو ينظر للبحر..

- ماتقلقيش.. مش هتاخر.

كان يأخذ نفسه بصعوبة، ويتحامل على ألمه محاولا النجاح في إخفاء أي وجع أمام زوجته وابنته. مضى مبتعدا خافضا عينيه، يراقب غرس قدميه في الرمال الناعمة، حين لمعت في رأسه فكرة.. لكنه أجل تنفيذها، فلابد أن يختار الوقت المناسب لذلك. عادت رقية لأمها تسألها عن أبيها:

- بابا راح فين يا ماما.

أجابت والتوتر واضح على ملامحها:

- راح يجيب سمك يا حبيبتي.

عقدت حاجبيها وقالت:

- وسيبتيه يروح لوحده ليه بس يا ماما.. انتي مش ملاحظة انه تعبان خالص بقاله فترة وبيحاول مايبينش ده.. يلا يا ماما نروح له.

قامت إيمان من مكانها موافقة لصغيرتها، وذهبتا للشاليه لتبدلا ملابسهما وتذهبان وراءه، وإيمان تلوم نفسها أنها قد تركته يذهب بمفرده.

***

كانت حبيبة في الصالة، تنظر إلى التلفزيون وهي شاردة لا تتابع ما تعرضه شاشته، وقد جلست بجانب والديها وشقيقها الأكبر. لقد أصبحت حياتها باهتة، لا حياة فيها، رغم محاولات الجميع أن يخرجوها مما هي فيه.

حتى امتحانات الثانوية قررت ألا تخوضها، واكتفت بمساعدة والدتها في المنزل، فلم يغصبها أحد على شيء، فقد ضاع وقت المذاكرة والاستعداد بالفعل. أمها كانت حزينة لما تراه من حالتها، فلم تعد تميز عينها من السواد المحيط بها، بسبب البكاء وقلة النوم، وتكلمت مع أبيها وأبنائها كثيرًا عن إيجاد حل لتدهور ابنتها، لكن ما الحل وحبيبة نفسها ترفض أي حل.

خرج أخوها من غرفته، موجها الكلام لها:

- قومي البسي يا حبيبة عشان تنزلي معايا.

هزت رأسها رافضة وقالت:

- مش عايزة انزل يا جمال.

جلس بجانبها، ثم قال لها بحنان:

- ماهو مش بمزاجك يا حاجة.. يلا قومي البسي انا مستنيكي.

كان جمال أقرب شخص لها بعد خالد. هو أول من عرف بمشاعرها تجاه خالد، وأول من تكلم مع خالد بخصوص حبيبة، وهو من أخذ وعد خالد أن يحافظ عليها حتى اليوم الموعود الذي سيزفها فيه إليه بيده.

كان جمال يفهم ما تمر به جيدا، ويحاول إخراجها مما هي فيه، ولكنها كانت دائما تصد محاولاته. اليوم، حجز جمال تذكرتين لفيلم أجنبي يعرف أنها كانت تنتظره، وأراد أن يفاجئها. وها هي قد فاجأته وقامت لتبدل ملابسها، وجلس جمال ينتظرها سعيداً بهذه البداية المبشرة.

خرجت من غرفتها، فأخذ ذراعها يعلقه بذراعه، وغادرا وهو يغازلها في مرح:

- ايه القمر ده.. كده أنا هاتبطر على بنات الناس ومش هلاقي عروسة تتشعلق في ايدي بالحلاوة دي.

مع أن ملامحها أصبحت باهتة، وعينيها منتفختان ذابلتان من البكاء، ورغم ارتدائها لثياب سوداء، إلا أنها ماتزال فاتنة.

ذكرتها مغازلة أخيها بخالد وهو يقول لها ذات مرة قبل الامتحان:

- مطبقة وعينيكي مقفولة وجاية الامتحان لابسة اسود ولا كأنك رايحة عزا.. بس زي القمر.

حاولت حبس دموعها، ومسحت عينها قبل أن تهرب منها أي دمعة أخرى، والتفتت إلى جمال الذي مضى يملأ أذنها بثرثرته وهما في السيارة الأجرة:

- عاملك حتة برنامج بقى النهارده.. انما ايه.

قبل أن تتكلم، فاجأها جمال بالتذكرتين، فابتسمت ابتسامة مكسورة، فتابع متفائلا:

- يبقى نقعد على النيل نتكلم شوية، وبعدين نسمع الماتش، ونخش الفيلم في الآخر.

تذكرت المباراة التي كان ينتظرها خالد، فتشجعت لتفعل ما كان سيفعله حبيبها. وصلا إلى كوبري قصر النيل.. إلى نفس المكان الذي كان يمشي معها فيه خالد، فعضت على شفتها في حزن.. لقد فعل جمال هذا عن قصد، نخالد هو محور كلامهما الذي يرتب له، فأراده أن يكون حاضرا. سألها:

- ماظنش انك ترضي تزعلي خالد يا حبيبة.

نظرت له بعين تملؤها الدموع:

- عمري يا جمال..

لم ينظر لها.. ظل شاخصا بعينه للنيل، وتابع:

- تفتكري لو خالد كان عايش.. بس عامل حادثة كبيرة ومش هيقدر يخش الامتحانات كان هيكون مبسوط وانتي مش عايزة تخشي الامتحانات عشانه؟

قبل أن تجيب، تابع بنفس الهدوء:

- أكيد لأ.. لانه بيحبك وعايزك احسن منه.

سقطت دمعة منها، وهي تمسك بيدها السلسلة التي لم تغادر صدرها يوما. تابع:

- انتي لازم تكملي حياتك وكويس كمان.. مش عشانك.. عشان خالد.

قالت بصوت متهدج، محاولة التغلب على بكائها:

- مش هاقدر يا جمال..

- انا بحبك يا حبيبة.. وكنت بحب خالد الله يرحمه.. ووعد مني يا حبيبة اني طول مانا عايش مش هغصبك على أي حاجة.. بس ماتوقفيش حياتك.

أخذ نفسا طويلا، قبل أن يكمل ما رتبه من كلام:

- خلي حياتك تمشي طبيعي.. وماتبقيش لحد غير خالد.. إلا لو كان للحياة رأي تاني.

نظرت له بعين مستفهمة:

- ازاي...

فأجاب:

- يعني ممكن بعد كام سنة تعرفي أن ربنا مدي لنا نعمة النسيان عشان نقدر نعيش ونكمل.

فكرت في كلامة قليلا، ثم قالت، بعد أن مسحت عينها وأخذت نفسا عميقا:

- حاضر .. أنا هادخل الامتحانات ومش هوقف حياتي.. بس بشرط يا جمال.

هز رأسه لتتابع:

- توعدني اني طول مانا مش عايزة غيره ماحدش يغصب عليا.

هز رأسه بإشارة الموافقة على كلامها، فقالت:

- توعدني؟

- أوعدك.

قالها وهو يشير إلى قلبه، وأضاف بنبرة مازحة ليحاول أن يجعلها تبتسم:

- وشاورت على قلبي اهو.

حاولت أن تظهر ابتسامة، فقال لها:

- حاولي تبتسمي يا حبيبة.. مرة في مرة هتقدري تبتسمي من قلبك. يلا بينا بقى عشان منتأخرش على الماتش.

تحركت معه دون أن تتكلم، وهي تفكر في كل ما مضى، وكل ما هو قادم، وتمسك السلسلة بيدها بقوة.

***

بدأت الشمس في المغيب، وأمست الموجودات جميعها تراقب من أضاءت لهم اليوم بأكمله. وكان حمزة يراقب ود، التي أنارت له أيامه. كانت تجلس أمامه في القارب الخشبي، الذي يستقر بهم في منتصف الماء. قام من مكانه، وجلس بجوارها، فألقت برأسها على كتفه، ولفت ذاراعها حوله، فهمس لها:

- بحبك..

لها وقع ساحر في أذنها هذه الكلمة. تعلم أنه يحبها، ولكنها تحتاج أن تسمعها باستمرار، كما يحتاج هو أن يقولها باستمرار.. يريد دائما أن يثبت لنفسه أن هناك من هي أهلاً للثقة وتستحق هذه الكلمة. سألته:

- انت مين يا حمزة.

نزل في قاع القارب وجلس القرفصاء، ثم جذبها معه ، ليصبح وجهاهما متقابلين، وقد ألقى كل منهما برأسه على كتف الآخر.

ضمها أكثر، فأحاطته بذراعيها وساقيها. أغمض عينيه، وبدأ يتذكر ويحكي لها حكايته، ويتكلم عمَّا وصل به لحاله الذي رأته عليه من وحدة وعزلة، لدرجة أن يرسل لنفسه هدية في عيد الحب.

كانت علاقة والده بوالدته قوية جدا، وكان يرى في تعامل أبيه معها المعنى الحقيقي للحب. رغم اقتراب عمره من الستين، واقتراب والدته من السن الحرجة للمرأة، إلا أنهما كانا يعيشان كعاشقين، حتى إن أباه لم

يمنعه يومًا وجود أي أحد من مغازلتها وبثها غرامه. تعلم من أبيه حب المرأة وتقديسها، لأنها سر الحياة، كما كان يقول له والده دوما.

- حافظ يابني على قلبك لواحدة بس.. ساعتها هتسكن الجنة على الأرض.

كبر بينهما سعيدًا، وحصل على بكالوريوس التجارة، وكأي شاب بدأ يبحث عن عمل خاص أو عام، فلم يجد. في ذلك الوقت مرض أبوه، وكشفت التحاليل إصابته بفيروس C الذي استنفذ كل طاقتهم وما لديهم، حتى توفي - رحمه لله - بعد معاناة شديدة، وإن كانت لم تطُل. كان حمزة وحيد والديه، وكان معاش والده بالكاد يكفي، لذا، فعندما نزل إعلان الوظائف في محطة المياه، قرر الاستغناء عن مؤهلة الجامعي، وتقدم للوظيفة، وساعده عمر في الحصول عليها. بعد فترة قصيرة من حصوله على الوظيفة، قررت والدته أن تتزوج.. قالت إنها تحتاج من يهتم بها. حاول إخراج الفكرة من رأسها، ولكن بلا فائدة. طلب مرة أخرى مساعدة صديقه عمر في الحصول على شقة صغيرة، يعيش فيها ويبدأ فيها حياته بمفرده، بعد أن قرر ألا يدخل في حياته أية أنثى تشبه والدته، لأنهن جميعا زائفات.

ضمته ود أكثر، لتؤكد له أنها لا تشبه أحدًا، وأنها حقا تحبه وكانت تنتظره. أخذ نفسا مستنشقا عطرها، وترك قبلة على كتفها، ثم بدأ يكمل....

كانت علاقته طيبة بالجميع، وكان محل ثقتهم، ومحط شكواهم.

ورغم أن دخل العمال والموظفين في محطة المياه يعتبر معقولا عن باقي الشركات، إلا أن زوجة زميله حسن كانت تستنزفه بالمعنى الحرفي للكلمة. كان لا يشعر معها بالراحة، وكان يفضل العمل لأكثر من وردية ليبقى بعيد عنها. إلا أنها هي من هجرته وطلبت الطلاق، وبالفعل غادرت البيت، وتركت معه ابنته بنت الأربع سنوات، ودون أن يحن قلبها لأي شيء سوى راحتها فقط، فتركت طفلتها لتتزوج من غيره، وحمد حسن ربه أنها تركت له الطفلة، رغم ثقل المسئولية، لكنه رأى أن الأفضل كثيرًا أن يربيها بعيدا عن هذه الأنثى التي لا تحمل في قلبها ذرة أمومة.

وبعد الطلاق بأقل من ثلاثة شهور، مات حسن غريقا في إحدى مواسير المياه الكبيرة للشركة، وأخذ حمزة الطفلة، حيث لم يجادله الآخرون كثيرًا، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يتحمل مسئوليتها، لأنه يعيش بمفرده، فقال لهم ليكفيهم الإحراج:

- كل واحد فيكم عنده مراته وعياله، والله أعلم بأحوالكم، وحتى ماحدش فيكم يضمن مراته تقبل تزود همها وللا لأ.

أخذ نفسا وهو يحتضن الطفلة التي لا تعي ما يحدث حولها ثم قال:

- انا هاخدها معايا اهي تونسني.. وبعدين أنا مش هديها حاجة من جيبي.. مصاريفها هتكون من معاش أبوها.

هربت دمعة من عينه، وسقطت على كتف ود، فرجعت برأسها للوراء، ومسحت عينه بيديها وقالت:

- كل ده وانت ساكت مابتتكلمش.. انت كنت مكمل لوحدك ازاي؟!

ابتسم وهو ينظر في عينيها ثم قال:

- كنت مستنيكي.

شعر بدقات قلبها تنبض داخله، فوضع يده علي ظهرها وقال بحنان:

- ربنا يديمك يا ود.

طبعت قبلة عند قلبه..

- ويديمك يا حمزة.

طال الصمت بينهما، فقطعته بسؤالها:

- مش هتسألني بقى انا مين.

أمسكها من كتفيها ونظر في عينيها مبتسما، ثم قال:

- انتي حبيبتي.. وبس.

ضمته مرة اخرى وبدأت تحكي له كل شيء عنها قبل أن تلتقي به في ذلك اليوم المجنون.

دخلت ود كلية الصيدلة بناء على رغبتها ورغبة والديها. كانت تريد أن تصبح طبيبة، ولكن لم يحالفها الحظ في الثانوية العامة. توفى والدها في السنة الأولى من الكلية، ولم تستطع والدتها تحمل فراق والدها، فتبعته بعد وفاته بشهرين. أصبحت هي وأخوها وحدهما، لا يوجد لهما سند في الدنيا، وشعرت هي كأخت كبرى، بأنها وليمة لكل من هب ودب، فخالد لم يزل غضًا أمام ذلك السواد. كان خالد يحاول أن يثبت لها أنه أمانها، ووقف معها أمام عائلتهما حين أرادوا تزويجها من أحدهم. لكنها كانت تحتاج لما هو أكثر من ذلك، حتى قالت ذات مرة لسارة وهبة:

- فجأة حليت في عين الدنيا كلها لما ماما وبابا ماتوا. أصبحت تعاند الحياة، وتستقوي بنفسها عليها، وبدأت تعتمد على نفسها في كل شيء، وهجرها الجميع حين انفضت المصالح، ولم يتبق لها سوى هبة وسارة، صديقتاها اللتان لم تفارقاها يوما. وفي الفترة الأخيرة، كانت تبكي وحدتها وفقدانها الأمان، إلى أن ظهر لها حمزة من العدم. أخذت نفسا عميقا منه، وقالت وملامحها مبتسمة ورافعة حاجبا عن الآخر:

- في حاجة؟.. بتنفسك.

كان قلباهما أقرب ما يكون، وهما يتناجيان ويحكيان، وليس حولهما إلا الماء والسماء، وشيئا فشيئا عرف كل منهما عن الآخر كل شيء.

أخذهما الحديث، حتى كاد الظلام أن يحل، فعاد حمزة بالقارب للشاطئ، وحمل ود بين ذارعيه حتى خرج بها إلى الرمال. عادا إلى

الفندق، ليرتاحا قليلا، وصلا لغرفتهما ودخلت ود الحمام لتغتسل من ملح البحر، وانتظر حمزة في الشرفة محاولا الاتصال بوليد مرة بعد أخرى، لكنه لم يجب.

زاد قلقه فلم يجد بد من أن يتصل على رقم زوجته، فأجابت إيمان وهي تبكي:

- وليد في المستشفى يا حمزة.. وليد بيموت.

***

وصلا إلى الكافيه، ليجداه ممتلئا عن آخره، وأعلام الفريقين منتشرة في المكان، وشاشات العرض الكبيرة قد بدأت تعرض مشهد الاستاد. جلس الجميع متأهبين لبداية المباراة، وأخذ جمال حبيبة من يدها، ليجلس بها في جانب مشجعي الزمالك، فتوقفت حبيبة وقالت بهدوء وقلبها يعتصر وجعًا:

- لا هقعد الناحية التانية، هشجع مكانه النهارده.

نظر لها متفاجئا، لكنه صمت ولم يعلق، فقالت:

- كان مستني الماتش ده قوي، عشان يعاندني واحنا كل واحد فينا بيشجع فريقه.

أومأ برأسه متفهما، وجلس بها مع مشجعي الأهلي، وبدأت المباراة وتابعاها بترقب، وكان الفريقان يؤديان بأفضل ما عندهما.. وكانت حبيبة تشجع الأهلي، ولأول مرة تمنى له الفوز من أعماقها.

شجعت بحماسة فريق حبيبها وفقيدها، وبالفعل لم يخيب الأهلي رجاءها، وفاز بالمبارة. انتهت المباراة وحبيبة قد حزنت لحزن جماهير الزمالك، وفرحت أكثر لفوز الأهلي متخيلة فرحة خالد. قال جمال مازحا:

- آخر حاجة كان ممكن اتوقعها انك تفرحي لفوز الاهلى على الزمالك.

قالت بعين لامعة:

- ولا انا.

***

أنهى حمزة المكالمة وهو لا يفهم أي تفاصيل من إيمان، فقد كانت منهارة تماما. أخذ قراره، واتصل بشركة السياحة، ليغير موعد تذكرتيهما إلى أول رحلة عائدة لمصر. خرجت ود من الحمام، فأخبرها بما كان، وطلب منها أن تجهز حقيبتهما، ووعدها بتعويض رحلتهما بعد أن يطمئن على وليد.

لقد تعجل السفر، ولكن الأقدار لا تنتظر أحدًا.. بمجرد أن خرجا من المطار، وركبا السيارة، التي كان عمر ينتظرهما بها، رن هاتفه برقم غريب، ليجدها رقية تقول من وراء بكائها :

- بابا مات يا حمزة.

ضغط البنزين بقوة، يريد أن يصل إلى وليد، هذا الشخص الذي اعتبره في منزلة شقيقه الكبير، غير مستوعب أنه لم يعد هناك ما يدركه، فقد رحل وليد. كان يتخطى السيارات كالمجنون، حتى صاح به عمر أن يهدأ، ولكنه لم يستمع إليه، فصورة وليد كانت أمامه تغطي كل ما حولها، وهو يلوم نفسه أنه تركه وذهب يبحث عن إجازته وشهر عسل ممتع.. كان يوبخ نفسه أنه لم يقف بجانبه في لحظات ألمه الأخيرة، ولم يكن سند أسرته عند استقبال الخبر. أفاق من أفكاره على صراخ عمر به، ولكن كان بالفعل قد أفلت زمام السيارة، فانقلبت أكثر من مرة حتى اصطدمت بالرصيف. آخر شيء رآه حمزة قبل أن يفقد الوعي كان الدماء التي تسيل من رأس ود، وعينيها اللتين ملأ الرعب حدقتيهما، وكفها الذي يربت عليه وهو غافل عن محاولتها لتهدئته، شاردًا مع صديقه الذي رحل.

الحقيقة هي أكثر الأشياء انعدامًا للمنطقية في هذا العالم.

- ٩ -

"الساعة ١٢ مساءً"

يرقد حمزة على سرير صغير، في غرفة العناية المركزة، موصل جسده بأنابيب تحمل المحاليل إليه، وأسلاك صغيرة تنقل نبضات قلبه إلى الأجهزة بجواره، لتظهر على الشاشة التي تصدر صفيرا منتظما ينبئ أنه لم يزل حياً وقلبه يدق. يخرج من أنفه أنبوب بلاستيكي وأنبوب التنفس يخرج من فمه ويتصل بخراطيم تدفع الأنفاس إلى صدره دفعا، وهو في غيبوبة تامة، وآثار كدمات وجروح تكسو وجهه وجسده.

في الخارج، أمسكت أمه بـمصحف صغير، تقرأ فيه، وتبكي ابنها بحرقة.

- ابني عامل ايه يا دكتور؟

كان هذا والده، "عبد الحميد الراوي" يوجه سؤاله للطبيب فور خروجه من العناية المركزة، فأجاب الطبيب وهو ينظر له باهتمام:

- الخبطة في دماغه جامدة شوية هي اللي عاملة الغيبوبة، لكن مافيش تضرر جامد في المخ، فبإذن الله يفوق قريب، لما بس التورم اللي نتج من الخبطة يروح شوية شوية. باقي جسمه كويس مافيش غير شوية كدمات وكسر بسيط في عضمة الترقوة مافيش منه أي مشكلة.

شكر الطبيب وقد هدأ توتره بعض الشيء مع شرح الطبيب للحالة، واستأذنه أن يدخل إليه، فأخبره أنه سيمكنهم زيارته بعد انتهاء مرور الفريق الطبي على الحالات.

عبد الحميد الراوي، صاحب الـ ٦٥ عاماً، الذي تميزه ملامحه الهادئة، ذو البشرة الفاتحة والشعر الأبيض، وبنظارته الطبية الصغيرة، دخل ليلقي نظرة على ابنه الذي كاد يفقده، ثم خرج من عند حمزة إلى زوجته المستمرة في البكاء وقراءة آيات القرآن، فنظر إليها نظرة باردة جامدة لا تحمل أي تعبير، ثم جلس قريبا منها وسألها:

ايه اللي حصل؟

مسحت دموعها، وهي تحاول أن تمالك نفسها لترد، فسبقها هو وأخذ نفسا، ثم تابع:

- عايزة تموتي ده كمان؟!

انخرطت في البكاء، وهي تقول بصوت متهدج:

- كنت بحوّط عليهم.. كنت بختارلهم الصح.

لم ينظر إليها، مسح وجهه بكفه، يمسح دمعة أفلتت من عينه، قبل أن تسقط أمامها، ثم قال:

- والنتيجة ان واحد راح والتاني يا عالم هيقوم منها وللا لأ.

انهارت في البكاء، وأمامها تمر جميع الصور والأحداث تباعا، كأنها فيلم يعاد لثاني مرة. قالت له بصوت يملؤه الندم:

- مش هتدخل في أي حاجة تاني.. والله.

كان قاسيا في رده عليها متعمدًا، فأضاف في ضيق وحسرة:

- ده لو لقيتي حد تتدخلي في حياته تاني.

"هادية" والدة حمزة، التي وقف عمرها عند الأربعين، بسبب اهتمامها الملحوظ بنفسها، وإن كانت في الحقيقة قد اقتربت كثيرا من الخمسين، كانت في أسوأ حال مر بها طوال عمرها. تمنت في هذه اللحظة أن ترجع بالزمن للوراء، لتصلح وتداوي كل هذه الجراح التي سببتها بحدتها وتحكماتها أو حبها الزائد لهم. تمنت على الأقل أن يعود الزمن بهم سنة إلى الوراء، إلى وقت وفاة ابنهم الأول "حسن"، حين حاول زوجها أخذ حمزة معه، ولكن حمزة رفض تماما، ليبقى بجانب ابنة أخيه...

***

يجلس حمزة في غرفة واسعة، بها مرتبة بدون سرير، ملقى عليها وسادة وغطاء مهملين في جانب الغرفة. في الركن صندوق خشبي

مقسم لنصفين، واحد للملابسه والآخر يحتوي على كتبه ورواياته. في جانب آخر من الغرفة مجموعة كتب رُتبت بشكل عمودي من الأرض للسقف، وهذه هي كتبه الدراسية وجميع ملازمه ومراجعه، على مدار خمس سنوات في كلية الهندسة.. لم يكن يحب الكلية، ولكنه تألق فيها، أخيرا، "البوردة" هذا الشيء الذي يعشق الجلوس عليه، لينتهى من رسوماته الشخصية، لأنه امتلك موهبة الرسم من صغره، ويضع عليها أيضا تصميماته الهندسية.

بالكاد انتهى من التصميم، الذي سهر عليه طوال الليل، قبل أن يأتيه صوت والدته من الخارج، فذهب ملبيا النداء.

وبمجرد أن ظهر من وراء الباب، قالت بملامح جامدة:

- خلصتو الشغل المطلوب منكم.

لقد قام بفتح مكتب هندسي مع صديق عمره وزميل الدراسة "عمر"، وكانت والدته تدير شركة المقاولات التي ورثتها عن والدها.

حاول أن يقنع عمر بعدم التعامل معها، ولكن عمر قال له:

- الشغل مافيهوش بحب ومابحبش.. احنا لسة في أول الطريق وشركة الوالدة تعتبر مكسب لينا بكل المقاييس..

وياعم خليني انا اللي اكون في الوش في أي تعامل.

ولكن لم تكن والدته لتتفهم ذلك، ولذا، فمنذ أول يوم جلسا فيه معها، في اجتماع استغرق كثيرا، كان شرطه أن يكون عمر هو المسئول عن كل شيء أمام شركة "السلاوي".

نظر لها بنفس التعبير الجامد وقال:

- اتصلي بعمر.. اسأليه.

أخذت نفسا عميقا وهي تتجه إلى باب الشقة:

- امال سهران على ايه طول الليل.

تحرك بخطوات هادئة ناحية الحمام ولم يرد. خرج بعد أن غسل وجهه معتقدا أنها رحلت إلى عملها، ليجدها جالسة في الصالة تنتظره، وتوجه له الكلام:

- مش ناوي بقى تعقل وتيجي تشتغل معايا.

جلس بعيدا عنها، ثم قال بلا مبالاة:

- لأ

"ليه!!" قالتها صارخة، تريد لها إجابة تقنعها، ولكنها انتظرت إجابته فلم يرد.

***

سادت حالة حركة سريعة قلقة أمام وداخل جناح العناية المركزة، وامتلأت الغرفة بالممرضين والأطباء. استمر الطبيب في ضغط صدره

بقوة، إلى حين شغَّل الممرض جهاز الصعق الكهربي، فوضعه على صدر حمزة وابتعد الجميع، وانتفض الجسد بقوة، ثم تعلقت العيون بالشاشة، ولكن لم تظهر استجابة. لحظات قصيرة مرت لإعادة إعداد الصاعق، ثم انتفض الجسد الواهن مرة أخرى، وتعلقت العيون بالشاشة، وقد بدأت النبضات تظهر بطيئة، ثم شيئا فشيئا بدأت تنتظم، وبدأت الاسترخاء يحل محل التوتر على وجوه الفريق الطبي.

كانت هادية تبكي بحرقة وهي تراقب هذا الهرج ولا تفهم شيئا.

جذبت أحد الممرضين المهرولين للداخل تسأله عما يحدث، فرد دون أن ينظر إليها وهو يسرع للدخول "المريض قلبه توقف"، وتركها في ذهولها. حين بدأ الفريق يخرجون واحدًا تلو الآخر، لم تكن حتى تجرؤ على السؤال عما وصلوا بابنها إليه، محتفظة لنفسها بأمل رأته في راحة وجوههم، متجنبة صدمة أن يكون الأمر غير ذلك.

***

- سيبيني ساكت الله يرضى عليكي يا ماما.

لم تمالك عصبيتها، وقالت بصوت مرتفع:

- مانا لازم اعرف ليه مش عايز تيجي تشتغل معايا؟!.. هي مش الشركة دي في الآخر بتاعتك ولازم تفهم شغلها وتتعلم إزاي تمشّيها؟!.

استرجع كل ما جرى خلال السنة الماضية في لحظة.. حياة أخيه التي دمرتها حين تسببت في طلاقه من زوجته، التي كان يعشقها، بعد ثلاث سنوات فقط من زواجهما. ابنة أخيه التي عرفت اليتم قبل أن تتم الخمسة أعوام.. وحتى والده الذي ترك المنزل، ولم يطق أن يستمر معها، بعد وفاة حسن.

نظر لها بابتسامة باردة، لا تعبر عن أي شيء، وقال:

- عارفة انا ايه اللي مخليني لسة قاعد في البيت ده؟

هزت رأسها مستفهمة، ليجيب:

- عُلا.

هذه الطفلة التي يعتبرها ابنته، ويتحمل مسئوليتها عنها منذ وفاة أخيه.

لقد تزوجت والدتها مرة أخرى بعد طلاقها بسنة، أي قبل وفاة حسن بسنة، ثم حاولت استرداد ابنتها بعد وفاة حسن، ولكن هادية رفضت بشدة، حتى مع إجماع الآخرين أن حياة علا ستكون أفضل مع والدتها. أخرست النقاش بصوتها الجهوري وحزم قرارها بلا رجعة، كعادتها:

- بنت ابني مش هتتربى مع جوز ام.

نظر لوالدته بأسى، ثم قال:

- مش عايز اسيبها معاكي لوحدك.. عشان ماتبقاش شبهك.

احمر وجهها بشدة، ولكنه لم يلتفت إليها واتجه لغرفته، فسارعت تعترض طريقه تسأله:

- ليه كل ده؟!

كانت والدته سببا في تدهور نفسيته في كل مرحلة من مراحل حياته، بسبب تحكمها الرهيب في كل من في البيت. ليس من ترك مكانه وأرضه وسافر بعيدا أشد ألمًا ممن يقيم بين أهله ويشعر معهم بالغربة. أي حياة تلك التي نتكلم عنها، أو تظن أنهم يعيشونها داخل الغرف المغلقة دوما على ساكنيها؟!.. ذلك الهروب من الواقع، بل من كل شيء حتى الحلم والأمل أصبح أسلوب حياة القاطنين بهذا البيت تحت مسمى "عائلة". كذبة على الأوراق لا تؤكدها الأفعال والعلاقات، فتصبح جميع الطرق لا تؤدي إلى شيء سوى فراغ، كرسالة ضلت طريقها ولم تصل، كوصال مفقود.

كان حسن خريج كلية إعلام، وكان طموحا، واستطاع أن يعمل بقناة تلفزيونية شهيرة براتب مجزٍ، وبدأ حياته سعيدا مع زوجته وزميلته في العمل، حتى أقنعته أمه أن يعمل معها، ليحمل معها مسئولية الشركة التي ستكون له ولأخيه فيما بعد. لم يكن يحب عملها ولا طبيعته، ولكنه لم يستطع أن يرفض لها طلبًا، ولو على حساب نفسه، فكان ينظم وقته بين وظيفته وشركة والدته، وبدأ ينشغل عن زوجته، وبدأت حياته في التوتر. حاولت زوجته إقناعه بأن يبتعد عن العمل مع والدته، لتنعم بوجوده معها، الذي أصبح نادرا، ولكن كانت هادية قد أحكمت

سيطرتها على ابنها، فلم تستطع تحمل كل ذلك، ولم يستطع حسن أن يقف في وجه والدته، فانفصلا رغم حبهما الكبير. لقد لقى حسن مصرعه في أحد المواقع التابعة للشركة، وهو يتابع عملية البناء، ولم يرجع والده إلى البيت بعد دفن ابنه، وحتى الآن. حمزة أيضا كان يريد الرحيل وتركها بمفردها، لكنه لم يستطع، فقط كي لا يترك الصغيرة معها. موت أخيه كان بمثابة الشوكة التي كسرت ظهره وظهر البيت كله.. إلاها! هي الأم التي افترض الجميع أن تكون الأكثر تأثرًا، لم تتأثر بشيء!

نظر بعينه إلى الأرض وقال:

- عشان انتي مابيهمكيش الا نفسك.. اخويا مات بسببك.

صرخت في وجهه وهي تمسكه من كتفيه، وتقول بصوت متهدج قارب على البكاء:

- حرام عليك.. انا كنت عايزاه يكون احسن واحد في الدنيا.

لم يهتم لبكائها، فلن يغير البكاء شيئا. هم بتركها ودخول غرفته، فصفعته على وجهه قائلة:

- حرام عليك.. انا عايزاكم تكونوا أحسن مني كمان.

نظر لها في ذهول.. لم يتخيل أنها ستفعل ذلك في يوم من الأيام. نظر لها وعينه تملؤها الدموع، لأنه مع هذه الصفعة قد خسرها وخسرته للأبد.

هم بدخول غرفته، لكنه عاد والتفت إليها بنظرة قالت الكثير في لحظة دون كلام،، ثم اندفع خارجا من البيت، وصفق الباب بقوة

حتى كاد أن يكسره. نزل مهرولا على السلم، لا يهمه أين يذهب، ولكن فقط يريد الابتعاد عن هذا البيت بأقصى ما يمكنه. كان يتحدث مع نفسه، وتمر أمام عينه صورا كثيرة لعلا وأبيها معا، غير سامع لصوت أمه تناديه من الشرفة أن "تعالى هنا"، ولكنه لم يكن يعي شيئا وهو يهرول عبر الشارع، غير منتبه لسيارة قادمة بسرعة.. فصدمته السيارة بقوة جعلت جسده يطير لعدة أمتر، ولاذ سائقها – الذي لم هذا ذنبه – بالفرار.

***

"الساعة ٥ مساءً"

يتحرك عُمر وعبد الحميد والد حمزة أمام العناية المركزة ذهابا وإيابا، وما زالت هادية في جلستها نفسها، تقرأ في المصحف، عسى أن يسمع الله نداءها ودعواتها، ومازالت تبكي بلا توقف. خرج الطبيب إليهم مبتسما للمرة الأولى منذ دخل حمزة المستشفى، وقال لهم:

- حمد الله على سلامة حمزة.. شيلناه من على جهاز التنفس وهو دلوقت فايق وكويس.. شوية كده نتطمن على استقرار تنفسه من غير الجهاز وتقدروا تدخلوا تشوفوه

أسرعت هادية إليه ترجوه بصوت متهدج:

- طيب ممكن أدخل اتطمن عليه واخرج يا دكتور، أنا أمه

نظر لها زوجها نظرة ناهية، فقال الطبيب:

- هينفع يا ستي بس ساعة كده نتطمن عليه ويستقر الأول.. ولما تدخلوا هيبقى ٥ دقايق بس ومافيش أي جدل أو انفعال لو سمحتم.. هم ٢٤ ساعة إن شاء الله وننقله اوضة عادية وتقدروا تقعدوا معاه طول اليوم.

شكروا الطبيب، وجلسوا ينتظرون ساعة كأنها سنوات، حتى مرت أخيرًا، فدخل عمر أولا، فوجده في السرير، وعيناه مفتوحتان في وهن، وقد رفع الممرضون الفراش لجعله نصف جالس، فابتسم في سعادة وشوق قائلا له:

- حمد الله على السلامة يا ريس.. ينفع كده انخضه دي يعني؟

نظر له نظرة حانية ولم يرد. كان واهنا جدا، لا يكاد يستطيع تحريك رأسه حتى. تحرك بعينيه بينهم، فظهرت الدهشة على وجهه وهو ينظر إلى والده، الذي وصل إلى جوار فراشه هو وأمه في هذه اللحظة. حاول حمزة أن يتكلم، فلم يستطع أن ينطق. هناك أشياء كثيرة يريد أن يعرفها ويسأل فيها، ولسانه لا يطاوعه في الكلام. ظل والده يتكلم معه، وحمزة ينظر له ولا يرد، ولا يبدي أي رد فعل تقريبا لم يحاول أن يتحرك، فقلق والده وطلب استدعاء الطبيب مرة أخرى، بينما جلست والدته على كرسي بجواره تحاول أن تحبس دموعها كي لا تزعجه.

عاد طبيب الرعاية إليهم، ليفحص حمزة جيدًا، ثم طلب استشاري الأعصاب لفحصه. انتظر الجميع وكل الهواجس السوداء تطوف برؤسهم، وسأل عبدالحميد:

- مش قلت يا دكتور ان المخ سليم وما كانش فيه غير شوية تورم من الخبطة وراحوا؟!

أجابه الطبيب:

- ده حقيقي ولحد دلوقت مش شايف سبب عضوي للي هو فيه، وعلشان كده طلبت استشاري الأعصاب.

لم يجد عبدالحميد ما يجادله به، فانتظر حضور الاستشاري، الذي لم يتأخر، فخرج الجميع ينتظرونه إلى أن أنهى فحصه الدقيق، وكتب بعض الفحوصات لتأكيد تشخيصه، ثم خرج إليهم، فهرعوا لسؤاله، عساه يطمئنهم. قال الطبيب بهدوء، محاولا شرح الوضع في صورة مبسطة:

- حمزة عنده حاله اسمها " Catatonia ".. دي بتحصل في الحالات اللي زي حالته، نتيجة ضغط عصبي شديد مع الحوادث والإصابات الشديدة، أو بتحصل للمدمنين أحيانا.. انتم متأكدين انه ما كانش بيتعاطى حاجة؟

نفوا جميعهم تماما أدنى احتمالية لذلك، فأخذ نفسا وابتسم بهدوء:

- طيب الحمد لله ده يسهل الموضوع كتير. قدامنا حل من اتنين، إما العلاج بالدوا.. بالمهدئات، وياريت ما تقلقوش منها مافيش احتمالية

للإدمان في مريض بياخد العلاج صح. أو الاختيار التاني جلسات العلاج بالكهرباء.

انهارت هادية على أقرب كرسي تنوح، فابتعد عبدالحميد مع الطبيب خطوات عندها، ومضيا يتفقان على خطةَ العلاج الأنسب لحمزة، بعيدًا عن قسوة الاحتمالات على قلب أمه. بعدها طلب عمر من هادية وعبدالحميد أن يذهبا ليرتاحا، وأصر على ذلك، وكانا بالفعل يحتاجان ذلك بشدة، وأقنع عبد الحميد زوجته أن عليها أن تحمد الله وتأمل خيرًا، فمنذ ساعات كان حمزة غائبا بين الحياة والموت، والآن هو يفتح عينيه ويراهما ويتعرف عليهما، وهناك علاج لحالته أيًا كان، فليس ميئوسًا منه. لم يقسُ عليها أكثر من ذلك، وعاد معها إلى بيتهما، فقد رأى أنه يكفيها ما يعذبها من شعور بالذنب، فلا معنى لأن يجلدها أكثر، فلعل نجاة ابنهما تفعل بها ما لم يستطع-موت أخيه فعله، فأحيانا تكون الحياة أقوى تأثيرًا من الموت.

ظل عمر بجانب صديقه لم يفارقه، وسمح له الطبيب أن ينام على كرسي صغير بجانب سريره. وفي الصباح، كان برنامج علاجه قد بدأ ببعض الأدوية، مع العلاج الطبيعي المكثف. مرت ٤٨ ساعة منذ إفاقته وفصله عن جهاز التنفس وهو في حالة من الحيرة والتوهان، قبل أن يبدأ في إدراك حقيقة كل ما جرى، ويميز إلى حد كبير الحقيقة من الخيال. في بداية اليوم الثالث، بدأ يستجيب للعلاج، ويتكلم ببطء، ويحاول تحريك أطرافه، فتم نقله من الرعاية المركزة إلى حجرة عادية

أخيرًا. كان ينظر لوالده بابتسامة طيبة، كأنه يشكره على وجوده بجانبه. لم تكن سوى أيام، ساعد على اختصارها عزيمة حمزة للشفاء، وقرر الأطباء خروجه من المستشفى، مع استمرار متابعته للتخلص تدريجيا من المهدئات، ومع استمرار برنامج العلاج الطبيعي لفترة. انتهوا من الإجراءات اللازمة، ثم هم الجميع بالرحيل، حامدين الله على عودة حمزة إليهم

***

" ٥ فبراير "

وقفوا أمام المستشفى، و أسرع عبدالحميد فأحضر سيارته من موقف السيارات، وركبت هادية، لكن فاجأهم حمزة أنه ظل واقفا بجوار عمر، وقال وهو ينظر لوالده بهدوء:

- روح انت مع ماما وانا هروح مع عمر.. معلش، انا مش هرجع البيت تاني.

حبست والدته دموعها، وحاولت إقناعه بالعودة، مع وعد أن يجد كل التغيير الذي يتمنى في كل شيء.. حاول والده أيضا أن يحيده عن هذا القرار، لكنه صمم على تنفيذ قراره، فأشار لهما عمر أن يتركاه معه الآن، فاستسلما لرغبة ابنهما، وغادرا في قلق عليه، فهو لم يزل يحتاج إلى تكملة علاجه، لكن وجود عمر، صديقه الوفي معه بعث فيهما بعض الاطمئنان. أخذ عمر وحمزة سيارة أجرة إلى البيت، وفي الطريق سأل حمزة عمر عن علا، فقال:

- عُلا من يوم الحادثة وهي معانا في البيت، انت عارف هناء روحها فيها.

اطمأن قليلا، ثم تابع بنفس الهدوء:

- واخبار الشغل ايه؟

ضحك عمر من سؤال صديقه، وقال بمرح:

- ياعم هو انت كنت مسافر؟!.. الشغل تمام الحمد لله.

تذكر حمزة شيئا هاما فقال:

- فاكر يا عمر الشقة اللي عندكو في الدور الأول.. اللي كنت بتقولي انكم عارضينها للإيجار.

هز عمر رأسه، فتابع:

- انا هقعد فيها..

حاول عمر أن يعترض، مصرًا أنه سيمكث معه في منزله لرعايته في فترة نقاهته، فقال في حزم:

- اسمع الكلام يا عمر.

وصلا لبيت عمر، فهرولت إليه علا، فضمها إلى قلبه، وقبلها كثيرا. اطمأن عليها، وسلم على الجميع، ثم دخل لغرفة عمر، فألقى بجسده على السرير، وطلب من عمر أن يغلق الباب..

- اقعد بقى عشان عايز احكيلك حاجة مهمة.

سرد له كل ما رآه أو عاشه، ولا يجد له تفسيرًا.. حكى له عن موت أبيه، وعن عيد الحب " ١٤ فبراير" الذي لم يأتِ بعد. نظر له عمر بريبة وخوف حقيقي، ثم سأله في قلق:

- انت كويس؟

أخذ نفسا، ثم تابع:

- طب ليه ماقولتش الكلام ده في المستشفى؟ أكيد عندهم تفسير لكل ده.

هز رأسه نافيا، ثم قال بغضب:

- أنا مش مجنون يا عمر.. انا عشت الكلام ده كله.. انا حاسس بيه قوي، وحاسس بيها قوي.

وضع عمر يده على رأسه، ثم قال بتوتر:

- طب بص.. انت لازم تحكي لدكتور نفسي الكلام ده.

نظر في الأرض، وقال لصديقه بيأس:

- أنا مش مجنون يا عمر.

جلس عمر على الأرض أمامه، وفكر قليلا ثم قال:

- ماحدش قال انك مجنون بس لازم نعرف تفسير الكلام ده ايه.

هز رأسه موافقا، ثم قال له أخيرا:

- من بكرة هنزل انا وعلا الشقة اللي تحت وانت بكرة تروح البيت عندنا ومعاك عربية نص نقل وتنقل لي الاوضة بتاعتي بكل اللي فيها هنا.. اتفقنا؟

خرجا مرة أخرى، وجلسا وسط أسرة عمر: والده ووالدته وشقيقته هناء.

جلست علا في حجر عمها حمزة أمام التلفاز، والكل يتابعون مسلسلا، بينما هو أغمض عينيه ليتابع حياة أخرى لم يعد يعرف عنها شيئا.. حياة يشتاق إليها ويفتقدها بكل تفاصيلها.

***

عاد كل شيء كما كان.. استرد حمزة عافيته كاملة تقريبا بعد يومين من الراحة في شقته الصغيرة الجديدة، التي رتبها له صديقه. عاد إلى عمله في المكتب مع عمر، بينما تقوم هناء بالاهتمام بعلا في غيابه. اتصل بوالدة علا، وأخبرها بمكان ابنتها الجديد، وبأن لها مطلق الحرية في زيارتها واصطحابها وقتما تشاء. وبدون علم عمر، أخذ ميعادا مع طبيب نفسي ليحكي له ما حدث.

على الكرسي المقابل للطبيب النفسي، جلس يحاول الاسترخاء، وبدأ يحكي له كل شيء بالتفصيل. دون الطبيب ملاحظاته في أجندة صغيرة بجانبه، ثم سأله:

- ماسألتش نفسك ليه والدك كان متوفي في الأحداث دي؟.. ليه كنت عايش لوحدك بعيد عن والدتك؟.. ليه كان شغلك مالوش أي علاقة بمؤهلك اللي اصلا ماكانش هندسة.

هز رأسه نافيا، فتابع الطبيب:

- تفسير موت والدك في اللي حكيته ممكن يبقى انك مفتقده وشايفه بعيد عنك كما لو كان ميت.. أو انك بتحبه لدرجة ان عندك استعداد يكون ميت مرتاح ولا عايش تعبان في ظل الظروف اللي انت حكيتها.

نظر الطبيب في أجندته، ثم قال:

- باقي الحكاية انت كان نفسك تعيشها ومالقيتش مكان تعيش فيه ده غير خيالك.. ومن غير ما تعرف بدأت فعلا تعمل ده دلوقتي بعد الحادثة.

نكس رأسه وقال في يأس:

- يعني كل ده كان وهم!..

قام الطبيب من مكانه، وجلس على الكرسي المقابل له، ثم قال وهو يشير بسبابته إلى رأس حمزة:

- كل ده كان هنا.

أخذ نفسًا طويلًا، ونظر له بهدوء وهو يتابع:

- انت الوحيد اللي تقدر يا تخليه مجرد وهم هنا.. يا تحققه.

"مش فاهم" ، قالها حمزة وهو لا يشعر بأي شيء تجاه أي شيء... لم يكن يريد أي شيء في حياته إلا أن يحصل عليها مرة أخرى.. يشعر بحنين غريب إليها. لا يمكن أن يكون حنينه الهائل هذا مجرد وهم!

ربت الطبيب على ركبته، ثم قال:

- اللي انت فيه ده لو في أي دلائل أنه حصل فعلا كان ممكن نفكر في حالة فصام. بس باقي الحكاية، ووجود شهود عليها، والدتك وعمر ووالدك.. ده غير التواريخ اللي حصل فيها كل ده.. يبقى انت كده تمام يا حمزة، والموضوع كله أن عقلك الباطن استغل وقت فقدانك الوعي بعد الحادثة وخلاك تعيش كل الحياة اللي انت اتمنيتها.. بس في المجمل انت كويس ما تخافش من حاجة وعيش حياتك طبيعي.

نظر إليه حمزة بعين حائرة وقال:

- بس انا مش كويس..

نظر له الطبيب ولم يعقب، فتابع:

- المفروض اعمل ايه؟

هز طبيبه رأسه وقال:

- انت الوحيد اللي عارف احتياجك ايه.. امسك خيالك بإيدك، ونزله من دماغك لأرض الواقع.. عيش واتنفس معاه هنا بإرادتك، بدل ما تعيش جوة دماغك غصب عنك.

انتهت جلسته مع الطبيب، فشكره وغادر في هدوء يائس، بلا أي خطوط واضحة لما يجب عليه فعله.

مرت الأيام التالية بشكل طبيعي، بين العمل والبيت ولقاء والده كل يومين في أي مكان غير المنزل القديم. كرس حياته للعمل وعلا مرة أخرى. تذكر أنه بالفعل لم تكن له أي تجارب قبل ذلك. ضاحكا في سخرية على نفسه، تذكر شيئا هاما، ففتح متصفح الفيس بوك من هاتفه المحمول وهو عائد من مكتبه مع عمر، وكتب في مكان البحث "ود سليم".. يتذكر الاسم جيدا، ويتذكر صاحبته بكل تفاصيلها. ظل يراقب المؤشر هو وصديقه في انتظار النتيجة.. وكانت النتيجة أن الاسم غير موجود، فابتسم ابتسامة يائسة، ونظر من النافذة إلى اللاشيء.

***

" ١٢ فبراير"

دخل عمر عليه المكتب، تملؤه الحيوية والسعادة وهو يغني ويرقص.. مكتب صغير لا يوجد فيه سوى حمزة وصديقه فقط، يديرون فيه كل شيء بنفسيهما، واستطاعا في فترة قليلة أن يجعلا لهما اسما في السوق المحلي.

نظر له حمزة بهدوء، ثم سأله عن سبب سعادته، فقال عمر بنبرة مرحة:

- حد من شركة الصديق اتصل عليا النهارده عايزنا في شغل.

استغرب حمزة، فليست هذه المرة الأولى الذي تتصل بهم شركة للاتفاق على شغل. لم يعقب -كعادته - على تهويل صديقه للأمر، فتابع عمر بنفس المرح:

- يابني مؤسسة الصديق من المؤسسات الضخمة في عالم المقاولات في مصر.. ولو مسكنا شغل معاهم هنعدي بقى.

ارتسمت ابتسامة على وجه حمزة، وربت على كتف صديقه، ثم قال بنفس الهدوء:

- انت ابن حلال وتستاهل كل خير يا عمر.

ضحك عمر وقال لصديقه:

- انت محسسني اني شغال لوحدي.. ماهو الخير ده لينا سوا يابني.

فتح عمر الثلاجة الصغيرة، التي يضعها بجانب مكتبه، وأخرج زجاجة مياة غازية وفتحها وشرب منها قليلا، ثم قال لحمزة:

- خد بقى العنوان ده عشان في ميعاد مع رئيس مجلس الإدارة بعد بكرة.

نظر له باستغراب وقال:

- مش فاضي.. روح انت.

هز رأسه رافضا وقال:

- وراك ايه يعني.. انا يومها خارج مع خطيبتي.. يرضيك ماخرجهاش في يوم زي ده؟

نظر له في تساؤل..

- ماله يعني بعد بكرة.. فيه ايه؟

- عيد الحب يابني.. بعد بكرة عيد الحب يا حبيبي.. كل سنة وانت طيب.

ضحك، ثم قال لصديقه:

- خلاص يا معلم هاروح انا أحسن سلمى تعلقك.

تنحنح عمر ولم يرد، فتابع حمزة:

- ربنا يكون في عون البنت دي.. مش عارف مستحملاك ازاي.

ضحك عمر ثم قال:

- والله يابني انا ملاك.

انتهيا من عملهما، ثم استقلا أول سيارة أجرة لمنزلهما، فأخذ حمزة علا، وأعدا الغداء "مكرونة وبانيه" ثم دخل إلى غرفته مباشرة، وفتح اللاب توب، ثم متصفح الفيس بوك، وبدأ يكتب إليها وعنها.

كتب في المكان المخصص في صفحتة الشخصية..

"يا مخلوقة من ضلعي.. تعالي هنا مكانك ♥.. #إليكِ"

يشعر بالتوهة بدونها.. "ود" تعني له الكثير.. الكثير جداً.

أرسلت له نوره رسالة تقول فيها:

- انت ارتبط من ورايا يا حمزة.. والنعمة لأوريك.

نوره هي صديقته المقربة، التي يعتبرها أخته، وهي الأنثى الوحيدة التي يعرفها، ويستطيع أن يحكي لها ما يشعر به دون أن تفهمه بطريقة خاطئة. رد على رسالتها وهو يبتسم:

- والله يا نورا أبدًا.. الموضوع كبير وانا مش فاهم حاجة.

استشاطت غضبا ثم قالت:

- الرحمة من عندك يارب.. يابني اسمي نوره مش نورا...

ضحك من قلبه كعادته معها.. دائمًا تفهمه وتقدر ما يمر به. رغم أن نوره هي صديقة افتراضية على موقع التواصل الاجتماعي، ولم يلتق بها قط، فقد استطاعت أن تكون صديقته المفضلة، التي يحكي لها كل ما يشعر به، وتنصحه باستمرار. حكى لها كل حكايته، فقالت:

- هتلاقيها.. وبكرة تقول نورا قالت.

ضحك وهو يعقب:

- نوره مش نورا.

أنهى كلامه معها كعادته بالصمت. سكت حمزة، فلم تتكلم كي لا تزعجه، هذه هي عادتها، تفهمه أكثر من نفسه، وتقدر صمته. أغلق اللاب توب، وظل يفكر فيما رأى، واستغرق كثيرا حتى غط في نوم عميق.

" ١٤ فبراير "

البدايات كما يجب أن تكون

كان يشعر بصداع خفيف في مؤخرة رأسه، ولا يدري له سببا. عبر إشارة المرور بينما تتساقط قطرات المياه من السماء على المارة القلائل المحاولين تفاديها. عبر الطريق، ووقف على الجهة الأخرى يستقبل حبات المطر بحفاوة، وابتسامته لا تفارق وجهه. نظر في ساعته، فوجد عقاربها تقترب من الثانية، فأخذ نفسا عميقا، ثم أشار لأول تاكسي متجه إلى مؤسسة الصديق، لحضور ميعاد العمل.

وصل إلى مكان السكرتارية، وأخبرهم باسمه، فقال السكرتير:

- عادل بيه في انتظار حضرتك.

استغرب حمزة، واندهش أكثر من تصميم المكان.. يشبه كثيرا الشركة التي كان يعمل بها مع وليد! انتبه من شروده على صوت السكرتير:

- اتفضل يا فندم..

دخل إلى المكتب، قابله عادل بابتسامة صافية وعين لا يشوبها إرهاق ولا يحيطها سواد. إنه هو وليد، لا يمكنه أن يكذب عينيه.. لا يمكن أن يكون هذا وهماً!

صافحه عادل، فصافحه وهو ذاهل، وقد بدأ الصداع يزيد عليه. شعر عادل أن هناك شيء غير طبيعي، فسأله:

- في حاجة يا بشمهندس؟

انتبه لسؤاله، فرد وهو يهز رأسه نافيا:

- لأ يا فندم مافيش حاجة.

لا يمكنه استيعاب كل ما يحدث من بعد الحادث.. انتقاله غير المقصود إلى شقة عمر، التي كانت شقته فيما رأى. عادل - أو وليد - الذي قابله الآن ولم يعرفه.. لم يبق سواها. كان يتأمل وجه عادل، فيطمئن قلبه على وليد وأفكاره في ارتباك تام. ناقشا سويا أمور المشروع الذي سيتكلف به مكتب حمزة وعمر، وانتهى اللقاء باتفاق جيد، فصافح عادل بود حقيقي ثم غادر وفي داخله فوضى رهيبة يريد أن يضع لها حداً.

نزل من التاكسي قبل المنزل، وذهب ليجلس في مواجهة النيل قليلا، وتربع على الجزء المبني من السور، وأخذ ينظر للقمر. أخذ نفسا عميقا من الهواء، الذي تخلل قسمات وجهه، وسافر خياله إليها.. تذكر وجودها بجانبه على الشاطئ، ومداعبته لها.. تذكر احتياجه لها.. لها هي

على وجه الخصوص. غرق في الذكريات التي لم تكن بعد، حتى إنه لم يشعر بمرور الوقت، ولا شعر بالشباب والفتيات المنتشرين في كل مكان، محتفلين بعيد الحب. تحرك ليشتري بعض احتياجات المنزل، وهم بالعودة للبيت, فوجد محل هدايا في طريقه، فتذكر شيئا من هذا القبيل حدث قبل ذلك. دخل المحل يبحث عن العروسة التي اشتراها قبل ذلك لعلا، فلم يجده، فاشترى لها واحدة أخرى، واشترى لنفسه ساعة أعجبته كثيرا، ثم غادر المكان.

امتلك الصداع رأسه، وبدأت عينه في عدم تمييز الأشياء، فتوجه لأقرب صيدلية، ليبتاع منها دواء للصداع. فدخل الصيدلي يحضره له، حين ظهرت هي من العدم!

فتح فمه من الدهشة.. لم تره.. إنها هي، بنبرة صوتها وملامحها وجمالها الذي لم يفارق خياله إطلاقا! دخلت تطلب دواءً للصداع هي الأخرى.

كان ينظر إليها وكأن عينيه ثبتتا عندها، لا تستطيعان مفارقتها. هل هو يحلم؟ هل يراها حقًا، وهل يراها أحدٌ غيره؟.. أغلق عينه وفتحها، ليجدها قد أخذت شريط الدواء، وتتحرك في اتجاه الباب، فناداها مرتبكا:

- ود.

لم تنظر نحوه، ولم يبد أنها تعرفه أو حتى لفت انتباهها. تحرك وراءها، وتخطاها، إلى أن أصبح أمامها، وسألها بنبرة راجية:

- مش انتي ود؟

وقفت لتنظر لهذا الغريب الذي تجاوز جميع الحدود بهذا الشكل، وقبل أن تغضب، فتحت عينيها عن آخرهما متفاجئة بملامحه، ومتذكرة لهذا الاسم غير الشائع، فعرفته، وردت بابتسامة تخالطها الدهشة:

- بس انا مش وِد يا حمزة .

* تمت بحمد الله *

- شكر خاص لـ -

الحاج صاحب البيت .. أبويا ♥ .. ربنا يخليك ليا يا حاج ولا يحرمني من وجودك أبدا .. ويصبرك على ما بلاك (اللي هو انا يعني) .

أمي وأخواتي .. ربنا يخليكو ليا سند وضهر في الدنيا .. وجودكم ويديم في حياتي .

حمايا وحماتي .. شكرا ليكم بجد على كل حاجة .. شكرا انكم بقيتو ليا عيلة تانية .. وشكرا جدا انكم أهديتموني أجمل هدية في عمري ♥

أصدقائي القليلين جدا في العدد والكبار جدا في المقام .. شكرا لوجودكم جنبي من أول الطريق لغاية دلوقتي .. تعبتو معايا واستحملتو كتير قوي .

أعضاء جروب عصير الكتب اللي كان ليهم الدور الأساسي في تنبيهي اني ممكن اكتب رواية .

قراء بيت كتابيكوا .. انتوا كنتوا أحسن بداية ممكن أي كاتب يبدأها في حياته .. شكرا ليكوا ولكتابيكوا الاكثر من رائع .

دار نشر " الرسم بالكلمات " .. نشرت معاكم أول عمل ليا " مالك " والحمد لله مكملين سوا بالعمل التاني .. شكرا على كل حاجة وربنا يديم الخير والاحترام المتبادل بينا يارب .

(+ ٦٠ الف متابع) الداعمين ليا دايما .. انتم الفرحة والرزق والسند اللي ربنا أكرمني بيه .. يا رب الرواية تعجبكم .. وأكون عند حسن ظنكم .. وأكون قدرت أقدم حاجة أقوى تحترم عقولكم .. شكرا جدا لوجودكم ومحبتكم اللي مخلياني مستمر ومكمل في طريقي .



ليس من ترك مكانه وأرضه وسافر بعيدا أشد ألمًا ممن يقيم بين أهله ويشعر معهم بالغربة. أي حياة تلك التي تتكلم عنها، أو تظن أنهم يعيشونها داخل الغرف المغلقة دوما على ساكنيها!!.. ذلك الهروب من الواقع، بل من كل شيء حتى الحلم والأمل أصبح أسلوب حياة القاطنين بهذا البيت تحت مسمى "عائلة". كذبة على الأوراق لا تؤكدها الأفعال والعلاقات، فتصبح جميع الطرق لا تؤدي إلى شيء سوى فراغ، كرسالة ضلت طريقها ولم تصل، كوصال مفقود.



محمود بكري: روائي مصري من مواليد ١٩٩٣ محافظة الشرقية، حاصل على دبلوم صنايع، صدرت له مجموعة قصصية الكترونية "احتياج" التي تصدرت قوائم الاكثر قراءة على مواقع الكتب الالكترونية، وتعتبر رواية "مالك" روايته الاولى التي دخلت قوائم الاكثر مبيعا منذ صدورها حتى الان.. وتعتبر رواية "بره الدنيا" هي ثاني رواية له.



